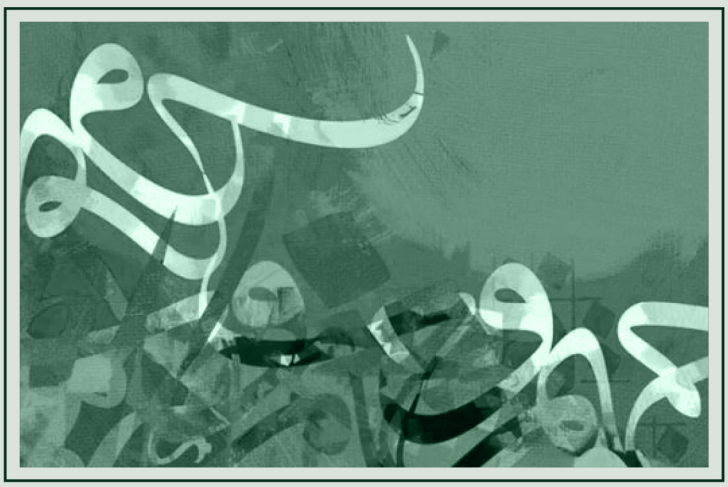
مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية
King Salman Global Academy for Arabic Language

العربية الفصحى
ومقارباتها الاستشراقية



عبد المنعم السيد أحمد جدامي

٢٢
الدراسات

مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية
King Salman Global Academy for Arabic Language

العربيـــة الفصحـــى
ومقارباتها الاستشراقية

عبد المنعم السيد أحمد جدامي

٢٢
الدراســـات



العربية الفصحى ومقارباتها الاستشراقية

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ ٢٠٢٣م

البريد الإلكتروني: nashr@ksaa.gov.sa

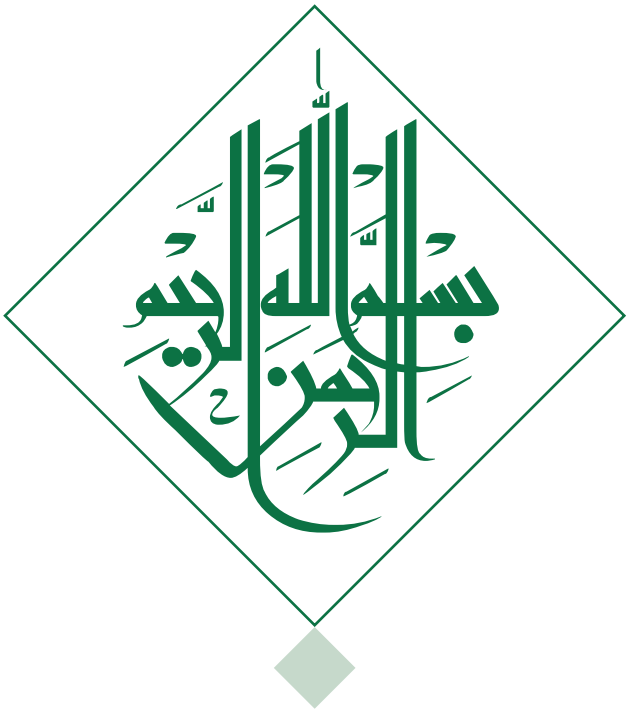
ح/ مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ١٤٤٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ١٤٤٥هـ
حدامي، عبدالمنعم السيد
العربية الفصحى ومقارباتها الاستشراقية. / عبدالمنعم السيد حدامي. - الرياض، ١٤٤٥هـ

٢٩٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٨-٢٥-٨٤١٣-٦٠٣-٩٧٨
١ - اللغة العربية أ. العنوان
ديوي ٤١٠ ١٤٤٥/٣٠٣٩

رقم الإيداع: ١٤٤٥/٣٠٣٩
ردمك: ٨-٢٥-٨٤١٣-٦٠٣-٩٧٨

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو نقله في أي شكل أو وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أم يدوية، بما في ذلك جميع أنواع تصوير المستندات بالنسخ، أو التسجيل أو التخزين، أو أنظمة الاسترجاع، دون إذن خطي من المجمع بذلك.

هذه الطبعة **إهداء من المجمع** ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المجمع	٩
المقدمة	١١
تمهيد: العربية الفصحى: المفهوم والمصطلح	١٩
الفصل الأوَّل: مقاربات المستشرقين للعربية الفصحى نظرة عامة	٢٩
(١) لهجة قبيلة عربية ما	٣١
(٢) اللغة العربية الفصحى مستوى أدبي	٤٧
(٣) العربية الفصحى لغة مصطنعة	٥٢
(٤) العربية الفصحى لغة العرب القديمة	٥٧
(٥) اتجاه متشكك	٦٩
الفصل الثاني: تصور المستشرقين جوشوا بلاو وكيس فرستيخ للعربية الفصحى	٧٩
تصور المستشرق جوشوا بلاو	٨١

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الموضوع	الصفحة
أولًا: العربية القديمة والعربية المولدة	٨١
ثانيًا: القرآن ولغة مكة، وهل توجد ازدواجية لغوية قبل الإسلام؟:	٩٢
ثالثًا: رد جوشوا بلاو على فرضية المستشرق الإسباني فردريك كورينتي	٩٦
تصور المستشرق وكيس فرستيخ	١٠٦
أولًا: عربية الجاهلية والعربية المولدة	١٠٧
ثانيًا: النحو العربي وظاهرة اللحن	١١٣
ثالثًا: تأريخ ابن خلدون للعربية	١١٧
الفصل الثالث: تحليل ومقارنة لتصور المستشرقين بلاو وفرستيخ	١٢٥
الإعراب ظاهرة لغوية	١٢٨
مناقشة رد بلاو على كورينتي في قضية الإعراب	١٥٠
الفصل الرابع: النظريات التشكيكية وأثرها في تناول العربية الفصحى	١٦٧
أولًا: الشك في لغة القرآن	١٧٥
ثانيًا: الشك في رواة اللغة	١٨٤
ثالثًا: أصحاب الشك في الشعر الجاهلي، وأخطاؤهم في تاريخ اللغة العربية	١٩٣
(١) جوهر فرضية مرجليوث – طه حسين في الشعر الجاهلي	١٩٤
(٢) فرضية مرجليوث – طه حسين والعربية الفصحى	٢٠٦

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس: تحليلات المستشرقين في ضوء التصورات التراثية	٢٢٣
أولًا: اللغويون العرب القدماء والفصحى	٢٢٦
ثانيًا: الجاحظ والواقع اللغوي العربي في عصره	٢٥١
ثالثًا: المؤرخون العرب القدماء والفصحى (ابن خلدون)	٢٥٦
الخاتمة	٢٦٣
المصادر والمراجع	٢٧٥
أولًا: العربية	٢٧٧
ثانيًا: الأجنبية	٢٩٠
نبذة عن المؤلف	٢٩٥

مقدمة المجمع

ينشط مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية في مسارات عمل متنوعة، ويتولى مهام متعددة تتصل بنشر اللغة العربية ودعمها وتعزيز مكانتها، والمحافظة على سلامتها نطقاً وكتابة، والنظر في فصاحتها وأصولها وأساليبها وأقيستها ومفرداتها وقواعدها، وتيسير تعلّمها داخل المملكة وخارجها لتواكب المتغيرات في جميع المجالات، ويتمثل طموح المجمع أن يصبح مجمعاً متميزاً لخدمة اللغة العربية ينطلق من قلب العالم الإسلامي والعربي، ومن مهد العروبة الأول، وأن يصبح رائداً ومرجعية عالمية في مجال اللغة العربية وتطبيقاتها المتنوعة.

وضمن توجيهات سمو وزير الثقافة رئيس مجلس الأمناء الأمير بدر بن عبدالله بن فرحان آل سعود - حفظه الله - على دعم أعمال المجمع وبرامجه العلمية والثقافية والبحثية، فقد أطلق المجمع مشروعَ المسار البحثي العالمي المتخصص؛ لتلبية الحاجات العلمية، ومواجهة المشكلات اللغوية، وسدّ الفجوات المتعلقة بالبحث والنشر العلمي، وفتح الآفاق العلمية والمعرفية المتنوعة، واستكمال مسارات النشر اللغوية المتخصصة.

ويهدف المشروع إلى تعزيز دور المجمع وإيصال رسالته؛ بتغطية مساحات متنوعة من التخصصات والفنون المتعلقة باللغة العربية، وإثراء المحتوى العلمي ذي العلاقة بمجالات اهتمام المجمع، ودعم الإنتاج العلمي المتميّز وتشجيعه، وفتح المجال أمام الباحثين والمختصين وتوثيق صلتهم بالمجمع؛ وذلك بإشراكهم في أعمال هذا المشروع.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويضـم المشـروع مجـالات بحثيـة متنوعـة، ويغطـي الموضوعـات الـتي تعـزّز موقـع العربيـة ضمـن اللغـات الحضاريـة العالميـة، ومـن أبرزهـا: دراسـات الـتراث اللغـوي العـربي وتحقيقـه، والدراسـات حـول المعجـم، وقضايـا المصطلـح، وقضايـا الهويـة اللغويـة، ومكانـة العربيـة وتعزيزهـا، واللسـانيات التطبيقيـة، والتخطيـط اللغـوي والسياسـة اللغويـة، وحوسـبة اللغـة العربيـة واللسـانيات الحاسـوبية، والترجمـة والتعريـب، وتعليـم اللغـة العربيـة للناطقـين بهـا وبغيرهـا، والدراسـات البينيـة.

وقـد بـدأ المشـروع باسـتقبال الدراسـات النوعيـة الجـادة، وتواصـل مـع المختصـين والباحثـين والمؤسسـات العلميـة داخـل المملكـة وخارجهـا، ودعاهـم إلى المشـاركة في المشـروع، وسـتطبع هـذه الأعمـال بعـد تحكيمهـا، والنظـر في مـدى إضافتهـا للمكتبـة العربيـة، والتأكـد مـن اسـتنادها إلى المعايـير العلميـة المتعـارف عليهـا في البحـث والمنهـج والتوثيـق.

ويهـدف هـذا الكتـاب (العربيـة الفصـحى ومقارباتهـا الاستشـراقية) إلى إثـراء المكتبـة العربيـة بالكتـب العلميـة في مجـال تاريـخ اللغـة العربيـة، ويناقـش اتجاهـات المستشـرقين في مفهومهـم للعربيـة الفصـحى وتنوعاتهـا في ضـوء مـا ذكـره العلمـاء العـرب القـدامى عـن العربيـة وظواهرهـا اللغويـة.

ويجتهـد المجمـع في انتقـاء الكتـب الـتي يكـون في نشـرها إضافـة معرفيـة نوعيـة، ويأمـل أن يكـون هـذا الكتـاب مفتاحًـا لمشـروعات علميـة وعمليـة ويحقـق إثـراء معرفيًـا لافتًـا.

ويشـكر المجمـع مؤلـف الكتـاب سـعادة الأسـتاذ الدكتـور عبدالمنعـم السـيد جـدامي؛ لمـا تفضـل بـه مـن عمـل علـمي جـاد، ويدعـو الباحثـين إلى التواصـل مـع مشـروع المسـار البحـثي للمشـاركة فيـه والمسـاهمة في إثرائـه.

الأمين العام للمجمع
أ.د. عبد الله بن صالح الوشمي

مقدمـة

كُتِبت في تاريخ العربية أبحاث عديدة بلغات مختلفة على أيدي المستشرقين، تباينت في قيمتها، فبعضها قيم اجتهد فيه أصحابه، ويستحق أن نفيد منه، وأن نحلل أفكاره، مشاركين أصحابه البحث؛ وبعضها يحتاج إلى مراجعة؛ نظرًا لسوء فرضه، وضعف بحثه، ويستحق كلا النوعين: الطيب، وغير الطيب، المشاركة والإفادة من النوع الأوَّل، والتصويب والمراجعة للنوع الثاني.

والحقيقة أننا نجد بحوثًا في تاريخ العربية ومراحلها بلغات أوربية (وبخاصة الألمانية والإنجليزية)، أمَّا باللغة العربية فقد أشار الأستاذ أحمد أمين – في مقدمة ترجمة كتاب المستشرق الألماني يوهان فِك: العربية ترجمة د. عبد الحليم النجار – إلى حاجتنا «إلى بحث دقيق، يبيّن لنا تطور الأساليب في اللغة العربية واللهجات في الأزمنة المختلفة، والأمكنة المختلفة، والعوامل التي عملت في هذا التطور من بيئات طبيعية، أو بيئات اجتماعية ... ولم نعرف كتابًا من قبل عالج هذا الموضوع معالجة مستقلة، بل نعرف نتفًا في الكتب هنا وهناك، ومسائل صغيرة بها. فوقف الأستاذ: يوهان فِك(Fuck, J.) نفسه على هذا البحث المضني العميق»[1].

إذا كان كلام الأستاذ أحمد أمين في سنة ١٩٥١م، فإنَّ الوضع لم يتغير حتى سنة ١٩٧٥م بشهادة من أ.د. محمد سالم الجرح في مقاله: التأريخ للعربية، الذي عرض فيه عددًا من الدراسات العربية عن تاريخ اللغة العربية، خلص منه إلى قوله: «ولعلَّنا بعد هذا

(١) الأستاذ أحمد أمين: مقدمة لترجمة كتاب العربية لفِك، ترجمة د. النجار ص ٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

العـرض الهـادئ لتلـك الدراسـات الحديثـة في مجـال التأريـخ للعربيـة نلمـس صـدق مـا قررنـاه مـن أنَّ مجـال التأريـخ للغـة العربيـة علـى خـلاف مجـال التأريـخ للنحـو العـربي، قـد أهمـل إهمـالًا يـكاد يكـون تامًـا في القديـم، كمـا اضطربـت الدراسـات المعـدودة الـتي اتجهـت إليـه في الحديـث، فقصـرت عـن بلـوغ الغايـة وتحقيـق المـراد»[1].

وأشـير إلى أنَّـه في فـترة ليسـت بعيـدة ترجمـت دراسـات عديـدة خاصـة بتأريـخ العربيـة، علـى رأسـها ترجمـة أ.د حمـزة المزيـني: دراسـات في تأريـخ اللغـة العربيـة، ترجـم فيـه عـددًا مـن الدراسـات لبـلاو، وفرجسـون، ورابـين، وزويتلـر، وأيضًـا هنـاك ترجمـة د سـعيد بحـيري: دراسـات في العربيـة. وهـي مجموعـة مقـالات لفيشـر وبـلاو، ومولـر، وفيلـد، وهيكـر، وغيرهـم، فضـلًا عـن أنَّ هنـاك عـددًا مـن الكتـب المؤلفـة بالعربيـة عـن العربيـة.[2] ومـن أسـباب اختيـاري لهـذا الموضـوع وجـود اختلافـات في تعيـين المـراد بالفصـحى عنـد المستشـرقين وعنـد العـرب أيضًـا.

بدايات البحث في اللغة العربية الفصحى عند المستشرقين

اهتـم الغـرب بدراسـة العربيـة لأسـباب عديـدة، منهـا أنَّ فكـرة التبشـير هـي الـتي حملـت الكنيسـة على الاشـتغال بالقـرآن واللغـة العربيـة[3]. ويشـير الأسـتاذ فرسـتيخ في شـرح مبسـط إلى أنَّـه أثنـاء الحـروب الصليبيـة في القـرن الثـاني عشـر الميـلادي دخـل الأوربيـون في علاقـة مباشـرة مـع الثقافـة الإسـلامية واللغـة العربيـة، ونتـج عـن ذلـك الاحتـكاك رد فعـل

(١) د. الجرح: التأريخ للعربية، ص ١٠١.

(٢) مـن هـذه الكتـب كتـاب د. محمـود فهـمي حجـازي: العربيـة عـبر القـرون، وكتـاب د. فالـح شـبيب العجـمي: أبعـاد العربيـة. طبعـة الريـاض ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، وفيـه محاولـة لتقسـيم مراحـل العربيـة واسـتفادة مـن جهـد المستشـرقين. وهنـاك كتـاب د. عبـد الصبـور شـاهين: عربيـة القـرآن. طبعـة مكتبـة الشـباب بالقاهـرة ٢٠٠٠م، وكتـاب د. كريـم زكـي حسـام الديـن: العربيـة تطـور وتاريـخ. مكتبـة النهضـة المصريـة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م وكتـاب د. حسـام البهنسـاوي: العربيـة الفصـحى ولهجاتهـا. مكتبـة الثقافـة الدينيـة ٢٠٠٤م. انظـر حـول هـذا المضمـار دراسـة د. عبـاس السوسـوة: دراسـات لسـانية بالمنهـج التاريـخي، ص٤٣-٩٩.

(٣) فِك: العربية، ص ٧٤.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

متناقض، ففي الوقت الذي نُظِر فيه إلى الإسلام باعتباره العدو الذي هدَّد أوروبا، وملك مفاتيح الأرض المقدسة، من جهة أخرى حافظ المسلمون على التراث اليوناني، في الطب والفلسفة، وكان لديهم المصدر الأساسي المتاح، وفي الوقت الذي حاول فيه الصليبيون انتزاع بيت المقدس من المسلمين، وحماية أوروبا من الإسلام، سافر الباحثون من كلِّ أوروبا إلى إسبانيا الإسلامية؛ لكي يدرسوا في الجامعات المشهورة مثل قرطبة وغرناطة[١].

ويشير فرستيخ إلى أنَّ دراسة اللغة العربية كانت لها وظيفتان آنذاك، إحداهما: ظهرت من خلال جهود علماء الطب، أما الوظيفة الأخرى فظهرت على أيدي العلماء الذين عنوا بترجمة ما كانوا يعتقدون أنَّه كان رسالة دينية خاطئة مشوشة، وهو القرآن الكريم، ونتج عن ذلك أوَّل ترجمة للقرآن عام ١١٤٣م، التي أشرف عليها بطرس المبجل / الموقر، الذي توفي سنة ١١٥٧م[٢]، وظلت إسبانيا الإسلامية البوابة الأساسية للإسلام، والمكان الوحيد الذي كان الناس يستطيعون أن يتلقوا فيه التعليم اللغوي الضروري، لفهم كتاب المسلمين المقدس والتراث اليوناني، ولذلك كانت إسبانيا هي مهد أوّل أدوات دراسة اللغة العربية، فقد ظهرت أوّل معاجم مزدوجة اللغة في القرن الثاني عشر[٣].

ويشير المستشرق النمساوي يوسف جيرا إلى أنَّ الحروب الصليبية كانت سببًا مباشرًا في بداية دراسة اللغة العربية في أوروبا[٤]، «شعرت أوروبا بضرورة دراسة لغات العالم الإسلامي لتلك الأسباب السياسية»[٥]، ثم كانت هناك حاجة للأوربيين إلى تعلم العربية في العصر الحديث؛ لاقتحام الشرق عسكريًا وثقافيًا[٦]. وقد كان هناك عاملان

(1) Versteegh, K. 1997A: p.10 انظر ترجمة هذا الكتاب لمحمد الشرقاوي، ص 10.
(2) Ibid., p. 2.
(3) Versteegh, K. 1997A: p. 210 والترجمة ص.
(٤) يوسف جيرا: تاريخ دراسة اللغة العربية في أوروبا، ص٥.
(٥) د. إسماعيل عمايرة: بحوث في الاستشراق واللغة، ص٣٧٩- ٣٨٠، وانظر كتاب د. أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق، ص ص٤٠-٥٣.
(٦) انظر عرضًا مفصلاً في كتاب د. عمايرة: بحوث في الاستشراق واللغة، ص ٣٨١ وما بعدها.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مهمان دفعا دراسة اللغة العربية للأمام، هما: استخدام اللغة العربية للرد على العرب، واستخدامها لغة مساعدة لدراسة عبرية التوراة. ويذكر فرستيخ إلى أنَّ اللاهوت وعلوم لغة الكتاب المقدس ظلا عاملين مهمين في دراسة العربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر[1]. وقد حدث تطور كبير في مجال الدراسات اللغوية، فيما يخص اللغات السامية عندما ظهر نموذج علم اللغة التاريخي المقارن في أوروبا، وقد أنتج هذا العصر نشاطين:

أحدهما: محاولة العلماء إعادة بناء اللغة السامية الأم على قمة الشجرة السامية.

والآخر: الاهتمام بدراسة اللغة العربية ولهجاتها، بشكل مختلف؛ فقبل القرن التاسع عشر كان معظم الباحثين اللغويين مهتمين باللغة الفصحى دون غيرها، وكانت اللهجات نماذج خاطئة من الحديث، لابدَّ لها أن تمحى، ثم تغيرت هذه النظرة، واهتم العلماء باللهجات، وظهرت مجموعة كبيرة من المشاريع العلمية، كان هدفها تسجيل أكبر عدد ممكن من اللهجات، وكانت نتيجة ذلك نشرَ الأطالس اللغوية للدول الأوروبية، ثم بعد ذلك بدأ المستشرقون بتطبيق ذلك على اللهجات العربية[2].

وقد وصل البحث الاستشراقي في مجال العربية، في القرن العشرين أعلى درجات الاهتمام، ولكي نعرف عدد الدراسات التي كتبت باللغات الأوروبية عن اللغة العربية، ننظر إلى الببليوجرافيا التي أعدها الباحث السعودي د. محمد حسن باكلا للدراسات اللغوية عن العربية. ورغم أنَّ الطبعة الثانية كانت أوائل الثمانينات من القرن العشرين، فمن المؤكد أنَّ الدراسات الأوروبية زادت كثيرًا؛ لأنَّ هذه الببليوجرافيا تعطي مؤشرًا دالًّا على سعة اهتمام الجامعات الأوروبية والأمريكية بالعربية ولهجاتها.

(1) Versteegh, K. 1997A: p. 4 – 5. 14 .والترجمة ص

(2) Versteegh, K. 1997A: p.5. 16-15 والترجمة ص

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وقـد كان هـذا الموضـوع سـببًا في أن يكتـب د. عبـد الرحيـم يـوسي بحثًـا عنوانـه «أتوجـد لسـانيات استشـراقية [1] Is There an Orientalist Linguistics ، رصـد فيـه اهتمـام الغـرب بالعربيـة منـذ الإسـباني بـدرو ألـكالا (١٥٠٥م)، حـتى عصرنا هـذا، موضحًـا اتجاهاتهـم البحثية.

ويـرمي البحـث إلى توضيـح اتجاهـات المستشـرقين في مفهومهـم للعربية الفصـحى، ثم تحليل نتـائج هـذه الفرضيـات في ضـوء مـا ذكـره العلمـاء العرب قديمًـا عن العربيـة في الجاهليـة، وصدر الإسـلام، ومـا ذكـروه عـن الواقـع اللغـوي الـذي عاشـوه، وكانـوا شـاهدين عليـه، ومسـجلين مـا فيـه مـن ظواهـر لغويـة. والعربيـة الفصـحى في الجاهليـة، الـتي نـزل بهـا القـرآن الكريـم كانـت موضع بحـث لكثيـر من الباحثـين، بعضهـم يذكـر أنَّهـا لغـة مصنوعـة، ولـم تكـن لغـة حيـة علـى ألسـن العـرب يومًـا، وبعضهـم يقـول إنَّهـا لهجـة قبيلـة قريـش، وآخـرون يقولـون إنَّهـا لهجـة قبيلـة كنـدة، وآخـرون يرونهـا لغـة للملاحـم مثلهـا مثـل لغـة هوميـروس في الأوديسـا. وهنـاك قضايـا عديـدة ذات صلـة بالفصـحى، وهـذا البحـث يحـاول أن يبـيّن الاتجاهـات الاستشـراقية فيهـا، ثـم تحليـل أهـم القضايـا في ضـوء آراء العلمـاء العـرب القـدامى.

وسـيعنى البحـث بدراسـة التصـور الاستشـراقي الـذي يـرى أن العربيـة الفصـحى هـي العربيـة القديمـة، وعـرض آراء أصحـاب هـذا التصـور، وسـيُفرد لذلـك فصـل كامـل، وهـو تصـور بـدأ منـذ فـترة طويلـة، وكان أكثرهـم توضيحًـا الألمـاني نولدكـه، ثـم جـاء بعـده الألمـاني يوهـان فِـك، ووضَّـح أكـثر، وكذلـك فيشـر، ثـم كتـب أكـثر، ووضَّـح كل مـن بـلاو وكيـس فرسـتيخ؛ لـذا عُنِينـا بهمـا؛ لأنهمـا الأكـثر تفصيـلًا، والأقـرب عهـدًا. وإذا كان بـلاو(Blau, J.) يتميـز بكونـه أكـثر اهتمامًـا بالسـاميات مـن فرسـتيخ، ولكونـه متخصصًـا في العربيـة الوسـيطة وعربيـة اليهـود والنصـارى، ولـه مقـالات مؤسسـة لمـا يسـمى في تاريـخ العربيـة بالعربيـة التأليفيـة (العربيـة المعربـة)، والعربيـة التحليليـة (العربيـة المولـدة غـير المعربـة)، وكذلـك دراسـات في الازدواجيـة العربيـة، وتاريـخ نشـأتها، فـإنَّ دراسـات فرسـتيخ في الـتراث النحـوي العـربي عديـدة، فضـلًا عـن نظريتـه في التهجـين والتوليـد في اللغـة العربيـة، وكتابـه

(1) Youssi, A. 2004: pp. 329- 372

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اللغـة العربيـة تاريخهـا ومسـتوياتها الـذي يضـم كثـيرًا مـن الـثراء العلـمي؛ بمـا يحتويـه مـن آراء ونظريـات مهمـة. ويتمـيز المستشـرقان في بحثهمـا للعربيـة بالواقعيـة، وهمـا مـن أكـثر الباحثين في هـذا المضمار بعـدًا عـن الفرضيـات المعتمـدة على الخيـال، وبحوثهما تشـهد لهما بالدقـة والموضوعيـة -إلى حـد كبـير-، وأهـم السـمات كونهما لغويـين متصلـين باللسـانيات التاريخيـة وغيرهـا، وبالدراسـات السـامية؛ ومـن ثَـمَّ ليسـا متطفلـين في البحـث في هـذا المضمـار، فهمـا يبحثـان في تاريـخ العربيـة وتنوعاتهـا، قديمًـا وحديثًـا.

ويعـدُّ تصـور بـلاو وفرسـتيخ -تقريبًـا- امتـدادًا لاتجـاه استشـراقي قديـم، بـدأ في القـرن التاسـع عشـر عنـد مستشـرقين، منهـم الفرنسـي رينـان، والألمـاني نولدكـه، ووصـل إلى قمتـه في كتـاب العربيـة للألمـاني فِـك، ثـم عنـد الألمـاني فولـف يتريـش فيشـر، وهـو اتجـاه يتسـم بقربـه مـن تصـورات العلمـاء العـرب القدمـاء، وأكـثر عمقًـا، وجـاء مـن مستشـرقين متعمقـين في اللغـة العربيـة، بـل قُـل مـن لغويـين يبحثـون في مجـال تاريـخ العربيـة، ومـن ثَـمَّ فإنهـم مختلفـون عـن غيرهـم مـن المستشـرقين الآخريـن الذيـن ليـس لهـم علاقـة بمضمـار تاريـخ العربيـة. فهـذا الاتجـاه اتجـاه لباحثـين متعمقـين في تاريـخ العربيـة، وتنوعاتهـا اللغويـة، على العكـس مـن أولئـك المستشـرقين الذيـن كتبـوا عـن العربيـة الفصـحى وليـس لهـم علاقـة بمضمـار تاريـخ العربيـة؛ ولـذا فنحـن أمـام اتجاهـات أقـرب وصـف لهـا أنهـا اتجاهـات متباينـة، اتجـاه أكـثر احترافيـة وعمقًـا، واتجـاه عكـس ذلـك؛ وسـيؤكد كلامي هـذا عـرضي للاتجاهـات كلِّهـا، وتحليلهـا في فصـول هـذا الكتـاب.

ولقـرب هـذا التصـور مـن تصـور العلمـاء العـرب القدمـاء، قارنـت بينـه وبـين آراء القدمـاء في العربيـة الفصـحى، إضافـة إلى أني عرضـت في فصـل مسـتقل الاتجـاه التشـكيكي، وأثـره في تنـاول العربيـة، وكانـت الغايـة مـن ذلـك عـرض الآراء كلهـا، المتفقـة والمخالفـة؛ بغيـة الوصـول إلى معرفـة أعمـق بهـذه الآراء، وبأصحابهـا، والسـياقات العلميـة الـتي قيلـت فيهـا.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ولهذا سوف يقوم البحث على التبويب الآتي:

تمهيد: العربية الفصحى؛ المفهوم والمصطلح.

الفصل الأوَّل: مقاربات المستشرقين للعربية الفصحى: نظرة عامة.

الفصل الثاني: تصورات المستشرقين: جوشوا بلاو وكيس فرستيخ للعربية الفصحى.

الفصل الثالث: تحليل ومقارنة لتصورات المستشرقين.

الفصل الرابع: النظريات التشكيكية وأثرها في تناول العربية الفصحى.

الفصل الخامس: تحليلات المستشرقين في ضوء التصورات التراثية.

تمهيد

العربية الفصحى: المفهوم والمصطلح

قسَّم العلماء اللغات السامية في القرن التاسع عشر الميلادي إلى مجموعتين: إحداهما: السامية الجنوبية، وتضم (العربية الشمالية، والعربية الجنوبية، والأثيوبية)، والأخرى: السامية الشمالية، وتضم (البابلية، الأشورية، والآرامية، والكنعانية)[1].

وكان (König) (مستشرق ألماني عالم بالساميات) في سنة ١٨٨١ قد قسمها إلى: سامية جنوبية (العربية، والأثيوبية)، ووسطى (الكنعانية)، وشمالية (الآرامية)، وشرقية (البابلية، الأشورية)[2]. ثم جاء بروكلمان (م Brockelmmann, E.1868- 1956)، (مستشرق ألماني كبير، غزير الإنتاج)، فقسمها إلى: شرقية، وغربية، وقسّم الغربية إلى قسمين: جنوبية، وشمالية، وجعل العربية ضمن المجموعة الجنوبية[3]. ونجد نولدكه (N0ldeke, Th.، 1836- 1930)، (مستشرق ألماني كبير، أستاذ الساميات والتاريخ الإسلامي، صاحب كتاب: تاريخ القرآن)، يجعل العربية مع السبئية والحبشية مجموعة مستقلة في مقابل اللغات السامية الشمالية[4]. أما موسكاتي (Moscati, S.)، (مستشرق إيطالي، له العديد من الأعمال)، وآخرون، فيجعلون العربية من السامية الجنوبية الغربية مع الأثيوبية والعربية الجنوبية، ويعدون هذه المجموعة مجموعتين:

(1) Voigt, R. 1987: p.1.

(2) Ibid., p.1.

(3) Ibid., p.2.

(٤) نولدكه: اللغات السامية، ص ٢٩.

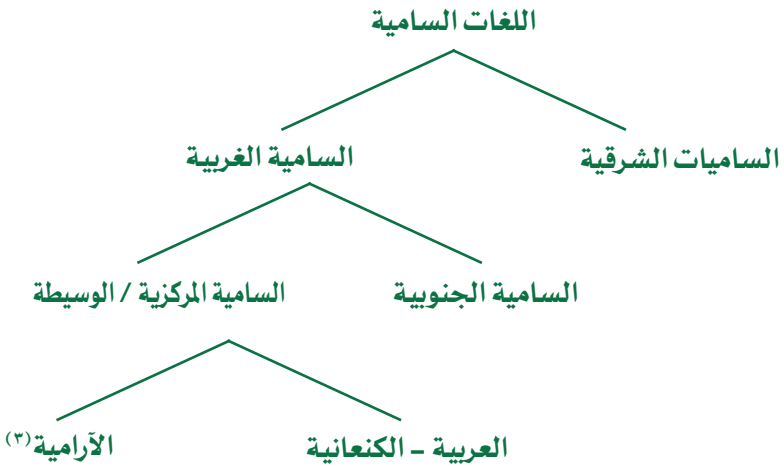
هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

١. الشمالية: وتضم العربية الشمالية.

٢. الجنوبية: وتضم العربية الجنوبية والأثيوبية[١].

ويرى عالم الساميات الألماني كارل هيكر أنَّ اللغات السامية تتوزع على ثلاث مجموعات: [١] السامية الشرقية، وتوصف أحيانًا بالسامية الشمالية، و[٢] السامية الشمالية الغربية في المحيط الشامي الفلسطيني، و[٣] السامية الجنوبية الغربية، غير أنَّه يرى أنَّ كلًا من المجموعتين المذكورتين أخيرًا تختصر إلى السامية الغربية، ويرى أنَّ المجموعة السامية الجنوبية العربية تتكوَّن من الأثيوبية والعربية الجنوبية القديمة وفروعها، وكذلك العربية الشمالية بفروعها ولهجاتها القديمة والحديثة، وأيضًا اللغة العربية الفصحى الكلاسيكية [٢].

أمَّا عالم الساميات الألماني هترزون(Hetzron, R.)، فقسمها إلى:



ويتضح من هذا الشكل أنَّ العربية الشمالية ضمن السامية المركزية / الوسيطة مع الكنعانية، إلَّا أنَّ المستشرق الهولندي كيس فرستيخ (Versteegh, K.) يظهر له رأي مختلفي المادة المقدمة، وهو أنَّ العربية الشمالية تشبه اللغات السامية الجنوبية

(1) Moscati, S. 1969: p. 13 – 15.

(٢) كارل هيكر: العربية في إطار الساميات، ص ٢٦.

(3) Voigt, R. 1987: P.1516-.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

كالعربيـة الجنوبيـة والأثيوبيـة، وتشـبه اللغـات السـامية الشـمالية الغربيـة كالكنعانيـة والآراميـة، فضـلًا عـن أنَّهـا تحتـوي علـى أشـياء جديـدة غـير موجـودة في أيَّـة لغـة مـن اللغـات السـامية، ويـرى كذلـك صعوبـة تصنيـف العربيـة بـين السـاميات تصنيفًـا جينيًـا، والأفضـل مـن وجهـة نظـره حصـر أنفسـنا في التحليـل الوصفـي لعلاقـة العربيـة بجيرانهـا السـاميات، ويقـدم رسـمين توضيحيـين للغـات السـامية: أحدهمـا لهـتزرون الـذي نقلنـاه آنفًـا، والآخـر التقليـدي[1].

وقـد انتقـده المستشـرق الفرنـسي لارشي (Larcher, P.)، (أسـتاذ اللغـة العربيـة في الجامعـات الفرنسـية، ومترجـم المعلقـات إلى الفرنسـية)، فزعـم أنَّ فرسـتيخ أخطـأ في جعـل العربيـة الشـمالية ضمـن المجموعـة الجنوبيـة الغربيـة مـن السـاميات، مشـيرًا إلى أنَّ عالـم السـاميات هـتزرون يـرى أنَّ العربيـة الشـمالية والكنعانيـة تكوّنـان معًـا مجموعـة السـاميات المركزيـة[2]. وهنـاك تقسـيمات لفوجـت (Voigt, R). (عالـم السـاميات الألمـاني) قريبـة مـن تقسـيمات هـتزرون[3]، لكنـه يشـير إلى أنَّ تقسـيم هـتزرون مـا هـو إلاَّ تبديـل وتمـدد[4]. ويشـير عالـم السـاميات الألمـاني (Faber, E.) إلى التقسـيم القديـم، وهـو الـذي ورد عنـد نولدكـه وبروكلمـان، ثـم أشـار إلى التقسـيم الأكـبر- وهـو الأحـدث- الـذي يقسـم اللغـات السـامية إلى السـاميات الشـرقية، والسـاميات المركزيـة / الوسـيطة، والأخـيرة تنقسـم إلى وسـطى، وشـمالية غربيـة، ومنهـا العربيـة الشـمالية، والكنعانيـة، والآراميـة، والأوجريتيـة، أمَّـا السـامية الجنوبيـة، فتضـم العربيـة الجنوبيـة والأثيوبيـة[5]. ونلحـظ مـن هـذا كلِّـه أنَّ ثمَّـة

(1) Voigt, R. 1987: 1997A: p. 25.
(2) Larcher, P. 2002: p. 245.
(3) Voigt, R. 1987: p. 1516-.
(4) Ibid., p.18.

وأشـير إلى أنَّ هنـاك كثـيرًا مـن الدراسـات الاستشـراقية، ومنهـا دراسـة Dilakonoff، الـذي حـاول فيهـا -مـن المـادة اللغويـة المتوافـرة- أن يضـع تمثيـلًا للواقـع الاجتماعـي السـامي المبكـر، متوسـلًا بالمفـردات الخاصـة بالزراعـة، وأسـماء الحيوانـات، والمفـردات الخاصـة بالمـنزل، انظـرDiakonoff, ١٩٩٨, p.٢٠- ٢١٩.

(٥) انظر توضيحات أخرى في البحث الآتي: Faber, A. 1997: P. 7 – 11 .

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تطـورًا في تقسـيمات اللغـات السـامية، وأنَّ المستشـرقين قـد اختلفـوا في تعيـين مجموعـات العربيـة الشـمالية؛ لوجـود تشـابه بينهـا وبـين المجموعـة الجنوبيـة، وكذلـك الشـمالية؛ لـذا أرى أنَّ وقوعهـا في المجموعـة المركزيـة الوسـيطة أكـثر توافقًـا مـع محتواهـا، ومـع المعيـار الجغرافي الذي امتدت فيه.

العربية الفصحى

يواجـه دارسـو العربيـة إشـكاليات كثـيرة، منهـا إشـكالية المصطلحـات العلميـة، وهـي -كمـا يذكـر المستشـرق الألمـاني فرنـر ديـم Diem,W.)، عالـم السـاميات)- إشـكالية ذات جوانـب متشـعبة[1]، فهنالـك مفاهيـم لغويـة أُطلـق علـى كلٍّ منهـا أكـثر مـن مصطلـح، فهنـاك مـا يسـمى بالعربيـة القديمـة (Old Arabic)، والعربيـة الأم (Protoarabic)، والعربيـة الكلاسـيكية (Classical Arabic)، والعربيـة المشـتركة (Koine Arabic)، وعربيـة الشـعر المشـتركة (Poetic Koine Arabic)، والعربيـة الوسـيطة (Middle Arabic)، والعربيـة الجديـدة (Neoarabic)، والعربيـة النموذجيـة (Standard Arabic)، وغيرهـا مـن المصطلحـات[2] الـتي تصـف مرحلـة مـن مراحـل تاريـخ اللغـة العربيـة.

وتختلـف تلـك المصطلحـات مـن باحـث إلى آخـر، حسـب توجهـه، ورؤيتـه، واللغـة الـتي يؤلـف بهـا المستشـرق بحثـه؛ فهنـاك مصطلحـات ألمانيـة، وإنجليزيـة، وفرنسـية، ولـن أقـف طويـلًا عنـد هـذه المصطلحـات ومشـكلاتها، فلهـا موضـع آخـر- أدعـو الله عـز وجـل أن يوفقـني في بحثهـا- ولكـن أقـف هنـا عنـد مشـكلات المصطلحـات الدالـة علـى مـا نسـميه اللغـة العربيـة الفصحى.

تتعـدد المصطلحـات الدالـة علـى العربيـة الفصحى في الأبحـاث المكتوبـة باللغـة الإنجليزيـة، إذ نجـد فيهـا مصطلحـات العربيـة الفصحى (Classical Arabic)، والعربيـة الشـعرية (Poetic Arabic) والعربيـة المشـتركة (Koine Arabic) والعربيـة القديمـة (Old Arabic).

---

(1) ديم 1983 ص 25- 26.

(٢) انظـر عـددًا مـن المصطلحـات الخاصـة بتاريـخ العربيـة في بحـث أندرو فريمـان: طبيعـة اللغـة العربيـة وتطورهـا، ص٤٧٩-٤٨١.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وهـذه المصطلحـات تتعـدد لتعـدد المفاهيـم، فمصطلـح العربيـة الفصـحى Classical Arabic،أو Klassische Arabisch بالألمانيـة يرتبـط برؤيـة المستشـرق الألمـانى فولـف يتريـش فيشـر Fischer, W.)1928- 2013 م، عالـم كبـير بالعربيـة)، ومفادهـا أنَّ العربيـة تنقسـم إلى فـترة مـا قبـل الكلاسـيكية، وهـذه الفـترة – حسـب رأيـه – تضـم نصـوص الشـعر الجاهلـي، والقـرآن الكريـم، ومـادة لغويـة للقبائـل، كالأمثـال، والنـوادر، والحكايـات، وأيـام العـرب. وتبـدأ الفـترة الكلاسـيكية /الفصـحى مـن الروايـة الشـفهية للقبائـل العربية إلى تدويـن وتعلم الأدب بطريقـة التلقـين، وكانـت بدايـات ذلـك قبـل منتصـف القـرن الثامـن الميـلادي، حيـث جعلـت العربيـة لغـة للثقافـة والحضـارة في مرحلتهـا الكلاسـيكية[1]، وفي رؤيتـه أنَّ الشـرط الجوهـري لتلـك الوظيفـة العالميـة للعربيـة الكلاسـيكية هـو وجـود نمـوذج لزمتـه معايـير العـرب وغـير العـرب على حـد سـواء «وكان هـذا النمـوذج قـد شـكَّل في الوقـت نفسـه مـع نفـاذ غلبـة العربيـة لغـة للثقافـة في دولـة الخلفـاء أقـدم كتابـة نحويـة للعربيـة الكلاسـيكية، كتـاب سـيبويه (المتـوفى في الأغلـب ١٨٠هـ) إتمـام تعلـم لغـة نموذجيـة عربيـة /كلاسـيكية، ظلـت معاييرهـا في كل النقـاط الجوهريـة فيمـا بعـد دون تغـير»[2].

والفـترة الأخـيرة في تقسـيم فيشـر، هـي فـترة مـا بعـد الكلاسـيكية؛ إذ لـم تسـلم العربيـة الكلاسـيكية – علـى الرغـم مـن وجـود معايـير النظـام النحـوي الـذي جـرى تدريسـه – مـن التغيـير والتبديـل جـراء اسـتخدام لغـة الحديـث وتأثيرهـا. ويـرى فيشـر أنَّ بعـض هـذه التغـيرات إنَّمـا هـي تطـورات داخليـة مسـتقلة خاصـة باللغـة الكلاسـيكية، «وهكـذا فمـن الواضـح أنَّ قسـمًا كبـيرًا مـن الأدب العـربي في العصـور الوسـيطة لـه لغـة، تحمـل –قياسًـا علـى معايـير فـترة الكلاسـيكية في القـرن التاسـع الميـلادي– ملامـح «مـا بعـد الكلاسـيكية» بشـكل واضـح»[3].

(١) فيشر: العربية القديمة في رواية إسلامية، ص ١٠٩، ص ١١٨.
(٢) السابق، ص١١٨.
(٣) فيشر: العربية القديمة في رواية إسلامية، ص ١٢١.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

هـذا تصـور يـرى العربيـة الكلاسـيكية (الفصـحى) ضمـن رؤيـة شـاملة لتاريـخ العربيـة، أمَّـا المستشـرق بـلاو. (Blau, J)، ١٩١٩– ٢٠٢٠ م، مستشـرق غزيـر الإنتـاج في تاريـخ العربيـة والعبريـة)، فيقسـم العربيـة إلى قسـمين: أحدهمـا: عربيـة قديمـة (Arabic (Old، تميـل بصـورة متزايـدة نحـو الاتصـاف بالنمـط التأليفـي (Synthetic)، أي إنَّهـا تسـتعمل الوحـدات الصرفيـة المقيـدة أكـثر، والأخـرى: العربيـة الجديـدة/ العربيـة المولـدة (Neoarabic)، وتميـل إلى النمـط التحليلـي (Analytic)، وتعتمـد بشـكل أقـل علـى الوحـدات الصرفيـة المتصلـة؛ ولـذا اختفـت في اللهجـات العربيـة الجديـدة علامـات الإعـراب، وهـو مـا أدى إلى تغـيرات تاليـة، حيـث أصبـح ترتيـب الكلمـات داخـل الجملـة (Word Order) أكـثر ثباتًـا، بسـبب اختفـاء علامـات الإعـراب. وقـد أصبـح الفاعـل قبـل الفعـل أكـثر شـيوعًا فيهـا منـه في العربيـة النموذجية/الفصـحى (Standard Arabic)، فضـلًا عـن أنَّ هنـاك دلائـل للأخـذ بالتوجـه التحليلـي في اللهجـات العربيـة، وهـو تضـاؤل اسـتعمال المثنـى، واختفـاؤه بصـورة كليـة، خلافًـا لمـا في العربيـة النموذجية/الفصـحى[١].

نلحـظ هنـا اختلافًـا بـين مصطلحـات بـلاو ومصطلحـات فيشـر، ويرجـع ذلـك إلى تبـني كلٍّ منهمـا مفاهيـم مختلفـة عـن الآخـر، ويتبـع ذلـك اختلافهمـا في تعيـين العربيـة الفصـحى مصطلحًـا ومفهومًـا –إلى حـدّ مّـا– وإن كان الخـلاف بينهمـا أقـل مـن خـلاف أيٍّ منهمـا مـع مستشـرق مثـل زويتلـر، الـذي يطلـق علـى عربيـة الشـعر القديـم والقـرآن المصطلـح (pre– Literary)[٢]. ويتضـح الاختـلاف بـين المستشـرقين في المفاهيـم والمصطلحـات، وهـذه الأمثلـة تؤكـد مـا نزعمـه، والحـال يختلـف عنـد الـدارس العـربي، ذلـك أنَّ التأريـخ للعربيـة مجـال شـبه متـروك عندنـا، إلَّا أنَّنـا نجـد بعـض الدراسـات تضمنـت مصطلحـات متعددة تصـف الفصحى، ومنهـا مصطلـح اللغـة العربيـة المشـتركة، الـذي عنَّـون بـه د. إبراهيـم أنيـس كتابـه «مسـتقبل اللغـة العربيـة المشـتركة»[٣]، وخلـص فيـه إلى أنَّهـا اللغـة العربيـة الـتي احتفظـت بعناصـر

(1) Blau, J.1977: p. 93 والترجمة ص 187 – 188.

(2) Zwettler, M. 1978: p. 148.

(٣) طُبع هذا الكتاب في عام ١٩٥٩ – ١٩٦٠ بمعهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

قديمة من السامية الأولى أكثر مما احتفظت به شقيقاتها الساميات، كالإعراب، وجموع التكسير، وكثير من صيغ الأسماء[1]. وهذه اللغة لها صفات أوجزها في الآتي:

أنَّها ككل -لغة مشتركة- تحتل مستوى أرقى من لهجات الخطاب؛ ولذا لم يتقبلها إلَّا الخاصة من العرب.

أنَّها لم تكن ذات طابع محلي، فلا تنتمي في ظواهرها وعناصرها إلى أقوام بعينهم، أو إلى بيئة معينة.

أنَّ الإعراب في اللغة العربية المشتركة لم يكن مظهرًا من مظاهر السليقة للعرب جميعًا، بحيث ينجزها الفرد منهم غير شاعر بخصائصه، لكنَّه كان مظهر سليقة للقلة المختارة من خاصة العرب (٢٧).

نجد هنا مفهومًا متكاملًا للغة العربية المشتركة / العربية الفصحى، إذ حدد د. أنيس صفاتها، وحدد من كلِّ ذلك مفهوم العربية المشتركة، لكنّنا نجد أيضًا مصطلح «اللغة الفصحى» عند آخرين، ومنهم د. داود سلوم، حيث يرد هذا المصطلح في مواضع عدة من كتابه: «دراسة اللهجات العربية القديمة»، من ذلك قوله: «والذي لاشكَّ فيه أنَّ اللغة العربية المشتركة (وما يعرف باللغة الفصحى أو لغة القرآن) سيطرت على الجزيرة العربية»[2]، ويقول: «وسرعان ما نمت في الأمصار - بعد الفتح - لهجات محلية جديدة، وهي وليدة البيئة الجديدة، واللهجة المحتلة، واللغة الفصحى، وأصبحت مفردات مختلفة لأهل الأمصار جديدة، غير ما هو موجود في لهجتهم الأولى، أو اللغة الفصحى؛ لأنَّ اللغة الفصحى نمت بشكل واسع»[3].

(١) د. إبراهيم أنيس: محاضرات في مستقبل اللغة العربية المشتركة، ص ٦، وانظر د. تمام حسان: الأصول، ص ٧٨، وانظر د. عبد الصبور شاهين: عربية القرآن، ص ٢٥.
(٢) د. داود سلوم: دراسة اللهجات العربية القديمة، ص٩.
(٣) السابق، ص ١٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

هـذا تصـور يـكاد يكـون الغالـب في كثـير مـن الكتـب، وهـذا المصطلـح الأكـثر وجـودًا عنـد أغلـب الباحثـين، فنجـده عنـد د. محمـود حجـازي[١]، ود. رمضـان عبـد التـواب[٢]، ود. كريـم زكـي حسـام الديـن[٣]، ود. حسـام البهنسـاوي[٤]، ود. محمـد عيـد[٥]، ود. عبـد الرحمـن أيـوب[٦]. وتـرددت كذلـك مصطلحـات أخـرى دالـة عليهـا كمصطلـح العربيـة [٧]، و«لغـة القـرآن» [٨]، واللغـة الفصيحـة[٩].

وهنـاك مصطلـح «الفصـحى النموذجيـة الموحـدة»[١٠]، «والعربيـة الكلاسـيكية»[١١]. وإذا كان هنـاك اضطـراب في المصطلحـات، فهنـاك اضطـراب في المفاهيـم، فـإذا كنَّـا قـد أوردنـا مفهـوم الدكتـور أنيـس للفصـحى، الـذي مفـاده أنَّهـا العربيـة المشـتركة، نلحـظ في هـذا المفهـوم تأثـرًا بالمنهـج اللغـوي الاجتماعـي عنـد أسـتاذه فـيرث ومدرسـته، وبخاصـة في تصورهـم للغـة المشـتركة، وهنـاك التصـور القديـم القائـم علـى أنَّ اللغـة العربيـة الفصـحى هـي لغـة القـرآن والشـعر الجاهلـي، ولغـة البـدو في الجاهليـة، وصـدر الإسـلام، ولغـة الأدب؛ وهـذا شـائع عنـد أغلـب الباحثـين العـرب، إلَّا أنَّنـا نلحـظ أنَّ بعضهـم قـد تأثـر بالكتابـات الاستشـراقية، ويتضـح هـذا في تقسـيمات المراحـل الزمنيـة العربيـة، وهـذا واضـح عنـد د. العجـمي[١٢]، وفي الكتابـات الاستشـراقية المترجمـة، ومـن هـذا نخلـص إلى أنَّ هنـاك ثلاثـة اتجاهـات في مفاهيـم الفصـحى والاصطلاحـات الخاصـة بهـا، وهـي:

---

(١) د. محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، ص ٢٣٥.
(٢) د. رمضان عبد التواب: فصول في فقه اللغة، ص ٧٦.
(٣) د. كريم زكي: العربية تطور وتاريخ، ص ١١.
(٤) د. حسام البهنساوي: العربية الفصحى ولهجاتها، ص٦.
(٥) د. محمد عيد: المستوى اللغوي للفصحى واللهجات، ص٣٩.
(٦) د. أيوب: العربية ولهجاتها، ص٦٠.
(٧) د. إبراهيم السامرائي: في اللهجات العربية القديمة، ص ٥٢.
(٨) انظر عنوان كتاب د. عبد الصبور شاهين: عربية القرآن.
(٩) د. إبراهيم السامرائي: في اللهجات العربية القديمة، ص ٥٢.
(١٠) يرد هذا عند د. أحمد علم الدين الجندي: اللهجات العربية في التراث، ق١، ص ١١٦.
(١١) د. العجمي: أبعاد العربية، ص ٨٣.
(١٢) السابق نفسه.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اتجـاه يـرى الفصـحى بتصـور لغـوي اجتماعـي في نشـأتها وتطورهـا، وهـذا نجـده عنـد د. أنيـس، ويتبعـه د. تمـام حسـان[١]، ود. كريـم زكـي[٢]، ود. عبـد الصبـور شـاهين[٣]، ومـن قبلهـم عنـد الأسـتاذ أمـين الخـولي[٤].

اتجـاه تـراثي، يراهـا كمـا يراهـا القدمـاء خليطًـا مـن اللهجـات[٥]، وعربيـة القـرآن الكريـم والشـعر الجاهلـي، وعربيـة البـدو (القبائـل العربيـة المحتـج بلغتهـا).

اتجـاه متواصـل مـع البحـوث الاستشـراقية، ومتأثـر بهـا، نلاحظـه في كتابـات د. السـعيد بـدوي[٦]، ود. العجـمي، ود. رمـزي بعلبكـي، ويختلـف مـن باحـث إلى آخـر.

وإذا كنَّـا قـد رأينـا تباينًـا في المصطلحـات الخاصـة باللغـة العربيـة، فإنَّنـا رأينـا مفاهيـم متباينـة أيضًـا، حيـث توجـد في الـتراث العـربي مصطلحـات كثـيرة تخـص العربيـة، ومـن ذلـك -على سـبيل المثـال لا الحصـر- مـا نجـده عنـد سـيبويه (ت ١٨٠هـ) في كتابـه؛ إذ يقـول: «والحجازيـة هـي اللغـة الأولى القـدمى»[٧]، ويسـتعمل ابـن جـني (ت ٣٩٢ هـ) مصطلحـات «اللغـة العربيـة الفصيحـة»[٨]، ومصطلـح «العربيـة»[٩]، ونجـد عنـد ابـن خلـدون (ت ٨٠٨هـ)

(١) د. تمام حسان: الأصول، ص ٧٨.
(٢) د. كريم زكي: العربية تطور وتاريخ، ص ١٠ - ١١.
(٣) د. عبد الصبور شاهين: عربية القرآن، الفصل الثالث.
(٤) الأستاذ أمين الخولي: من هدي القرآن، مشكلات حياتنا اللغوية، ص ٤٢ -٤٦.
(٥) نجد ذلك في أبحاث د. حسام البهنساوي: العربية الفصحى ولهجاتها، ود. حسن أبو ياسين: الفصحى بين نظريتين.
(٦) د. السعيد محمد بدوي: مستويات اللغة العربية في مصر.
(٧) سيبويه: الكتاب، ج ٣ ص٢٧٨.
(٨) ابن جني: الخصائص، ج٢، ص ٢٩.
(٩) ابن جني: الخصائص، ج ١، ص ٤٨.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مصطلحـات «اللسـان المضـري»[١]. و«اللغـة المضرية»[٢]،و«لغـة مضـر الأولـين»[٣]. ويتبـيّن مـن هـذه المصطلحـات أنَّ سـيبويه يـرى الحجازيـة هـي اللغـة الأولى القـدمى، وابـن خلـدون يصـل إلى أبعـد مـن ذلـك معتـبرًا أنَّهـا لغـة مضـر، لغـة المضريـين الأوائـل، وهـذا يفسـر لنـا نظرتهـم إلى العربيـة الفصـحى علـى أنَّهـا اللغـة الأولى، وأنَّ مـا يسـمى باللحـن هـو فسـاد للغـة الفصـحى / اللسـان العـربي، ولنقـرأ مـا يقولـه ابـن خلـدون: «وهـذا هـو معـنى مـا تقولـه العامـة مـن أنَّ اللغـة للعـرب بالطبـع، أي: بالملكـة الأولى الـتي أخـذت عنهـم، ولـم يأخذوهـا عـن غيرهـم، ثـم إنَّـه لمَّـا فسـدت هـذه الملكـة لمضـر بمخالطتهـم الأعاجـم، سـبب فسـادها: أنَّ النـاشئ مـن الجيـل صـار يسـمع في العبـارة عـن المقاصـد كيفيـات أخـرى غـير الكيفيـات الـتي كانـت للعـرب، فيعـبر بهـا عـن مقصـوده لكـثرة المخالطـين للعـرب مـن غيرهـم، ويسـمع كيفيـات العـرب أيضًـا، فاختلـط عليـه الأمـر، وأخـذ مـن هـذه وهـذه، فاسـتحدث ملكـة، وكانـت ناقصـة عـن الأولى. وهـذا معـنى فسـاد اللسـان العـربي»[٤]. وفي الصفحـة نفسـها يذكـر ابـن خلـدون أن لغـة قريـش أفصـح اللغـات وأصرحهـا لبعـد قريـش عـن بـلاد العجـم.

ومـن ثـم تكـون الفصـحى اللسـان العـربي، لغـة مُضَـر، الأولى القـدمى، الفصيحـة، العربيـة، وأنَّهـا قـد فسـدت لاحتـكاك العـرب بالأعاجـم. هـذا هـو تصورهـم وتلـك هـي مصطلحاتهـم.

وبعـد أن عرضـت مفهـوم اللغـة العربيـة الفصـحى، والمصطلحـات الدالـة عليهـا عنـد العـرب قديمًـا وحديثًـا، وعنـد المستشـرقين، سـوف أقـدم اتجاهـات المستشـرقين وتصوراتهـم للعربيـة الفصـحى بصـورة عامـة، وأحـاول أن أوضـح السـياق العلـمي لـكلِّ هـذه الفرضيـات.

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ١، ص ٤٨٨- ٤٨٩.
(٢) السابق، ج١، ص ٤٨٩.
(٣) السابق، ج١، ص ٤٩٠.
(٤) السابق، ج ١، ص ٤٨٧.

الفصل الأول

مقاربات المستشرقين للعربية الفصحى

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

نظرة عامة

سـوف يظهـر في هـذا البحـث مـدى تطـوّر دراسـة العربيـة لديهـم مـن تتبـع رؤاهـم وتصوراتهـم للعربيـة الفصـحى. ونشـير إلى أنَّ تصوراتهـم قـد تعـدَّدت في الفصـحى، نشـأةً وتطـورًا. وتعـدَّد الـرؤى الاستشـراقية للعربيـة الفصـحى بشـكل واضـحٍ، يلفـت النظـر إلى أسـباب عديـدة علميـة وغـير علميـة، ويحـاول البحـث أن يجلـي ذلـك. ويمكـن أن ترصـد التصـورات في الآتي:

لهجـة قبيلـة عربيـة غـير محـددة، بعضهـم قـال قريـش، وبعضهـم قـال كنـدة، وبعـض آخـر ذكـر قبائـل أخـرى.

- مستوى أدبي.
- لغة مصنوعة.
- لغة العرب القديمة.
- اتجاه متشكك.
- ونبدأ بتفصيل هذه الآراء.

١- لهجة قبيلة عربية مختلف في تحديدها

نجـد عـددًا مـن المستشـرقين يمثّلـون هـذا الاتجـاه، وإن اختلفـوا في تحديـد القبيلـة، ومـن الذيـن يزعمـون أنَّ العربيـة الفصـحى لهجـة قريـش المستشـرق المجـري جولدزيهـر (Goldziher,I.)، ١٨٥٠– ١٩٢٠م، مستشـرق مهتـم بالـتراث الإسـلامي)، حيـث يذكـر أنَّ لهجـة قريـش لـم تحتـك باليونانيـة، إذ إنَّ هـذه القبيلـة مـن المنظـور الجغـرافي تقـع بعيـدًا عـن تأثـيرات العناصـر اللغويـة الأجنبيـة، ونُظِـر إلى لهجتهـا علـى أنَّهـا الأفصـح، تتبعهـا في هـذا

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

لهجات القبائل التي تعيش قريبة منها، ثم لهجات القبائل التي تعيش في أماكن بعيدة عن قريش[1]، ويرى أيضًا أنَّ هذه اللهجة قد اكتسبت مكانة دينية بعد نزول القرآن بها، فضلًا عن علو مكانة قريش السياسية؛ إذ أنجبت خلفاء الامبراطورية العظام، ففاقت لهجتهم اللهجات الأخرى[2].

ويرى أنَّ هناك تفسيرات خاطئة لحديث الرسول ﷺ القائل بنزول القرآن على سبعة أحرف، ويرى أنَّ تفسير أبي عبيد مفاده أنَّ اللهجات السبع كلَّها من العربية الشمالية (المضرية)[3]. ويرى كذلك أنَّ القراءات القرآنية يرجع قسم كبير منها إلى الخط العربي، يقول جولدزيهر: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعًا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط. بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة الأصلية ما يحدده إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة واختلاف دلالتها. إذًا، فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحد القالب من الحروف الصامتة، كانا هما السبب الأوَّل في نشأة حركة اختلاف القراءات، في نص لم يكن منقوطًا أصلًا، أو لم تتحرّ الدقة في نقطه أو تحريكه»[4].

(1) Goldziher, I. 1994: p.10.

(2) Ibid., p.11.

(٣) نص هذه الرؤية هو: «أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى للمشقة، ولِما كان فيهم من الحمية، ولِطلب تسهيل فهْم المراد» انظر السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٤٧.

(٤) جولدزيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٨ – ٩.

وهـذه الرؤيـة اعـترض عليهـا كثيـر مـن الباحثـين، منهـم د. عبـد الحليـم النجـار، مترجـم كتابـه: مذاهـب التفسـير الإسـلامي[1]، ومـا يهمنـا هنـا تصـور جولدزيهـر للعربيـة الفصـحى علـى أنَّهـا لهجـة قريـش؛ لذلـك يـرى تخطئـة مـن يدعـي أنَّ القواعـد النحويـة صنعهـا النحـاة مـن خيالاتهـم، ويقـرر أنَّ الإعـراب قـد لاحظـه النحويـون مـن الواقـع اللغـوي، وأنَّ اللهجـات العاميـة جـاءت كمسـتوى أخـير مـن تطـور اللغـة العربيـة الـتي سـبقت مـا يسـمى اللغـة الأدبيـة، وكطـور حي في تاريـخ اللغـة، مثـل اللغـة اللاتينيـة الـتي سـبقت اللغـات الرومانسـية، الفرنسـية، الإسـبانية، الإيطاليـة، البرتغاليـة، الرومانيـة الحديثـة... فهـذه اللغـات تحـررت مـن حالـة التصريـف الموجـودة في اللاتينيـة، وتطـورت مـن الحالـة التأليفيـة (Synthesis) إلى الحالـة التحليليـة (Analysis)[2].

ويزعـم أنَّ التطـور التاريـخي للغـات السـامية يتَّبـع طريقـة هـي الـتي أدت مـن العربيـة القديمـة إلى العربيـة الحديثـة، وكدليـل -أيضًـا في الحقيقـة- علـى أنَّ العبريـة قديمًـا أخـذت المسـتوى نفسـه مـن التطـور التاريـخي كالعاميـة العربيـة، وأنَّ الفصـحى كانـت لغـة طبيعيـة، ولـم تكـن ابتـكارًا مـن عقـول النحويـين. هـذا الدليـل هـو أنَّ هـذه اللغـة مازالـت حيـة (محكيـة) في بعـض الجـزر في العالـم العـربي، ويشـير إلى أنّ المستشـرق الفرنسـي) Vincent (أشـار في سـنة ١٨٤٥ إلى كتـاب العبـدري «الرحلـة المغربيـة» الـذي يخبرنـا فيـه أنَّـه عندمـا ذهـب إلى برقـة رآهـم يتكلمـون اللغـة الفصـحى فقـط، ولا يتكلمـون العاميـة المغربيـة، حيـث يسـتعملون الصيـغ العربيـة القديمـة في جمـع المذكـر السـالم، وغيرهـا[3].

(١) انظـر تعليقـات د. عبـد الحليـم النجـار علـى هـذا هامـش ترجمتـه لهـذا الكتـاب ص ٤، والصفحـات الـتي تليهـا، وقـد خصَّـص د. عبـد الفتـاح شـلبي صفحـات كثـيرة مـن كتابـه: رسـم المصحـف والاحتجـاج بـه في القـراءات للـرد علـى جولدزيهـر في هـذه الرؤيـة، انظـر ص ١٧ - ٤٧. وانظـر كذلـك د. عبـد الصبـور شـاهين: تاريـخ القـرآن، ص ٢٠٩ - ٢١٦، ويذكـر رأيًـا نأخـذ بـه في هـذه القضيـة، يقـول فيـه ص ٢١١: «إنَّ رسـم المصحـف كان يـؤدي في الواقـع إلى احتمـالات في القـراءة لـم تثبـت بطريـق الروايـة، وهـي ... وجـوه مكذوبـة لمـا تقـرر مـن أنَّ القـراءة سـنة متبعـة»، وانظـر بحـث د. غانـم الحمـد: رسـم المصحـف، دراسـة لغويـة تاريخيـة، وبخاصـة ص ١٢٩- ١٥٢.

(2) Goldziher, I. 1994: p. 20.

(3) Goldziher, I. 1994: p.20 – 21.

ويذكـر أنَّ العربيـة الفصـحى كان يتكلّمهـا العـرب الفصحـاء، وكذلـك غـير المعروفـين (راكـبي الجمـال)، فقـد تكلموهـا بـدون معرفـة بالقواعـد النحويـة (أي: علـى سـجيتهم)، لأنَّ أجدادهـم لـم يتحدَّثـوا بطريقـة أخـرى غـير طريقتهـم هـذه[1]، وكذلـك يـرى أنَّ جـلَّ القواعـد النحويـة أُخـذت مـن الحيـاة اللغويـة الواقعيـة، فتاريخيًـا؛ النحـو العـربي لـم يكـن إلَّا حركـة مضـادة لانتشـار اللحـن في اللغـة الـتي أفزعـت المسـلمين أثنـاء قـراءة القـرآن الكريـم[2].

ومـن المستشـرقين الذيـن رأوا هـذه الرؤيـة الفرنـسي رينـان (Rénan, A. 1823- 1892)، مهتـم باللغـات السـامية، والـتراث الإسـلامي)، فبالرغـم مـن أنَّـه يقـرّر أن لا أهميـة أدبيـة للقرشـيين قبـل الإسـلام، وأنَّ أغلـب الشـعراء المشـهورين في هـذا العصـر (الجاهلـي) أصولهـم مـن قبائـل تغلـب وذبيـان وغطفـان، والعـرب أنفسـهم ذكـروا أنَّ القرشـيين لـم يكـن بينهـم قبـل الإسـلام أي شـاعر مميز، لكنَّـه يذكـر أنَّ هنـاك ردَّ فعـل للقـرآن الـذي أثـر في ذلـك، فمـن المحتمـل أنَّ وجهـات النظـر المتصـورة سـلفًا، تقـرر أنَّ قريشًـا امتلكـت امتيـازًا في كـون الرسـول ﷺ منهـا، ومـن ثـمَّ فقـد كان هنـاك تأثـير مـن قبيلـة قريـش في صياغـة هـذه اللغـة[3].

ويقـرر رينـان -أيضًـا- أنَّ لغـة القـرآن تقـدم بدقـة لهجـة قريـش في نحـو سـنة ٦٥٠م، وتبـدو لنـا قبيلـة قريـش على أنَّهـا قـد قامـت بتوحيـد الأمـة، ورفعـت لهجتهـا (لهجـة قريـش) إلى مرتبـة اللغـة المقدسـة، إضافـة إلى أنَّ هـذه اللهجـة -بالفعـل- رسـخت نهائيًـا، لتصبـح مـع الفتـح الإسـلامي اللغـة المشـتركة للعـرب، واللغـة الدينيـة لجـزء مهـم مـن الجنـس البشـري، كمـا يقـرر أن القـرآن الكريـم يبـدو علامـة لثـورة أدبيـة، وأيضًـا لثـورة دينيـة"[4]، ويذكـر كذلـك أنَّ ردَّ فعـل القـرآن الكريـم قـد حـدد تاريـخ اللغـة العربيـة، حيـث إنَّـه مـن لحظـة نزولـه (نحـو ٦٥٠م)، لـم تكـن اللغـة العربيـة بعـد مختلفـة، فقد وجـدت في الصيغـة الأدبية والكلاسـيكية[5].

(1) Ibid., p. 21- 22.
(2) Ibid., p.22.
(3) Rénan, A.1861, p. 350.
(4) Rénan, A.1861, p. 368.
(5) Ibid., p. 399.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويشير الأستاذ رينان إلى أنَّ العامية (Vulgaire) نجدها أكثر بساطة، وأكثر تحليلية (Analytique)، وأنَّ أغلب المستشرقين نظروا إليها (العامية)، كلغة عربية واقعية (Veritable)، وأنَّ العربية الفصحى لم تكن إلَّا لغة مصنوعة (Factice) ومبتكرة من العلماء العرب، المستخدمين لها في حالات فردية[1]. ويردّ رينان على هذا الزعم، فيقّرر أنَّ الذين زعموا هذه الرؤية، نظروا إلى نظام العربية الفصحى على أنه محاولة سيئة لإخضاع اللغة العربية الفصحى للقواعد الأجنبية، وافترضوا أنَّ النحاة العرب افتتنوا بغنى اللغة اليونانية، واقترضوا القواعد التي ابتدعها نحاة اللغة اليونانية، ويرى رينان أنَّ هذه الفرضية فيها تمسك بحرفية مرفوضة. ولدحض هذه الفرضية، يذكر أنَّ أصحابها أسّسوها على علاقات مزعومة بين النحاة العرب واليونانيين، وهي علاقات غير حقيقية. وللتأكيد على أنَّ العربية الفصحى لغة تحتفظ بالإعراب كسمة أساسية فيها، يقرر الآتي:

- الإعراب ليس علامات الصوائت فحسب، فهناك علامات أخرى مختلفة في الجمع.
- الإعراب في اللغة العربية الفصحى ضروري لتوضيح العروض للشعر القديم، ولم يكن العروض معروفًا إلَّا من مدرستي البصرة والكوفة.
- الكلمات المستعملة كثيراً مثل: فو، أبي، أبو، أخي، أخو... إلخ، والإعراب المستخدم بكثرة يرمز له بحروف ثابتة، ويلاحظ في المحادثة.
- في اللغة الأثيوبية واللغة الأمهرية (وهما لغتان ساميتان كالعربية) يستخدم الإعراب نفسه باستعمالات مختلفة[2].
- نحاة العربية الأوائل أسّسوا قواعد العربية على أنَّها وصف لسلوك لغوي، ولم يكونوا باحثين قطعًا عن الغنى والمال.

(1) Ibid., p. 399.
(2) Rénan, A.1861, p. 401.

- بعـض المعلومـات الـتي ذكرهـا أبـو الفـداء والجوهـري، تبـيّن بوضـوح أنَّهـم أحيانًـا لا يجـدون الإعـراب في لغـة المحادثـة[١].
- قِـدم ظاهـرة الإعـراب، حيـث وجـد في جبـل سـيناء -في السـنوات الأخـيرة- مجموعـة مـن الخطـوط الـتي تؤكـد ذلـك، فحـالات الإعـراب الخاصـة بالاسـم، والجـر، والإضافـة، مسـجلة في هـذه الخطـوط بحـروف مخصوصـة[٢].
- ويخلـص رينـان إلى أنَّـه بالتأمـل في العلامـات النهائيـة، نجدهـا خاصيـة قديمـة في العربيـة، وأنَّهـا وصلـت متأخـرة إلى تشـريع متقـن، ودائمًـا موجـودة عنـد أغلـب القبائـل[٣]، وأنَّ اللغـة العربيـة الفصـحى لـم تكـن كمـا تصورهـا بعـض الفيلولوجيـين لغـة مصنوعـة، لكنَّهـا موجـودة كلغـة قديمـة، وغنيـة، وأكـثر تأليفيـة (Synthetique)[٤].

ويسـير المستشـرق (Chejne, A.) في الاتجـاه نفسـه، فيزعـم أنَّ العربيـة الشـمالية تبـدو في الثموديـة واللحيانيـة، وربَّمـا تكـون النقـوش الصفويـة متعلقـة بالعربيـة الشـمالية المبكـرة[٥]، ولـم تكـن قبـل القـرن السـادس الميـلادي، ولدينـا بيّنـة، وهـي أنَّ العربيـة الشـعرية بـدت متطـوّرة في لغـة القـرآن في القـرن الآتي[٦]. ومـن القـرن الثـاني بعـد الميـلاد توجـد اللحيانيـة، والثموديـة، والصفويـة الـتي تعـدُّ أصـل العربيـة[٧]، وتمتـد مـن نجـد إلى الحجـاز، وأكـثر تحديـدًا مـن مكـة ومـا حولهـا[٨].

---

(1) Ibid., p. 402.

(2) Rénan, A.1861, p. 402.

(3) Ibid., p. 403.

(4) Ibid., p.405.

(٥) للمزيـد حـول لغـات مـا قبـل الإسـلام في شـبه الجزيـرة العربيـة، انظـر كتـاب د. خليـل نـامي: العـرب قبـل الإسـلام. وانظـر بحـث بيسـتون الآتي: Beeston, A, F. 1981: pp. 178 – 186

(6) Chejne, A.1969: p. 25

(7) Ibid.,p. 36

(8) Ibid.,p. 36

ويؤيد ذلك مجموعة دلائل، منها: أنَّ القرآن ذكر وجود يهود ونصارى وغيرهم من قبائل كبيرة، وهذا التمركز الاجتماعي أنتج تفاعلها ثقافيًّا ولغويًّا تحت هذه الظروف، وظهرت مكة كمركز غير محلي (Cosmopolitan)، إذ شغلت مركزًا مهمًا في شؤون الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي، ولم يكن قبل ذلك، حيث كانت الكعبة الشريفة، التي تحج إليها القبائل، وكانت مكة تحت سيطرة الأرستقراطيين القرشيين، الذين يملكون الثروة والقوة، وكان ذلك محسوسًا داخل مكة وخارجها. فالمكانة كانت لقريش، بكونها مركزًا، ومن هنا كان طبيعيًا – من وجهة نظره – أن تكون مؤثرة عن طريق لهجتها، وتأثيرها على اللهجات العربية الأخرى[1]. ويرى (Chejne) أنَّ مركز وقوة قريش جعلا لهجتها منتفعة من كلِّ الاحتكاكات، فظهرت على أنَّها لهجة مخصبة، وكانت المشتركة (Koine) في معظم شمال غرب شبه الجزيرة العربية، وهذه حقيقة، فهي محتوية على قيم مشتركة، كما أنَّ هذا مؤكد من القبائل العربية المختلفة[2].

ويرى (Chejne) أيضًا أنَّ هذا الانصهار للقبائل واللهجات دليل من المادة الأدبية لهذه المرحلة، وبخاصة الشعر الذي يوجد فيه عدد كبير من الإشارات إلى أعمال كانت تدور حول مكة، وبخاصة سوق عكاظ، الذي يجتمع فيه شعراء العرب، مثل اجتماعهم في الأسواق التجارية، إضافة إلى تأديتهم شعائرهم الدينية حول الحجر الأسود في الكعبة، وكان يعلق شعر الشعراء الكبار في الكعبة (المعلقات). ولو أنَّ هذا كان مقامًا محليًا، فإنَّه يبدو أنَّ اللغة الشعرية استعملت في مكة وما حولها، وكانت واسعة الانتشار ومفهومة، وصقلت بالقرب من زمن النبي ﷺ[3].

ويشير كذلك إلى وجود إجماع على أن النبي ﷺ لم يواجه أي صعوبة في التواصل مع مستمعيه، وأنه هاجر في سنة ٦٢٢م من مكة إلى المدينة، ولم يجد أيَّة مشكلة في تكيفه في

(1) Chejne, A.1969: p. 54.
(2) Ibid.,p. 54 – 50 .
(3) Ibid.,p. 55.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

هـذه المدينـة، إضافـة إلى أنَّـه ذهـب ليصبـح واعظًـا ورجـل دولـة في منطقـة متعـددة القبائـل؛ لأنَّ المدينـة كانـت تضـم مجموعـات متباينـة مـن اليهـود والعـرب. مـن كلِّ ذلـك، يشـير إلى أنَّ شـبه الجزيـرة العربيـة كانـت موحـدة في اللغـة بدرجـة مـا، مـن اليمـن في الجنـوب إلى حـدود سـوريا في الشـمال[1]. ويظهـر مـن هـذا أنَّ (Chejne) يتفـق مـع جولدزيهـر في أنَّ لهجـة مكـة كان لهـا تأثيـر قـوي في بنـاء العربيـة الفصحى، إن لـم تكـن هـي هـي.

ويـرى عـدد مـن المستشـرقين أنَّ العربيـة الفصحى هـي لهجـة قبيلـة كنـدة العربيـة، الـتي أخرجـت الشـاعر العـربي الجاهلـي امـرأ القيـس، ومـن هـؤلاء المستشـرقين نللينـو، ورابـين، وبيناشـييتي.

ويقـرر المسشـترق الإيطـالي نللينـو (م 1872 - 1938) Nallino, C. ، أسـتاذ الأدب العـربي في الجامعـات الإيطاليـة)، أنَّ الـرأي القائـل إنَّ لهجـة قريـش هـي العربيـة الفصحى رأي خاطـئ؛ ذلـك لمـا هـو مشـهور ومجمـع عليـه، وهـو أنَّ عكاظًـا إنَّمـا اتخـذت سـوقًا في عهـد قريـب مـن الإسـلام، وكان امـرؤ القيـس قـد ظفـر مـن مـدة بقصـب السـبق في ميـدان الشـعر بالعربيـة الفصحى[2]. ويـرى -أيضًـا- أنَّهـم اسـتدلوا بانتقـاء قريـش مـا حـلا في الـذوق وخـفَّ علـى السـمع مـن لغـات العـرب الوافديـن إلى مكـة أو عـكاظ، ويـرى أنَّ هـؤلاء قـد «فاتهـم أنَّ مثـل هـذا التهذيـب الصناعـي مـن طـرف قـوم -ولاسـيما مـن قـوم قلَّـت الآداب فيهـم- هـو مـن الأمـور المخالفـة لنواميـس تكـوّن اللغـات ونموهـا. واسـتدلوا بـأن قريشًـا كانـت أفصـح العـرب ... إنَّـه قـول ليـس لـه أصـل تاريـخي، وتناقضـه روايـات متعـددة، تناقلتهـا كتـب اللغـة والحديـث»[3]، وحـول فصاحـة قريـش يثـير نللينـو الشـكوك، ومنهـا قولـه: «فـإنَّ كانـت قريـش أفصـح العـرب، فلمـاذا انتقلـت اللغـة عـن غيرهـا، فبـدل أن يستشـهد النحـاة واللغويـون بقريـش اقتبسـوا العلـم مـن أشـعار الجاهليـة أو عربـان الباديـة؟ لمـاذا لـم يسـأل المفسـرون أهـل مكـة عـن تفسـير غريـب القـرآن لـو كان التنزيـل بلغـة قريـش؟ وإنَّمـا اسـتفادوا

(1) Chejne, A.1969: p. 57.

(٢) نللينو: كيف نشأت اللغة العربية: ص٤٤.

(٣) نللينو: كيف نشأت اللغة العربية، ص ٤٤.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مـن قديـم الشـعر غـير القـرشي، كمـا يتضـح مـن كتـب اللغـة، وتفسـير الطـبري، وممَّـا جـاء معـزوًّا إلى ابـن عبـاس بالتفصيـل في النـوع السـادس والثلاثـين مـن كتـاب الإتقـان في علـوم القـرآن للسـيوطي»[1].

ويضيـف سـببًا آخـر بقولـه: «ثـم أليـس مـن المسـتبعد، بـل مـن المحـال، ارتقـاء العربيـة إلى أوج كمالهـا في قبيلـة كاد لا ينبـغ فيهـا شـاعر مشـهور ولا خطيـب مذكـور، دون القبائـل المتفـق علـى فوزهـا بالقـدح المعلـى مـن البلاغـة والشـعر»[2]. ويخلـص إلى القـول: «فـلا شـكّ للمـتروي في هـذه المسـألة ترويًـا منصفًـا خاليًـا مـن الأغـراض أنَّ النـاس مـا ذهبـوا إلى القـول بفضـل لغـة قريـش علـى غيرهـا مـن لغـات العـرب إلا حبًـا وإكرامًـا لقبيلـة النـبي، وأنَّهـم أنفسـهم لـم يعملـوا بـه في مباحثهـم اللغويـة»[3].

وبعـد أن أكَّـد بالأدلـة الـتي سـاقها علـى أنَّ الـرأي القائـل إنَّ لهجـة قريـش هـي الفصـحى غـير صحيـح، بـدأ بعـرض رأيـه في أصـل العربيـة الفصـحى، علـى النحـو الآتي:

إذا كـثرت أمّـة واتسـعت مسـاكنها اتسـاعًا قبـل رقي المدنيـة وانتشـار الآداب فيهـا، تفرّعـت لغتهـا الأصليـة لهجـات، تـكاد تصـير كل منهـا لغـة خاصـة بمـرور الزمـن.

إذا كانـت الأمـة الكبـيرة مختلفـة اللهجـات، ونبـغ فيهـا شـاعر أو كاتـب غايـة في البلاغـة والصناعـة، كـثر المقلـدون لـه المتشـبهون بـه، لهجـة، وأسـلوبًا، وموضوعًـا، فيمـا ينشـؤون مـن النظـم أو النـثر، فيصـوغ أبنـاء لهجـة شـعرهم أو إنشـادهم في غـير لهجتهـم؛ أعـني في لهجـة السـابقين لهـم في تعاطـي ذلـك النـوع مـن الآداب وإتقانـه[4].

(١) السابق، الصفحة نفسها.
(٢) السابق، ص ٤٥.
(٣) السابق، الصفحة نفسها.
(٤) نللينو: كيف نشأت اللغة العربية، ص ٤٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

إذا كان لفرقـة مـن الأمّـة فضـل علـى غيرهـا في الآداب عمومًـا، فقـد غلبـت لهجـة تلـك الفرقـة علـى أخواتهـا في أنـواع التأليـف، وأصبحـت هـي اللغـة الأدبيـة الوحيـدة لجميـع الأمّـة، فاللهجـات الأخـرى إمَّـا أن تنـدثـر بعـد ذلـك -كمـا اتفـق مثـلًا في إنجلـترا وبعـض أقاليم فرنسـا- وإمَّـا أن تبقـى محصـورة في منطـوق العـوام -كمـا هـو الواقـع في الغالـب-[1].

وبعـد هـذه المقدمـات، بـدأ بعـرض فرضيتـه، ليزعـم أنَّ العربيـة الفصـحى: «لا شـكَّ أنَّهـا لغـة الشـعر الجاهلـي المنقـول في كتـب السـلف، ولاشـكَّ أيضًـا أنَّ مـا ورد في هـذا الشـعر مـن الألفـاظ والأوصـاف والتشـابيه والمعـاني والأفـكار يعـدُّ دليـلًا سـاطعًا علـى أنَّ صناعـة القصائـد اخترعهـا وأتقنهـا الأعـراب أهـل الوبـر، وأنَّ الحضريـين إنَّمـا اتخذوهـا منهـم مقلديـن لهـم متمثلـين بهـم في لغتهـا وأسـاليبها ومواضيعهـا. فتوافـق نتيجتهـا هـذه مـا أجمـع عليـه قدمـاء الإخباريـين مـن كسـاد سـوق الشـعر، وقلـة النابغـين فيـه عنـد أهـل الحضـر وسـكان مـدن الحجـاز»[2].

ويصـل مـن ذلـك إلى أنَّ أصـل العربيـة الفصـحى «لهجـة مـن لهجـات القبائـل البارعـة في نظـم القصيـد، الـتي كَـثُرتـردد النحـاة إليهـا في أيـام الإسـلام؛ ليسـتفيدوا مـن أهلهـا صحـة نطـق الحـروف، أو معـنى الغريـب، أو الشـواهد علـى قواعـد النحـو، أو حـل غـيرذلـك مـن المشـكلات اللغويـة»[3]. أمَّـا عـن مـكان هـذه اللهجـة، فيقـول: «وإذا أردنـا تعيـين موطـن اتحـاد اللغـة الأدبيـة، وتهذبهـا، فلنـا أن نلفـت أنظارنـا إلى أصحـاب النصيـب الأوفـر في الشـعر قبـل الإسـلام، فنجـد أوطانهـم كلَّهـا أو جلَّهـا في القبائـل المعديـة، الـتي كان ملـوك كنـدة قـد جمعـوا كلمتهـا قبـل منتصـف القـرن الخامـس الميـلادي»[4]، ليخلـص إلى اسـتنتاجه القائـل: «إنَّ العربيـة الفصـحى تولـدت مـن إحـدى اللهجـات النجديـة، وتهذبـت في مملكـة كنـدة وعصرهـا،

(١) السابق، ص ٤٦.
(٢) السابق، ص ٤٧.
(٣) نللينو: كيف نشأت اللغة العربية، ص ٤٧.
(٤) السابق، الصفحة نفسها.

وأصبحت اللغة الأدبية السائدة»[١]. وسبب ذلك من وجهة نظر نللينو، هو ما عبر عنه بقوله: «إذا تذكرنا ما سبق الإيماء إليه من عظيم ما تفعل مملكة أكبر وأقوى من سائر ممالك الأمة في غلبة لهجتها على أخواتها، وصيرورتها اللغة الأدبية لجميع الأمة، وإذا تأملنا ما لجود الملوك والأمراء والأغنياء على أهل الأدب والشعر من حسن التأثير، وقوة العمل في نشأة الآداب ورواجها، اعتبرنا أنَّ كلَّ لغة إنما تتهذب وتكمل بارتقاء الآداب»[٢].

ويذكر أنَّ هذه اللهجة عند تحولها التدريجي إلى لغة أدبية عامة، أخذت من أخواتها ألفاظًا كثيرة، وعبارات وتراكيب لغوية شتى[٣]، وأنَّ «اللغة الأدبية المتولدة في أودية نجد المنتشرة في أندية الحجاز، نزل بها القرآن مع ورود بعض الشواذ اللغوية فيه، التي ربما كانت من خصائص لهجة الحضر الحجازيين. فنالت بذلك تمام سيادتها في جزيرة العرب بأسرها، ثم خروجها من أوطانها العربية، وسرعة شيوعها العجيب إلى أقاصي الغرب والشرق»[٤].

ومن الذين يرون أن العربية قد قامت على واحدة من لهجات نجد المستشرق اليهودي رابين (Rabin, Ch.) ١٩١٥- ١٩٩٦ م، صاحب كتاب اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية)، حيث يقول: «إنَّه بإمكاني -على أيّة حال- اقتراح فرضية عملية، جعلتني أقف على أرض صلبة طوال هذا البحث. هذه الفرضية هي أنَّ اللغة العربية الفصحى قد قامت على واحدة من اللهجات النجدية، أو على عدة لهجات منها، ولربَّما كان ذلك على أحد أشكالها القديمة. فنجد كانت منطقة يلتقي عليها عرب شرق الجزيرة وغربها، ويختلطون، وفي الشرق من هذا الإقليم كانت لهجات غطفان وهوازن عربية غربية الطابع بصورة قوية، بينما كانت لهجات غني وعُقَيل إلى الشرق من ذلك شرقية الطابع بصورة جلية. وما بينهما كانت هناك لهجات ربَّما كانت مختلطة حقيقية»[٥].

(١) السابق، الصفحة نفسها.
(٢) السابق، الصفحة نفسها.
(٣) السابق، ص٤٨.
(٤) نللينو: كيف نشأت اللغة العربية، ص ٤٨.
(٥) رابين: اللهجات العربية في غرب الجزيرة العربية، ص ٣٨.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

فمنطقة نجد لم تكن تتكلم -حسب زعمه- العربية الشرقية الخالصة، ولا اللغة العربية الغربية الخالصة، بل كانت مسرحًا لمختلف المحاولات الرامية إلى التسامي على التنظيم القبلي: إمبراطورية اتحاد كندة مع قيس، ويرى أنَّ الشعر العربي قد ظهر في هذه المنطقة، وأنَّه في ضوء الطبيعة المختلطة لهذه المنطقة، فمن المحتمل أنَّ اللغة فيها كانت مزيجًا من اللغة العربية الشرقية، واللغة العربية الغربية من البداية[١].

ويذكر أيضًا أنَّ هذه اللغة كانت قبل ظهور الإسلام «تستخدم على نطاق واسع من قبل شعراء كانت لغتهم المحكية تختلف اختلافًا كبيرًا عن لغة نجد. ومن خلال ذلك جرى تطوير بعض اللهجات المحلية، مما سمح -بدرجة محدودة- بإدخال ملامح لغوية، وبخاصة مفردات من غير اللهجات النجدية»[٢]. وفي تصور رابين أنَّ هذا النمط المحلي من العربية الفصحى استخدم في الحجاز لأغراض الشعر، «ولربَّما لأغراض الكتابة العامة، وهذه هي اللغة التي تحدث بها القرآن ووُثِّق بها. وكان نطق اللغة الأدبية الذي استخدمه الحجازيون متأثرًا إلى حد كبير -بطبيعة الحال- بلهجتهم الأصلية التي تعتبر الرسم القرآني للكلمات دليلًا صادقًا عليها إلى حد كبير»[٣].

ويقرر رابين في بحث تحت عنوان: بدايات اللغة العربية الفصحى The Beginnings of Classical Arabic، أنَّه لم يحدث أي تقدم في السنوات الحالية في حل مشكلة مكان أو موطن أصل اللغة العربية الشعرية (Poetic Koine)، وليس لدينا أيَّة مادة علمية تجعلنا نضعها في أي مكان غير المنطقة العامة لنجد واليمامة ومنطقة الفرات، فمركز الحيرة كمركز مبكر للشعر، باعتبار أنَّ المجموعة الأولى أو المبكرة من القصائد ارتبطت بحرب البسوس، التي دارت في منطقة الفرات، يعطي هذا أفضلية لهذا الجزء من المنطقة. ومقابل هذا، فإنَّ امرأ القيس، وهو واحد من الشعراء العظماء الأوائل، كان من كندة، وكما يبدو؛ فإنّ مملكة كندة كانت المنطلق الطبيعي لظهور فن عربي قومي[٤].

---

(١) السابق، ص ٤٨.

(٢) رابين: اللهجات العربية في غرب الجزيرة العربية، ص ٣٨ - ٣٩.

(٣) السابق، ص ٣٩.

(4) Rabin, Ch.1955: p. 31.

واستنادًا إلى حجج أخرى يزعم المستشرق بيناشييتى الزعم نفسه الذي زعمه نللينو، ورابين يوافق بيناشييتي على أنَّه يجب الاعتراف بأنَّ اللغة العربية هي لغة سامية، نمت في منطقة قريبة من حدود فلسطين وجنوبي سوريا، ممَّا جعلها تشاطر -إلى درجة معينة- الابتكارات اللغوية التي حصلت في تلك المنطقة، وأنَّ تطور ابتكاراتها الخاصة جرى بطريقة ذاتية، (مثل: نظام حروف الجر، واختفاء صيغة المصادر، وإدخال أداتي الوصل أنْ وأنَّ)[1]. ويزعم كذلك أنَّ «اللغة العربية قد تكوّنت في وقت موافق لتكوّن اللغتين العبرية والفينيقية، وفي الزمن الذي كانت فيه اللغة الآرامية قد ترسَّخت بقوة تمكنها من الصمود بوجه الابتكارات اللغوية القادمة من الغرب؛ لذلك يمكننا الافتراض أنَّ اللغة العربية بدأت تتكوّن في القرون الأخيرة من عصر الألف الثاني قبل الميلاد، وهي القرون التي أصبحت فيها اللغة الآرامية أو اللغة القريبة منها، هي السائدة بين الشعوب السامية التي عاشت تحت السيطرة الأوربية في جنوبي بلاد ما بين النهرين»[2].

ويذكر أيضًا أنَّ الشائع هو أنَّ اللغات المشتركة تتكوَّن نتيجة للبروز الثقافي والسياسي لإحدى المراكز الثقافية المهمة، وقد حدث ذلك ثلاث مرات فقط في جنوبي بلاد ما بين النهرين وسوريا، «وكانت تلك القوى السياسية المهمة هي: المملكة الإيلية، والمملكة المارية، والمملكة اليتمانية»[3]. ويذكر أنَّه مع وجود اللهجات اليتمانية، والديدانية، واللحيانية، والثمودية، والصفوية، متمثلة في نقوش كتابية، نجد أنفسنا أمام أوَّل وثائق تاريخية للغة التي نسميها اللغة العربية ما قبل الكلاسيكية، أو اللغة العربية القديمة التي كانت الأساس للغة التي أنزل بواسطتها القرآن. ويذكر أنَّ هذه النصوص هي في الحقيقة عربية، ليس من الناحية المعجمية واللفظية فقط، بل هناك مميزات صرفية وتركيبية تؤكد عربيتها دون لبس، وبشكل يميزها عن اللهجات السامية الغربية الأخرى[4].

(١) بيناشيبيتي: العرب والآراميون قبل الإسلام وبداية تكوين اللغة العربية، ص ٢١٢ - ٢١٣.
(٢) السابق، ص ٢١٣.
(٣) السابق، ص ٢١٣.
(٤) بيناشيبيتي: العرب والآراميون قبل الإسلام وبداية تكوين اللغة العربية، ص ٢١٧.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويرى أنَّ هناك تحولًا حدث بواسطة العرب قبل الإسلام، حيث قاموا بكتابة لغتهم بالخط الآرامي، وبدأت تنشأ وحدة سياسية ولغوية للعرب؛ وهذه الظاهرة يبرّر وجودها بروز لغة أدبية مشتركة بين كلِّ القبائل في شبه الجزيرة العربية، وهي لغة سوف تتطور فيما بعد، استنادًا إلى قاعدة اللهجات العربية الشرقية للتنوخيين في عاصمة اللخميين، في مدينة الحيرة على نهر الفرات، لتصبح أكبر تراث ثقافي يعتزبه العرب، سواء كانوا العدنانيين أم القحطانيين. إنَّ أهمية مدينة الحيرة كمركز إشعاع ثقافي ولغوي لكلِّ العرب يتأكد بشكل غير مباشر- حسب زعمه- بواسطة الكتابات القديمة التي تصف منطقة غربي آسيا في القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد[1].

وينتهي إلى أنَّ الحيرة كانت مكانًا لإشعاع ثقافي وسياسي، ومنه برزت اللغة الأدبية المشتركة/العربية الفصحى. وهناك من يرى أنَّ أصل العربية الفصحى لهجة نجد، وهذا رأي المستشرق الفرنسي شارل بلّا (Pellat, Ch.، 1914 - 1992)، مختص بالأدب العربي، وبخاصة الجاحظ). فهو يقرر أنَّنا يمكننا أن نفترض مسبقًا أنَّ العربية الفصحى يعود أصلها إلى «واحدة من تلك اللهجات، رفعت إلى مستوى لغة أدبية إلَّا أنَّ المشكل ليس حله على هذه الغاية من البساطة، إذ إنَّ المعطيات التي لدينا متناقضة، قد شوشتها نظرية اللغويين العرب، وفعلًا؛ فإنَّه يكاد يكون يقينًا اليوم، أنَّ شعراء البادية يستعملون في نظمهم لهجة شعرية قد فرضت فرضًا على اللهجات المحلية، وأساسها على الأغلب لهجات نجد، غير أنَّ لغة القرآن توافق تمام الموافقة تلك اللهجة، ويجب التسليم بأنَّ الكتاب المقدس قد أنزل لا بلهجة مكة كما قد يتوقع البعض، إذ إنَّ الرسول مكي؛ بل باللغة التي كان الشعراء يستعملونها»[2].

ويرى -أيضًا- أنَّ اللغة العربية الكلاسيكية -التي هي حسب مفهومهم قد قعَّد قواعدها النحويون العرب- هي نتيجة إحصاء، قام به اللغويون العرب، بخاصة في القرن

(١) السابق، ص ٢١٨.
(٢) شارل بلا: تاريخ اللغة والآداب العربية، ص ٤٥.

الثامـن الميـلادي، وهـذا الإحصـاء كان اسـتنادًا إلى القـرآن الكريـم، والحديـث الشـريف، والشـعر القديـم، واللهجـات الـتي عُـدّت هـي الفصـحى، أي: لهجـات نجـد والحجـاز[1].

وإذا كنَّا قـد قدمنـا هنـا آراء تؤكـد أنَّ العربيـة الفصـحى مصدرهـا مدينـة الحيـرة، ومن قبل قدمنـا آراء بعـض مـن يؤكـدون أنَّ مصـدر العربيـة الفصـحى هـو لهجـة قريـش، وكذلـك لهجـة نجـد، فـإنَّ هنـاك رأيًـا يقـول: إنَّ مصدرهـا لهجـة عربيـة غـير محـددة، وهـذا الـرأي نجـده عنـد المستشـرق الفرنسـي بلاشـير (Blachère, R.، 1900- 1973 م)، أسـتاذ الأدب العـربي بالسـربون، ومترجـم لمعـان القـرآن الكريـم)، وهـو في عـرض رأيـه ينتقـد نظريـة العلمـاء المسـلمين في نشـوء العربيـة الفصـحى، ويقصـد مـن يـرون أنَّ لهجـة قريـش هـي أصـل العربيـة الفصـحى، وفي ذلـك يقـول: إنَّ نظريتهـم منطقيـة؛ لأنَّهـا تذهـب إلى أنَّهـم يعتمـدون علـى مبـدأ قبلـي، ليسـتخرجوا منـه النتـائج الـتي تصبـح فيمـا بعـد في حكـم العقيـدة الثابتـة، هـذا المبـدأ قُبِـل في القـرن الثامـن الميـلادي. وهـذه النظريـة - كمـا يقـول بلاشـير- قـد لاقـت قـدرًا كبـيرًا مـن اهتمـام المـؤرخ الاجتماعـي ابـن خلـدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م)، وكذلـك السـيوطي، فقـد قبلاهـا بـدون تـردد، وهـي مقبولـة -أيضًـا- في الوقـت الحاضـر في الشـرق الأوسـط[2].

وينـوّه إلى أنَّ النحـاة العـرب شـعروا بتعـارض الفصـحى واللهجـات العربيـة القديمـة، لكنهـم لـم يتوصلـوا إلى الاسـتنتاجات الـتي يجـب أن تقودهـم إليهـا المعلومـات الـتي في حوزتهـم، إضافـة إلى أنَّ مبـدأ وجـود لغـة فصـحى مضافًـا إليـه الشـعور الديـني أدّى إلى المحاكمـة القياسـية الآتيـة: «القـرآن يمثـل المعيار/المقيـاس اللغـوي الأكـثر كمـالًا للعـرب، أو القـرآن الـذي قـد أُوحي بـه إلى محمـد ﷺ سـليل قبيلـة قريـش المكيـة، فـإذًا، القـرآن نـزل بلغـة قريـش؛ ولـذا كان المعيـار اللغـوي للعـرب هـو لهجـة هـذه القبيلـة، وهـذا اسـتدلال قديـم»[3]. ويـرى بلاشـير أنَّ هـذه النظريـة تعترضهـا عقبـات، منهـا -حسـب مـا يقـرر- أنَّـه غـير معقـول أن تظـل لغـة

(١) السابق، ص ٤٧.

(2) Blachère, R.1952: p.70.

(3) Ibid., p. ?75.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مدينـة تجاريـة، ومركـز حـج سـنوي بعيـدة عـن التأثـير الخـارجي، « فلغـة القـرآن تخبرنـا عـن عـدد من الاقتراضـات اللغويـة في مجـال المفـردات، كمـا أنَّ العناصـر الـتي شـكَّلت قـوام سـكان مكـة كانـت في غايـة الاختـلاط، مـن ناحيـة، فإنَّـه لا توجـد أمثلـة على نقـاء لغـوي، ومـن ناحيـة أخـرى نقـول: أيـن براهـين المكانـة الـتي نلمسـها في جزيـرة العـرب للهجـة قريـش قبـل ظهـور القـرآن؟ كمـا أنَّ البـدو في وسـط شـبه الجزيـرة العربيـة وشـرقها لـم يكونـوا متأثريـن بهـا إذا كان هنـاك تأثـير»[1].

ثـم ينطلـق إلى فرضيتـه ليزعـم أنَّ أصـول العربيـة الفصـحى تبـدو واضحـة إذا شـاطرنا النحويـين المسـلمين القدمـاء رأيهـم القائـل إنَّ هـذه اللغـة مشـتقة مـن لغـتي الشـعر الجاهلي، ولغـة القـرآن معًـا، مـع التحفـظ على النظريـة الإسـلامية في النقطـة الأساسـية، في معرفـة أنَّ لغـة القـرآن لا تسـتند على لهجـة مكـة، بـل على الشـعر الجاهلـي[2].

ويقـرر أنَّ هـذه اللغـة الفصـحى الـتي يسـميها باللغـة المشـتركة (Koine)[3]مفهومـة في منطقـة جغرافيـة واسـعة جـدًا، تجـاوزت تقريبًـا حـدود المحيـط العـربي، وأصلهـا مـا زال مجهـولًا[4]. ثـم يشـير إلى الاحتمـالات فيقـول: «فهـل عمـد الشـعراء في القـرن السـادس الميـلادي إلى لغـة مؤلفـة ولـدت تحـت تأثـير التجـارة وباتحـاد اللهجـات؟ أم يجـب الاعتقـاد أنَّـه في عصـر مـا قبـل التاريـخ وبتأثـير ظـروف سياسـية، صـارت لهجـة قبيلـة معينـة لغـة عامـة للشـعر؟ وليـس مـن الصعـب الإجابـة على هـذه الأسـئلة»[5]. ثـم يعلـن أنَّ فرضيـة إبـداع لغـة مصطنعـة غـير مقبولـة، في حـين كـون لهجـة محليـة ترفـع إلى لغـة أدبيـة مؤيـد بوقائـع مماثلـة

(1) Ibid., p.76 85 .والترجمة ص

(2) Blachère, R.1952: p. 79. 85 والترجمة ص

(٣) د. الكيـلاني في ترجمتـه لكتـاب بلاشـير «لهجـة شـعرية»، كمـا ترجمهـا عـدد مـن الأسـاتذة العـرب «مشـتركة»، انظـر النـص الأصلـي P.٧٩، والترجمـة ص ٨٧.

(4) Blachère, R.1952: p.79.

(5) Ibid., p. 79.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

في اللغتين الفرنسية والإيطالية[1]، وهو يشير إلى هاتين اللغتين كمثالين من اللهجات المحلية، صار كلٌّ منهما لغة حضارة، كما أنَّ العربية - حسب زعمه - «المسماة بالفصحى الأدبية وُلدت -أيضًا- من لهجة لتكوّن لغة أدبية»[2]، فهذه اللغة المشتركة -كما تبدو في النصوص الشعرية- تحولت عن طريق الرواة المسلمين، في الفترة ما بين القرن الثامن إلى التاسع الميلادي، لغة وسطى، تقدم مظاهر لغة المناطق الوسيطة، ولا يوجد فيها القلقلة. هذه اللغة المشتركة تنطبق على اللهجات المحلية، بل هي امتداد لها. إنَّها على العموم موضوعة للأغراض النبيلة، وللتعبير الفني لأنواع من التفكير[3]، فوجود لهجات ولغة عليا / مستوى أعلى ليس فيه شيء مخالف للعادة - حسب زعمه-، كما أنَّ نمو لهجة شعرية ليس فيه شيء خارق[4].

وينتهي بلاشير إلى أنَّ أقرب الاحتمالات في أصل العربية الفصحى هو كونها لهجة عربية من وسط شرق الجزيرة العربية، نافيًا أنَّ يكون أصلها لهجة قريش. ومن ثمَّ نخلص إلى أنَّ أصحاب الرأي القائل إنَّ أصل الفصحى لهجة عربية غير محددة، اختلفوا في تعيين هذه اللهجة، فبعضهم قرر أنَّها لهجة قريش، وبعضهم يقرر أنَّها حول كندة والحيرة، أمَّا بلاشير فيرفض أن تكون لهجة قريش، ويزعم أنَّها لهجة عربية من لهجات وسط شرق شبه الجزيرة العربية.

٢- اللغة العربية الفصحى مستوى أدبي

يعدُّ المستشرق الألماني كارل بروكلمان من أوائل الذين زعموا أن اللغة العربية مستوى أدبي، وأكَّد أنَّ العرب قبل محمد ﷺ لم يخلدوا لغتهم إلَّا في النادر على الحجارة، فقد تطوّر لديهم الشعر المحلي، وازدهر حينذاك ازدهارًا عظيمًا، ولم يشارك في ذلك -

(1) Ibid., p. 66.
(2) Ibid., p. 66. 77 والترجمة ص.
(3) Blachère, R.1952: p. 80.
(4) Ibid., p.80.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

حسـب زعمـه - « كلُّ العـرب، بـل لـم يشـارك فيـه إلَّا عـرب وسـط الحجـاز، وكلّ نجـد ومـا حولهـا مـن البـلاد، بالإضافـة إلى جهـة الفـرات، علـى حيـن لـم يسـهم في ذلـك العـرب الذيـن كانـوا تحـت حكـم الرومـان في سـوريا إلَّا بالسـماع فحسـب، ويزعـم أيضًـا أنَّ كلَّ شـعراء هـذه البـلاد كانـوا يسـتخدمون لغـة مشـتركة، هـي لغـة الشـعر، مـع أنَّهـم ينتمـون إلى قبائـل مختلفـة »[1]. ويـرى أنَّ هـذه اللغـة المشـتركة « تمتـاز بعـدد مـن السـمات منهـا الوفـرة الهائلـة في الصيـغ، كمـا تـدل بوحـدة طريقتهـا، في تكويـن الجملـة، علـى درجـة مـن التطـور، أعلـى منهـا في اللغـات السـامية الأخـرى، كمـا أنَّ مفرداتهـا تفـوق الحصـر؛ ولأنَّهـا- مـن وجهـة نظـره- التهمـت كلَّ اللهجـات المختلفـة المحيطـة بهـا »[2].

ويزعـم كذلـك أنِّـه كان يعيـش إلى جانـب اللغـة الشـعرية في شـمالي الجزيـرة العربيـة لهجـات القبائـل كذلـك، تلـك اللهجـات الـتي لا نعـرف عنهـا إلَّا الـشيء الضئيـل عـن طريـق النحويـين المتأخريـن، غـير أنَّنـا نعـرف إحـدى هـذه اللهجـات، وهـي لهجـة مكـة عـن قـرب، فهـي الأسـاس الـذي بـني عليـه القـرآن الكريـم، ويـرى أنَّ «لغـة الشـعر القديـم هـذه لا يمكـن أن يكـون الـرواة والأدبـاء اخترعوهـا علـى أسـاس كـثرة مـن اللهجـات الدارجـة، ولكـن هـذه اللغـة لـم تكـد تكـون لغـة جاريـة في الاسـتعمال العـامي، بـل كانـت لغـة فنيـة قائمـة فـوق اللهجـات وإن غذَّتهـا جميـع اللهجـات »[3].

ويشـير إلى أنَّ هـذه اللغـة «اسـتوعبت كلَّ خصائـص الأصـل اللغـوي السـامي أكمـل اسـتيعاب، وإن لـم تحتفـظ في جميـع نواحيهـا بأقـدم الصيـغ والقوالـب، ولـم تضارعهـا لغـة مـن نسـبها السـامي في مرونتهـا ودقتهـا في التعبـير عـن العلاقـات التركيبيـة »[4]. ويخلـص إلى أنَّ فرضيـة مرجليـوث وطـه حسـين في إنـكار اسـتعمال الكتابـة في شـمالي الجزيـرة العربيـة قبـل الإسـلام كليـة، «ورتبـا علـى ذلـك مـا ذهبـا إليـه، مـن أنَّ جميـع الأشـعار المرويـة لشـعراء

(١) كارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، ص ٢٩.
(٢) السابق، الصفحة نفسها.
(٣) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، القسم الأوَّل ١-٢ ص ١٠٢.
(٤) السابق، ص ١٠٣.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الجاهلية مصنوعة عليهم، ومنحولة. يرد بروكلمان على هذه المزاعم بقوله: «إنَّ الكتابة لم تقض قضاءً كليًا على الرواية الشفوية، فقد كان لكلِّ شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راويةٌ يصحبه، يروي عنه أشعاره، وينشرها بين الناس، وربَّما احتذى آثاره الفنية من بعده، وزاد عليها من عنده. ومن هنا فقد كان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلَّا نادرًا»[1].

ومن المستشرقين الذين زعموا أنَّ الفصحى مستوى أدبي المستشرق الألماني أنطون شبيتالر(Spitaler, A). ، المولود في ١٩١٠ م، هو مستشرق كبير، وله إنتاج كبير في التراث العربي)؛ إذ يرى أنَّ العربية الفصحى هي تلك اللغة القديمة الحقيقية التي تعود إلى ما قبل التاريخ، التي ترفعت عن لهجات الخطاب منذ زمن، ورويت لنا كابرًا عن كابر في نصوص محددة تمامًا، ويقول: «وعلى هذا النحو تنزل اللهجات العربية بحسب قيمة كلٍّ منهما منزلتين مختلفتين تمامًا، وتمثلان طاقتين لغويتين مختلفتين، وتعد إحداهما بالنسبة للأخرى بمنزلة العامية ولغة الحياة العامة من الفصحى أو اللغة الأدبية على نحو ما ، ولكنَّها ليست كما يزعم جاير(Geyer) «العامية التي يتكلمها السوقة بإزاء لغة الخاصة، والطبقات الراقية والمثقفين ولغة الأدب »[2].

ويناصر رأي المستشرق بريتوريوس(praetorius) القائل إنَّها لغة فنية خالصة، وتعلو بسماتها المميزة كلّ اللهجات «غير أنَّها إذ تجري على ألسنة المتحدثين بهذه اللهجات، فإنَّها لم تخل من تأثير تلك اللهجات فيها باستمرار، ولعلَّها اختلفت من جهة إلى أخرى تبعًا لذلك، غير أنَّ الجهود المنظمة والعاملة على طرد القاعدة التي بدلها اللغويون المتأخرون، استطاعت طمس هذه الاختلافات طمسًا تامًّا»[3].

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، القسم الأوَّل، ص ١٢٣.
(٢) أنطون شبيتالر: تعليقات شبيتالر على كتاب يوهان فِك، ترجمها د. رمضان وصدر بها ترجمة كتاب فِك: العربية.
(٣) شبيتالر: تعليقات شبيتالر على كتاب يوهان فِك، ترجمها د. رمضان وصدّر بها ترجمة كتاب فِك: العربية، ص ٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أمَّـا لمـاذا ذهـب اللغويـون العـرب القدمـاء إلى البادية؟ فيجيـب شـبيتالر عـن ذلـك بقولـه: إنَّهـم يبحثـون في البادية عمـا يفتقدونـه في المـدن، وهـو «العربيـة» والمقصـود بهـا - حسـب زعمـه - لغـة الشـعر العـربي القديـم الـتي ظلـت حيـة تـروى عـن هـؤلاء البـدو أمـدًا طويـلًا، غـير أنَّ هـذا فيمـا يبـدو لا يعـني أنَّ تلـك العربيـة تسـاوي لغـة التخاطـب عنـد البـدو، فـإنَّ اللغويـين العـرب لـم يكترثـوا بهـذه اللغـة الأخـيرة؛ لأنَّهـم كانـوا يرمـون إلى غـرض آخـر مختلـف، فقـد كان الـشيء الوحيـد المسـتأثر بجهـود اللغويـين العـرب -دائمًـا- هـو العربيـة الفصـحى. وإذا حـدث هـذا فـلا عجـب أن يجـد اللغويـون الإعـراب عنـد البـدو حقًـا، ولكـن أن يسـتخلص مـن ذلـك أنَّـه لا وجـود للغـة بـلا إعـراب عنـد البـدو علـى الإطـلاق، فذلـك أمـر غـير مقبـول، وحجـة واهيـة[1]. ونجـده كذلـك يرفـض أن تكـون لغـة البـدو المشـتركة الناشـئة في أماكـن مختلفـة بسـبب اجتمـاع القبائـل والعشـائر المختلفـة في حيـاة مشـتركة ومجتمعـات مغلقـة أساسًـا، خرجـت منـه عربيـة القـرون المتأخـرة الفصـحى. ويقـرر أنَّـه لا يسـتطيع الربـط بـين لهجاتهـم ومـا وضعـه النحـاة المتأخـرون مـن قواعـد العربيـة[2].

ونفهـم مـن ذلـك أنَّـه يـرى أنَّ الفصـحى هـي اللغـة القديمـة الـتي تعـود إلى مـا قبـل التاريـخ، وترفعـت عـن لهجـات الخطـاب منـذ زمـن، وأنَّهـا لغـة فنيـة خالصـة، تعلـو بمـا لهـا مـن طبيعـة مميـزة علـى كلِّ اللهجـات.

ويذهـب المستشـرق الأسـكتلندي جـب (Gibb, H. A.)، ١٨٥٧- ١٩٠١م، مختـص بتاريـخ وأدب العـرب والفـرس والـترك) إلى قريـب مـن هـذا الـرأي؛ إذ يـرى أنَّ لهجـة قريـش ليسـت أصـل الفصـحى، وهـذه النظريـة - أي: الـتي يزعـم أصحابهـا أنَّ الفصـحى أصلهـا لهجـة قريـش - لا يمكـن أن تكـون مرضيـة. ويـرى كذلـك أنَّ بدايـة الفصـحى كانـت مـن المناقشـات اليوميـة، حيـث إنَّ الشـعراء اسـتعملوا الصيغـة الشـعرية المعياريـة المـارَّة مـن اللهجـات المتكلمـة، لكنَّهـا مميـزة عنهـا بالتحسـينات الخاصـة بالمفـردات، والتناسـق التركيـبي. ويشـير إلى أنَّ

(١) السابق، ص ٩ - ١٠.
(٢) السابق، ص ١٠.

نظريـة المسـتوى الشـعري المصنـوع يتعـذر الدفـاع عنهـا لأسـباب كثـيرة، منهـا أنَّ الشـعراء يخصبـون لغتهـم بالانهمـاك في الصيـغ اللهجيـة الـتي شـاركوا في ترسـيخ اسـتعمالاتها، ومـن هنـا ابتدعـت الثقافـة واللغـة المعياريـة الـتي سُـمِّيت بالعربيـة[1].

ويذهـب إلى هـذا أسـتاذنا المستشـرق الفرنـسي أندريـه رومـان (Roman, A.) أسـتاذ اللسـانيات العربيـة بجامعـة ليـون ٢ بفرنسـا)، حيـث يذكـر أنَّ العربيـة المشـتركة لـم تكـن أبـدًا في كلِّ الأزمـان بنسـبة كبـيرة جـدًا دائمًـا في العالـم العـربي، ولـم تكـن أكـثر مـن لغـة ثقافتهـم، واعتقادهـم أدبًـا وديـنًا، ولغتهـم الرسـمية[2]، وأنَّ العربيـة لـم تسـتقر على مـرّ العصـور دفعـة واحـدة، وإنَّمـا تطـورت مـن الكلمـات المولـدة. وحـاول في بحثـه (الوقائـع القرآنيـة والشـعرية والبروسـودية، واسـتمرارية العربيـة المشـتركة) (Köine)، أن يصـل إلى الصـورة الـتي كانـت عنـد العـرب القدمـاء، وبخاصـة عنـد الذيـن كتبـوا عـن اللحـن، كالحريـري، وابـن قتيبـة، والكسـائي، والأزهـري في معجمـه تهذيـب اللغـة، ويؤكـد بواسـطتهم أنَّ تصـور العـرب للغـة كان قائمًـا علـى أنَّهـا لا تتغـير، ولا يحـدث فيهـا تطـور عـبر الأزمـان، وأي جديـد هـو بسـبيل اللحـن، مستشـهدًا في ذلـك بعـدد مـن الأمثلـة[3]. ويخلـص إلى أنَّهـا لغـة ثقافـة ودين واللغـة الرسـمية، ويؤكّـد تطوّرهـا عـبر العصـور، وهـذا الاسـتمرار الطويـل للغـة الفصـحى / المشـتركة، ظهـرت فيـه بهـذه السـمة -كلغـة شـعرية مشـتركة (köine poétique)- الـتي لـم تكـن أبـدًا منقطعـة حقيقيـة عـن هـذه الأزمـان عـن كونهـا الفصـحى[4].

ومـن المستشـرقين الذيـن يـرون الـرأي نفسـه المستشـرق البريطـاني (Arberry, A, J.) ١٩٠٥- ١٩٦٩ م، أسـتاذ العربيـة بجامعـة لنـدن)، حيـث يـرى أنَّ الزعـم القائـل إنَّ قصائـد الشـعر الجاهلـي مكتوبـة بلغـة قريـش (زعـم مرجليـوث وطـه حسـين) خطـأ؛ لأنَّ الصـورة قبـل الإسـلام كانـت صعبـة، وهنـاك برهـان على أن عنصـرًا لغويًّـا موحـدًا كان موجـودًا، وهـو

(1) Gibb, H, A, R.1963: p.10.
(2) Roman, A.1973: p. 229.
(3) Roman, A.1973: ,p. 218 – 226.
(4) Ibid.,p. 230 .

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اللغـة المشـتركة (اللغـة الموحـدة)، وهـي مختلفـة عـن النقـوش اليمنيـة القديمـة، وهـذه اللغـة – حسـب زعـم أربـري- منتشـرة في شـبه الجزيـرة العربيـة، وربَّمـا يكـون السـبب أنَّ الملـوك اللخميـين الذيـن رعـوا كثـيرًا مـن الشـعراء القـدامى وفقًـا للروايـات العربيـة، ربَّمـا يكونـون أسّسـوا لغـة بـلاط[1].

ويزعـم أنَّ الرؤيـة الكليـة الـتي يتفـق عليهـا الباحثـون اليـوم، هـي أنَّـه كان موجـودًا قديمًـا في شـبه الجزيـرة العربيـة عـدد مـن اللهجـات المتكلمـة جنبًـا إلى جنـب، وكانـت العربيـة الأدبيـة مسـتعملة كنـوع مـن اللغـة المشـتركة، تسـتخدم في الاتصـالات بـين القبائـل، وأكـثر تبجيـلًا مـن الـكلام العـامي، وهـذه اللغـة المشـتركة كان يسـتعملها الشـعراء والنـبي ﷺ بالطريقـة نفسـها[2].

ومـن ثـمَّ، فهـذا اتجـاه استشـراقي يـرى أن اللغـة العربيـة الفصـحى مسـتوى أدبي فـوق اللهجـات العربيـة الموجـودة، قـال بـه عـدد مـن المستشـرقين، منهـم الألمـاني بروكلمـان والأسـكتلندي جـب، والفرنسـي رومـان.

٣- العربية الفصحى لغة مصطنعة

مـن أوائـل الذيـن قالـوا بهـذا الـرأي المستشـرق الألمـاني فتسشـتاين (Wetzstein, J,G). ١٨١٥- ١٩٠٥م)؛ إذ يـرى أنـه لا وجـود لأحـد يتكّلـم باللغـة العربيـة الفصـحى، وأنَّ الإعـراب في النصـوص القديمـة لا يشـير إلى نطـق العربيـة في القـرن السـابع الميـلادي، وأنَّ هـذا الإعـراب وُلـد مـن ظـروف تـرى أنَّ الإعـراب مكمـل، وبخاصـة في القافيـة، فالصوائـت يحتـاج إليهـا لإنتـاج الـوزن والإيقـاع في الشـعر القديـم، وكذلـك – حسـب زعمـه- في نصـوص القـرآن. ومـن القـرن الثـاني الهجـري -عندمـا كانـت علامـات الصوائـت مكتوبـة في النـص القـرآني- أصبـح هـذا النظـام المعيـار في الإعـراب، وأخـذ النحويـون العـرب مـن هـذا النظـام قواعدهـم اللغويـة، فالمـادة الـتي قعّدوهـا لـم تكـن مأخـوذة مـن اللغـة الحيـة[3].

(1) Arberry. A, J.1957: p. 254.
(2) Ibid., p. 240 – 241.
(3) Goldziher, I.1994: p. 19.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

واضح أنَّ فتسشتاين يرى أنَّ النحويين العرب أسّسوا نظامهم/قواعدهم على لغة ليست حية، ومن ثمَّ فإنَّ قواعد النحو العربي المؤسسة للعربية الفصحى هي قواعد مصنوعة، وينتج عن ذلك أنَّ العربية الفصحى لغة مصنوعة. وشبيه بهذا الرأي ما ذكره المستشرق النمساوي إشبرنجر (Sprenger, A.) ١٨١٣- ١٨٩٣م)، الذي يرى أنَّ الإعراب هو المميز للفصحى عن اللغة الحية، فهو غير حي / غير واقعي، فهو في رأيه مخترعات صناعية (Artificial Inventions) من النحويين العرب، كما يزعم أنَّ الإعراب كان يسقط في الكلام في العصر الكلاسيكي، وعلى حد زعمه حتى القرآن توجد فيه بعض الحالات، كانت توجد من أجل الإيقاع، ولم يكن الإعراب فحسب، فقد كانت التاء في نهاية المؤنث تقع قبل الإعراب، فهذه الظاهرة - حسب زعمه- معقدة ومرتبطة بسمات أخرى للغة العربية. فالعرب في تصوّره يستعملون كلمات طويلة (Long Words) للتعبير عن السخرية، أو الإجلال «فكلمة قنصل اليوم تسمى (قنصلوص)، فنادرًا ما نجد اتفاقًا مع الإعراب، وإعراب النصوص القرآنية يملك آلافًا من الاختلافات»[1].

(ولست أدري من أين أتي بهذا المثال)، ولإكمال وجهة نظره يزعم إشبرنجر أنَّ النحويين العرب صاغوا نظامًا معقدًا جدًا، وكلُّ شخص يرى أنَّ الإعراب صحيح ومناسب مع ذوقه؛ ولذلك اخترعوا إبداعات لم يحلم بها أحد قط، وشيدوا اللغة العربية النقية (Pure) الموجودة في عقولهم فحسب[2].

أمَّا أكثر المستشرقين توضيحًا وزعمًا لهذا الاتجاه، فهو المستشرق الأمريكي مايكل زويتلر (Zwettler, M.)، صاحب كتاب التقليد الشفهي للشعر العربي القديم: The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry، وقد خصَّص الفصل الثالث من هذا الكتاب من ص ٧٧ إلى ١٨٨ لبحث العربية الكلاسيكية وعرض فيه كثيرًا من الآراء الاستشراقية، وبسط فيه فرضيته التي سوف نطرحها في السطور التالية.

(1) Goldziher, I.1994: p. 19.
(2) Ibid., p.19.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يقـرر زويتلـر أنَّ الـرأي القائـل إنَّ العربيـة لـم تكـن لغـة يوميـة للشـعراء الذيـن كانـوا يسـتخدمونها في أشـعارهم، أي أنهـا ليسـت لغـة أو مسـتوى لغـوي مسـتخدم في المجتمـع اللغـوي الـذي ينتمي إليـه هـؤلاء الشـعراء، وكان هـذا رأيًـا قـد قَبِلـه جـلُّ الباحثـين الأوروبيـين المتأخريـن الذيـن عرضـوا هـذه المسـألة[1]. ويقـول زويتلـر: «يمكـن أن تفسـر هـذه الظاهـرة (نظـام الإعـراب) تفسـيرًا أفضـل بتطبيـق نظريـة تتوافـق توافقًـا وثيقًـا مـع الحقائـق اللغويـة والتاريخيـة والثقافيـة في الجزيـرة العربيـة، في الجاهليـة وصـدر الإسـلام، ولهـذا؛ فيمكـن النظـر الآن إلى نظـام الإعـراب كمـا يتمثَّـل في الشـعر العـربي القديـم وفي القـرآن، في ضـوء هـذه النظريـة علـى أنـه ظاهـرة ليـس لهـا قيمـة لغويـة صريحـة، وكان خصيصـة غريبـة، أو سـمة قديمـة في اللهجـات المحكيـة كلِّهـا، «ويشـمل ذلـك بعـض اللهجـات القليلـة المشـكوك في وجودهـا، الـتي ربَّمـا كانـت مـا تـزال تحافـظ علـى بعـض الـنزوع نحـو الإعـراب»[2].

وقـد بقيـت حـركات الإعـراب في الشـعر مجـرد عنصـر وظيفـي مهـم؛ للارتقـاء الشـعري الماهـر، وذلـك - حسـب زعمـه- للأسـباب الآتيـة:

هـذه العلامـات كانـت -مـن غـير شـك- سـمة وظيفيـة مهمـة، وملمحًـا أساسـيًّا (Vital) للغـة الأم (Proto-language) قديمًـا، منـذ أقـدم الفـترات التكوينية للتقليد الشـعرى الشـفهي (Oral – Poetic Tradition).

أنَّهـا كانـت ملازمـة للتقاليـد المتفـق عليهـا للعبـارات، وأنمـاط العبـارات الـتي تؤلـف وتصـوغ الشـعر، تحـت شـروط الـوزن والقافيـة للقصيـدة الشـفهية. فهـذه العلامـات كانـت جـزءًا لازمًـا للتوليـد الأسـلوبي (Generative Diction) لذلـك الشـعر[3].

وينطلـق زويتلـر في فرضيتـه مـن نظريـة بـاري، الـتي تقـرر أنَّ هنـاك فروقًـا بـين الشـاعر الشـفهي ولغتـه المحكيـة، حيـث يحافـظ فيهـا الشـاعر علـى لغـة الشـعر الشـفهي أصواتًـا

(1) Zwettler, M.1978: p.130324 والترجمة ص.
(2) Zwettler, M.1978: p.145. والترجمة ص 351
(3) Ibid., p.145. والترجمة ص 351- 352

وكلمات وتراكيب، بل يحافظ على الأنظمة كلِّها. فحسب هذه النظريات، تُرى قصائد هومر بلغة مصنوعة كانت نتاجًا لتقليد طويل للشعر الشفهي، وهو التقليد الذي انتقل من الفترات الإيجية (Achaean) إلى الفترات الأيونية (Ionic)، وهو ما نتج عنه انتقال بعض السمات الإيجية -التي حفظت بصورة خاصة في الصيغ النمطية- من جيل إلى جيل، من المغنين المحترفين، بوصفها خصائص جميلة، وعناصر تقليدية في اللغة الشعرية[1].

ويرى زويتلر صلاحية آراء باري للتطبيق على اللغة العربية قبل الأدبية (Pre-Literary) لغة الشعر والقرآن، وأنَّ أوضح خصيصة قديمة في هذه العربية هي الإعراب، ومن المؤكد أنَّه لا توجد خصيصة منسوجة بعمق في البناء العروضي للشعر العربي القديم، وتبعًا لذلك في لغته الشعرية أكثر من حركات الإعراب تلك[2]. ويصرح بزعم مفاده أنَّه لا يمكن الظن أبدًا أنَّ هذه العربية كانت تستعمل لغة نموذجية لأيّة مجموعة لغوية، سواء كانت بالشكل الذي تظهر به في الشعر القديم والقرآن، أم بالشكل الذي جمعه اللغويون والنحويون، ودوَّنوه في فترة متأخرة، وقدموه على أنَّه العربية الفصحى؛ ولهذه الأسباب يرى أنَّه لا يمكن النظر إليها على أنَّها تمثَّل طورًا من أطوار اللغة العربية بأي معنى لغوي مقبول لهذا المصطلح[3]، ويرى أنَّه لا يمكن النظر إلى العربية الفصحى على أنَّها تمثَّل الشكل اللغوي الذي يكتسبه الشعراء والرواة بصورة تلقائية، لكنَّه نتيجة لازمة لحذقهم فن صناعة الشعر العربي وروايته[4].

وفي دفاعه عن فرضيته هذه هاجم الاعتقاد الذي مفاده أنَّ الإعراب كان في أوج ازدهاره في اللهجات البدوية في حياة الرسول ﷺ والقرون الثلاثة التالية تقريبًا، ويذكر أنَّ هذه الفرضية تستند إلى روايات اللغويين العرب عن القدرات اللغوية والصحة النحوية عند معاصريهم من البدو؛ ولذا يجب أن ينظر إلى هذه الروايات بتحفظ وحذر شديدين[5].

(1) Zwettler, M.1978: p. 98. والترجمة ص 264
(2) Ibid., p.148357. والترجمة ص
(3) Ibid., P.148357. والترجمة ص
(4) Ibid., P.148. والترجمة ص357
(5) Zwettler, M.1978: p. 148 والترجمة ص 358.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويـرى زويتلـر رأيًـا غريبًـا، مفـاده أنَّ المؤمنـين مـن المسـلمين احتاجـوا إلى تدريـب لفهـم القـرآن الكريـم، يقـول: «فقـد كان اكتسـاب هـذه القـدرة اللغويـة يتطلـب حـتى مـن المؤمنـين الأوائـل المـرور بعمليـة مختلفـة اختلافًـا جذريًّـا عـن العمليـة التكوينيـة الـتي كان يكتسـب بهـا أسـاطين الكلمـة دون منـازع -أي: الشـعراء- هـذه اللغـة. وربَّمـا لا يكـون مـن المتوقـع أو المرغـوب فيـه أن يمـر المؤمـن العـادي بذلـك التدريـب الطويـل الصعـب غـير المنظـم الـذي يمـر بـه الـراوي مـن أجـل أن يكتسـب القـدرة على اسـتعمال لغـة الشـعر»[1].

ويواصـل زعمـه قائـلًا: «فقـد كانـت هـذه اللغـة (إن صـح لنـا أن نطلـق عليهـا هـذا الاسـم) عنـد الشـعراء أنفسـهم وسـامعيهم، لا تزيـد عـن كونهـا لازمـة عرضيـة لفـن الشـعر، والوسـيط المميـز للأداء الشـعري، ولا يمكـن تمييزهـا عـن القصيـدة نفسـها ولا عزلهـا عنهـا، وقـد كان القـرآن بتجديـده غـير المتحفـظ واسـتعماله البـارع لهـذا الوسـيط (Medium) [2] في الأغـراض غـير الشـعرية، ووصفـه المبـين لنفسـه بأنَّـه «قـرآن عـربي» بـ«لسـان عـربي مبـين»، هـو الـذي ربَّمـا أسـبغ الاعـتراف والأهميـة علـى اللغـة الشـعرية لأول مـرة بوصفهـا شـكلًا لغويًّـا يمكـن عزلـه عـن الشـعر وجعلـه متاحًـا لغـير الشـعراء أيضًـا»[3].

ويؤكـد هـذا الزعم مرة أخـرى بإقراره أنَّ نـزول القرآن الكريـم باللغة المُعرَبـة (Inflectional Language)، في الشـعر الشـفهي (Oral poetry)، لـه مغـزى عظيـم في التاريـخ اللغـوي والثقـافي للعـرب ومسـتعملي العربيـة؛ إذ إنَّ وجـوده يـكاد يكـون مقصـورًا علـى المشـافهة، فهـي كانـت مرتبطـة - حسـب وجهـة نظـره- بصـورة تـكاد تكـون كليـة بـالأداء الشـفهي للشـعر، وبعـض الأشـكال الأخـرى مـن الـكلام غـير المحكـي، ويزعـم أنَّ هـذا الشـكل الـذي صنعـه الشـعراء كتقليـد شـفوي للشـعر ظهـر فيمـا بعـد علـى أنَّـه شـكل مكتـوب مهـم، في صـورة كتـاب مـنزل للعـرب، مـن خـلال القـرآن الكريـم، وبعـد أن كان الشـعراء والـرواة يتمكنـون قبـل ذلـك مـن

(1) Ibid., P. 391 والترجمة ص.

(٢) هـذا المصطلـح يؤكـد تصـور زويتلـر للعربيـة الفصحى، وأنَّهـا لـم تكـن لغـة، وإنَّمـا وسـيط للأداء الشـعري الشـفوي المـوروث، صـاغ الشـعراء بـه شـعرهم.

(3) Zwettler, M.1978: p.166. والترجمة ص 391

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اكتساب المهارة في هذه اللغة التي تتصف بعلامات الإعراب غير المألوفة بشكل عام، بكونها نتيجة لازمة لاكتساب فن صياغة الشعر وتقنينه، لكن الإسلام والقرآن - حسب زعمه - غيّر ذلك كلّه، فقراءة القرآن قد أصبحت أساسية للممارسة الإسلامية الدينية، يقول: «إنَّ الأداء الدقيق لشكله اللغوي لم يعد أمرًا مرغوبًا فيه فحسب، وإنَّما كان بصورة أكثر ملاءمة فرضًا على المؤمنين جميعًا»[1].

الفصحى إذًا طريقة للصياغة الشعرية، أخذت منها علامات الإعراب أهميةً؛ لأهميتها في الإلقاء الشعري، والصياغة العروضية. ولما كانت مهمة هذه العملية الفنية التي صنعها الشعراء على مدى طويل، فقد أصبح هذا الشكل ثابتًا، ويجب على من يريد إنشاء الشعر وروايته أن يتقن تلك العملية الصياغية الشعرية. ولما كانت هذه الطريقة / الوسيلة - حسب زعم زويتلر- قد نزل بها القرآن الكريم، فمنه كانت الاستخدامات الأولى لهذه الطريقة في غير الشعر، واكتسبت منه المكانة الكبيرة التي نعرفها.

هذه هي خلاصة رأي زويتلر في اللغة العربية الفصحى، وهذه الفرضية وغيرها من الفرضيات سوف نحللها في موضعها من هذا البحث.

٤- العربية الفصحى لغة العرب القديمة

من المستشرقين الذين قالوا بهذا الرأي المستشرق الألماني نولدكه، حيث يرى أنَّ هؤلاء العرب الذين كانوا يعيشون قبل ميلاد المسيح وبعده بقليل كانوا يتكلمون لهجة تتشابه كثيرًا مع العربية الفصحى / الكلاسيكية التي جاءت فيما بعد، فهي ترمز لحالة الرفع في المسمى «الاسم المنصرف» بالضمة، ولحالة الجر بالكسرة، ولحالة النصب بالفتحة تمامًا كما في العربية، لكن بدون إضافة تنوين[2]. ويذكر نولدكه أنَّ الشعراء الطوافين والنحويين قد طمسوا كثيرًا من الفروق الدقيقة بين اللهجات، كما يزعم أنَّ

(١) انظر ترجمة المزيني لبحث زويتلر، ص ٤٠١ والأصل p.١٧٢.
(٢) نولدكه: اللغات السامية، ص ٧٣.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

روايـات مـدارس القـراءات القديمـة تبـيّن لنـا فيضًـا كبـيرًا مـن الفـروق اللهجيّـة، ويمكـن للمرء أن يظـن أنَّ لغـة الشـعر كانـت -علـى الأقـل- لمعظـم العـرب «لغـة فنيـة مصطنعـة»، و»أنَّ بعـض القبائـل اتخـذت لغـة القبائـل الأخـرى لغـة للشـعر، وأنَّ ذلـك كان يناسـب الشـعراء الرحالـة الذيـن يتكسّـبون بالفـن، مثـل: النابغـة، والأعـشى، وربَّمـا المسـيحي الشـريف العالـم «عـدي بـن زيـد العِبـادي»، القاطـن في الحـيرة (عنـد الفـرات)، الـذي كان يمكنـه أن يتكلَّـم في حياتـه العامـة بلغـة مغايـرة لشـعره، ولكـن إذا كان الرعـاة البدو-مثـلًا- في الجبـال القريبـة مـن مكـة يعالجـون منازعاتهـم الصغـيرة وخصوماتهـم الشـخصية بهـذه اللغـة الشـعرية، وإذا كان رؤسـاء تغلـب وبكـر يخاطبـون ملـك الحـيرة في أشـعارهم الـتي لاشـك في صحتهـا، والـتي يفتخـرون فيهـا، أو يطلبـون فيهـا العطـاء. وإذا كنَّـا لا نجـد في أي موضـوع مـن الشـعر الجاهلي العـربي- علـى قـدر سـعته- اختلافًـا لغويًّـا شـديدًا؛ إذا صـح كلُّ هـذا، فإنَّـه مـن النـادر أن يظـن أنَّ كلَّ هـؤلاء العـرب الذيـن هـم في معظمهـم أميـون -كمـا أنَّهـم غيـورون علـى قبائلهـم- قـد اجتهـدوا في أن يعـبّروا عـن آرائهـم وأحاسيسـهم بلغـة أجنبيـة أو مصنوعـة كليـة»[1].

ويشـير إلى أنَّ هـذه الأسـباب جعلـت اللغويـين العـرب يأخـذون لغـة الشـعر علـى أنَّهـا «اللغـة العربيـة العامـة» لبـدو الجزيـرة العربيـة، باسـتثناء الأماكـن البعيـدة منهـا؛ لاعتبارهـم أصحـاب هـذه اللغـة «العربيـة» الصافيـة، حـتى بعـد محمـد ﷺ بمائـتي عـام[2]. ويذكـر أنَّ أعلـم علمـاء النحـو العـربي يجعـل مـن أوَّل شـخص قـادم مـن البادية بجمالـه -ذلـك الشـخص الـذي لـم يتعلـم، الـذي لا يحفـظ عشـرين آيـة كاملـة مـن القـرآن، ولا يعـرف شـيئًا مـن مفاهيـم النحـو النظرية-حكمًـا فاصـلًا، فهـل يجـوز للمرء أن يقـول كـذا أو كـذا في العربيـة، وهـؤلاء العلمـاء المدققـون لا يعرفـون إلَّا اللغـة الكلاسـيكية الوحيـدة الـتي كان البـدو لا يزالـون يتكلَّمـون بهـا[3].

(١) نولدكه: اللغات السامية، ص ٧٥ - ٧٦.
(٢) السابق، ص٧٦.
(٣) السابق، ص ٧٦ - ٧٧.

ويكمل فيقول: «إنَّ القبائل التي خرج من بينها الشعراء -بخاصة في العصر القديم- نجدها على الأخص في أماكن معينة من الحجاز، وكلَّ نجد وما جاورها من البلاد، والإقليم الممتد من هناك حتى الفرات، وعلى العكس من ذلك تتخلّف أجزاء الحجاز الأخرى من هذه الناحية، كما يشير إلى أنَّ عرب الشمال الغربي الذين كانوا رعية للدولة الرومانية، لا يؤدون أي دور مطلقًا في هذا الشعر، ويرجح أنَّ هذه القبائل كانت تتكلم لهجات شديدة الانحراف عن الكلاسيكية»[1].

يُلاحظ أنَّ هذه الرؤية تتوافق مع رؤية اللغويين العرب القدماء، عندما قرروا الأخذ عن القبائل العربية البعيدة عن التأثر باللغات الأخرى، فلم يأخذوا عن القبائل العربية المتطرفة. وللدفاع عن فرضيته هذه، يذهب نولدكه إلى دحض تسمية اللغة العربية بلهجة قريش، ويراها تسمية خاطئة تمامًا، فيقول: «وتسمية اللغة العربية بالقرشية ليست إلَّا كما لو أراد المرء أن يسمّي اللغة الألمانية بلهجة «برلين»، أو «ليبزج»، أو أراد أن يسمّي اللغة الإنجليزية بلهجة «لندن» أو «إكسفورد»، وقد اعتمد على هذه التسمية التي خانها الرأي الذي تكرر القول به في العصر الحديث بأنَّ اللغة العربية الكلاسيكية هي لهجة مكة التي لم يتح لها تلك المكانة إلَّا بسبب نزول القرآن بها»[2]، معللاً ذلك بأنَّنا نعرف أنَّ طريقة نطق مدن الحجاز ليست في كلِّ المواضع متفقة مع لغة الشعر، وحتى القرآن توجد فيه بعض الاختلافات بطريقة أشد، ويرى أنَّ الروايات التي تقول إنَّ لهجة قريش هي أحسن اللهجات العربية كلّها، بعضها مخترع، وفي بعضها مجاملة للحكام الذين ينحدرون من قبيلة قريش. وأنَّ هذه الروايات تعارض - بكلِّ تأكيد- الرأي العام للعرب من قديم الزمان[3].

ويزعم أيضًا أنَّ اللغة العادية لمكة والمدينة لم تكن كلُّها قديمة كما كانت لغة الصحراء، وأنَّ مواكب الفتح قد خلطت العرب الذين يتكلمون الكلاسيكية بالقبائل

(١) نولدكه: اللغات السامية، ص ٧٧.
(٢) السابق، ص ٧٨.
(٣) السابق، ص ٧٨.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الكثيرة التي كانت تقطن الأماكن البعيدة، فضلًا عن أنَّ التعريب السريع للعناصر الأجنبية التي دخلت الإسلام كان غير مناسب لبقاء وحدة اللغة[١]. فرأي نولدكه واضح في أنَّ العربية الفصحى ليست لهجة مكة، وليست مصنوعة.

أمَّا إسرائيل ولفنسون فيرى «اللغة العربية الموجودة الآن مزيج من لهجات كثيرة مختلفة اختلط بعضها ببعض، وامتزج امتزاجًا شديدًا حتى صار لغة واحدة، بعد أن فني أصحاب اللهجات وبادوا، وهناك عوامل كثيرة أبادت هذه القبائل، وأهمها الحروب، والمهاجرة، والاختلاط الاقتصادي، والتبادل الروحاني، وامتزاج قوم في آخر»[٢].

ويذكر أنَّ «امتزاج هذه اللهجات، تداخلها بعضها في بعض، لم يتم مرة واحدة، أو في زمن واحد، بل حدث شيئًا فشيئًا، وصار ينتقل تدريجيًا، فكانت الواحدة من اللهجات تبتلع الأخرى أولًا، ثم يتكوّن من الاثنتين لهجة جديدة لم تكن موجودة من قبل، وهذه اللهجات الجديدة تمتزج بلهجة أخرى، وهكذا ظلَّ هذا التدرّج ينتقل في أزمنة طويلة أثناء الجاهلية حتى ظهر الإسلام»[٣]، ويواصل ولفنسون فيقول: «أخذت اللغة العربية البدوية، تجمع بين عناصر تلك اللهجات، التي أبادتها، حتى وجدت لغة جديدة، احتفظت بصيغتها القديمة، وقبلت بعض التغير، في المادة والاصطلاح والنطق»[٤]. كما يقول: «وتتمثّل لنا هذه اللغة واضحة في آيات القرآن، فقد كانت وفود العرب الآتية من أقاصي بلاد الحجاز ونجد، تستمع تلك الآيات وتفهمها وتتأثر بها»[٥]. ومن وجهة نظره «لغة الطبقات المفكرة لم تكن بعيدة جدًّا أو مختلفة كثيرًا عن لغة عامة أصحاب اللهجات المختلفة في شمالِ الجزيرة»[٦].

---

(١) نولدكه: اللغات السامية، ص ٧٩.
(٢) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ص ١٦٦ - ١٦٧.
(٣) السابق، ص ١٦٧.
(٤) السابق، ص ٢٠٦.
(٥) السابق، ص ٢٠٦.
(٦) السابق، الصفحة نفسها.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أمَّا رأيه في الزعم القائل إنَّ العربية الفصحى هي لهجة قريش، فيفصله قائلًا: «وما يقال من أنَّ القرآن نزل بلغة قريش، إن كان المقصود من أنَّ الرسول كان ينطق الكلمات بلهجة قريش التي هي لهجة جميع أهل مكة فصحيح، وأمَّا إن كان المراد منه أنَّ قريشًا كانت لها لغة علمية خاصة بأصحاب الخطابة، والكهانة-والشعر دون سواهم من القبائل الأخرى، فليس بصحيح؛ لأنَّه يضيق من دائرته، ويقلل عدد الذين كانوا يفهمونه من العرب، والواقع يخالف ذلك»[1]، ويشير بهذا إلى رأي نولدكه، الذي أكد فيه: «أنَّ هذه الفكرة نشأت في العصر الأموي؛ لإظهار تفوق قريش على بقية البطون العربية، في كلِّ شيء لعلاقتهم بالنبوة»[2]

ويرى «أنَّ بعض القراءات القرآنية تطابق تمامًا اللهجات التي كانت شائعة عند العرب في القرن الأوّل بعد الهجرة، فهي صيغ عربية كانت مألوفة عند العرب قبل تسرب النفوذ الأعجمي، وقبل أن يطرأ تغيير في اللغة العربية التي كانت منتشرة في شمال بلاد العرب في عصر ظهور الإسلام»[3].

وأكثر المستشرقين توسيعًا وتوضيحًا لهذا الاتجاه هو المستشرق الألماني يوهان فِك (Fuck, J.) ١٨٩٤- ١٩٧٤ م، أستاذ كبير، وله إنتاج غزير في اللغة العربية وتاريخها)، حيث يرى أنَّ العربية الفصحى احتفظت بالإعراب، وهو سمة من أقدم السمات اللغوية، التي فقدتها جميع اللغات السامية، باستثناء البابلية القديمة قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي[4]. ويرى «أنَّ أشعار عرب البادية -من قبل العهد الإسلامي ومن بعده - ترينا أنَّ علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان. كما أنَّ الحقيقة الثابتة من أنَّ النحويين واللغويين الإسلاميين كانوا - حتى القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي على الأقل - يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم، تدل على أنَّ التصرف الإعرابي كان بالغًا أشده

(١) ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ص ٢٠٧.
(٢) السابق، ص ٢٠٧.
(٣) السابق، ص ٢٠٨.
(٤) يوهان فِك: العربية، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ص ٣٤ - ٣٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

في ذلك العهد، بل لا نزال حتى اليوم، نجد في بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الإعراب»[1].

ويرى أنَّ «أقدم أثر من آثار النثر العربي -وهو القرآن- قد حافظ أيضًا على غاية التصرف الإعرابي، فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالًا للشك في إعراب كلماته، إلَّا أنَّ مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثرًا لشك فيه كذلك». ولتأكيد ذلك يأتي بأمثلة من القرآن الكريم، منها الآية ٢٨ من سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ «والآية ٣ من سورة التوبة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، والآية ١٢٤ من سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ والآية ٨ من سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2]. فالأستاذ فِك يرى أنَّ «مواقع الكلمات في هذه الآيات الكريمة (كالاستعمال اللاتيني) (matrem amat Filia الأم تحب البنت)، لا يمكن أن يكون إلَّا في لغة لا يزال الإعراب فيها حيًا صحيحًا. يضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه، مثل آية ١٠٣ من سورة النحل ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾. وصريح من هذا أنَّه لم يقم عند محمد ومعشره فرقٌ هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب، أي قبائل البدو. ولا يمنع ذلك أنَّه كانت هناك فروق بين لهجة مكة ولهجات البادية، وبين هذه الأخيرة بعضها مع بعض، فها هي ذي قواعد رسم المصحف تدل على أنَّ مكة قد تحررت من تحقيق الهمز، كما أنَّ لغة القرآن تختلف اختلافًا غير يسير عن لغة الشعراء، فهي تعرض -من حيث هي أثر لغوي- صورة فذّة لا يدانيها أثر لغوي في العربية على الإطلاق»[3].

ويذكر يوهان فِك أن التطور بدأ يسير نحو العربية المولدة، حينما نقلت العربية بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة إلى خارج حدودها عن طريق الغزوات الكبرى، ووصلت إلى مواطن لغوية أجنبية[4]. ويرى أنَّ عهد الفتوحات قد أدى إلى بث روح من القوة في صميم

(١) يوهان فِك: العربية، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ص ٣٥.
(٢) السابق، الصفحة نفسها.
(٣) يوهان فِك: العربية، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ص ٣٥.
(٤) السابق، ص ٣٧.

العربيـة، وإلى توحيـد لهجـات البدويـين أنفسـهم، وحسـب زعمـه، لـم تكـن لهجـات القبائـل البدويـة في شـبه الجزيـرة العربيـة بعيـدة الاختـلاف مـن الوجهـة اللغويـة، بحيـث لا يمكـن التفاهـم حـتى بـين القبائـل المتباعـدة بعضهـا عـن بعـض في السـكنى والجـوار، إذ إنَّ أغلـب الفـروق- فيمـا يظهـر- كانـت ترجـع إلى طبيعـة اختـلاف الأصـوات، والقوالـب والمفـردات، أو علـى الأقـل، هـذه هـي الفـروق الـتي لفتـت أنظـار النحـاة واللغويـين الإسـلاميين الذيـن نعتمـد علـى أخبارهـم وحدهـا في معارفنـا عـن اللهجـات البدويـة[1].

ويـرى أنَّ المـوالي تكـوَّن منهـم -بعـد أجيـال قليلـة- الطبقـاتُ الدنيـا والوسـطى مـن المجتمـع الإسـلامي «وامتلكـت العناصـر الطامحـة مـن هـذه الطبقـات زمـام اللغـة الـتي تنطقهـا الطبقـة العربيـة العليـا، علـى حـين بقـي السـواد الأعظـم عنـد أسـلوب لغـوي دارج، ظهـرت فيـه -بواسـطة تـرك التصـرف الإعـرابي قبـل كلِّ شيء- سـماتٌ مـن التطـور إلى العربيـة المولـدة، ومـن هـذه اللغـة الدارجـة في القـرن الأوّل الـتي أخـذت - كمـا يبـدو- بعـض الخصائـص المحليـة في المـدن المختلفـة، نشـأت اللهجـات المتأخـرة في المـدن الإسـلامية»[2].

ويكمـل رأيـه بقولـه: «في الثلـث الأخـير مـن القـرن الأوّل، كان قـد أخـذ نمـو العربيـة المولـدة -الـتي تكوَّنـت مـن العوائـد اللغويـة الراجعـة إلى اللهجـة الدارجـة في مناطـق العربيـة القديمـة- حـدًا لـم تتوقـف فيـه الأخطـاء اللغويـة عـن الظهـور حـتى في الدوائـر الأولى مـن المجتمـع العـربي، وقـد قامـت بينهـم حركـة رجعيـة ضـد فسـاد اللغـة، ونشـأ مـن ذلـك في أواخـر القـرن الأوّل (السـابع الميـلادي) مبـدأ تنقيـة اللغـة العربيـة، الـذي حمـل رايـة المحافظـة علـى خلـوص اللغـة»[3].

ويزعـم أنَّ أوَّل وضـع شـامل لقواعـد اللغـة العربيـة لـم تغـيّر الأجيـال المتأخـرة شـيئًا مـن أسسـه وقواعـده، وإن وسّـعته توسـيعًا، ويـرى أنَّ «كتـاب سـيبويه يرينـا كيـف أنَّ القواعـد

(١) السابق ص ٣٨.
(٢) السابق، ص ٤٣.
(٣) يوهان فِك: العربية، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ص ٤٣ .

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

العربيـة اعتمـدت علـى الاسـتعمال اللغـوي عنـد عـرب البادية دون اسـتثناء، فهـو يرجـع دائمًـا في شـؤون الاسـتعمال اللغـوي إلى العـرب، ولا يحيـد في ذلـك عـن ترجيـح كفـة اللسـان الحجازي، بأنَّـه الأوَّل والأقـدم، وغالبًـا يكتفـي في ذلـك بعبـارات عامـة، مثـل: «العـرب الذيـن تُرتـضى عربيتهـم» أو«العـرب الموثـوق بعربيتهـم»[1].

وكان البـدو- حسـب زعمـه - يعـدون حجـة لا يعتورهـا الشـك في جميـع مسـائل اللغـة، وكـم خـلاف بـين علمـاء اللغـة في التفسـير الصائـب لبيـت مـن الشـعر أو في صحـة تعبـير من التعبـيرات، رفعـه حكـم بـدوي حاضـر عرضًـا، «وحسـبنا أن نذكـر الحـوار الخـلافي الـذي دار بـين سـيبويه والكسـائي في مجلـس الوزيـر يحيى بـن خالـد البرمكـي»[2].

هـذه الرؤيـة موضوعيـة جـدًّا، في دراسـة تاريـخ العربيـة؛ لعـدم وجـود شـكوك مسـبقة، أو بـدون سـبب في العلمـاء العـرب، ومـا سـجّلوه، وكذلـك عـدم شـكّه في لغـة القـرآن الكريـم، كمـا أنَّهـا رؤيـة متكاملـة للعربيـة منـذ الجاهليـة وحـتى بعـد عصـور الانحطـاط. هـذه الرؤيـة هـي نفسـها -تقريبًـا- الرؤيـة الموجـودة عنـد كلٍّ مـن بـلاو وفرسـتيخ، وسـوف نـرى ذلـك في موضعـه مـن هـذا البحـث.

ومـن المستشـرقين الذيـن يقولـون بهـذه الرؤيـة الألمـاني فولـف يتريـش فيشـر، يظهـر ذلـك مـن تقسـيمه تاريـخ العربيـة الفصـحى إلى ثـلاث مراحـل: -(وفي بحـث أحـدث جعلهـا أربعًـا)- الأولى: فـترة مـا قبـل الكلاسـيكية، الثانيـة: الفـترة الكلاسـيكية (الفصـحى)، والثالثة: فـترة مـا بعـد الكلاسـيكية. أمَّـا المرحلـة الأولى: (فـترة مـا قبـل الكلاسـيكية ونصوصهـا) فترجـع إلى الفـترة الواقعـة قبـل ذلـك، ولـم تكـن وقعـت بعـد تحـت تأثـير معيـاري للنحـو المـدرسي، ومـن ثَـمَّ تقـدم لغتهـا تنوّعًـا أكـبر، سـواء كان في بنـاء الصيـغ والنحـو أم في المجـال الصـوتي[3]. ويزعـم فيشـر أنَّ هـذه المرحلـة تصـل حـتى منتصـف القـرن الثامـن الميـلادي -تقريبًـا-، ويـرى

(١) السابق، ص ٧٧ - ٧٨.
(٢) السابق، ص٧٩.
(٣) ف. فيشر: العربية القديمة في رواية إسلامية ضمن دراسات في العربية، ترجمة د. سعيد بحيري، ص ١٠٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أنَّ مؤلفي هذه النصوص التي تنتمي إلى هذه المرحلة هم -بلا شك- عرب، وكانوا على اتصال مباشر بالإرث اللغوي للمجتمع القبلي البدوي، وتضم فترة ما قبل الكلاسيكية النصوص التالية:

- الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام.
- القرآن الكريم.
- مادة ثقافية لغوية للقبائل، أي: أمثال العرب ونوادرهم، وأيامهم، وحكايات الأبطال، وأخبار الحروب[1].
- أجزاء من تراث صدر الإسلام (الحديث وأخبار تاريخه).

أمَّا الفترة الكلاسيكية (الفصحى) فقد ذكر فيشر أنَّه «سارت بني الشعوب الواقعة تحت حكم عربي في دولة الخلفاء اللغةَ العربية منذ البداية على مستويين، مستوى الاتصال اللغوي بين إنسان وآخر، ومستوى استعمال العربية لغة للعبادة والإدارة والأدب. وثمة خطوة مهمة في نفاذ العربية لغة للثقافة، هي إدخالها لغة للإدارة بدلًا من اليونانية والفارسية في عهد عبد الملك بن مروان (٦٨٥م - ٧٠٥م). ومع تحويل الرواية اللغوية للقبائل العربية إلى تدوين وتعلم الأدب بطريق التلقين، وكانت بدايات ذلك قبل منتصف القرن الثامن الميلادي، دخلت العربية لغة للثقافة والحضارة في مرحلتها الكلاسيكية. وفي النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي تقلَّبت العربية الكلاسيكية (الفصحى) إلى حد بعيد، لدرجة أن غير العرب استطاعوا أن ينافسوا العرب بنجاح ليس في مجال النثر فحسب، بل الشعر أيضًا[2].

وكان النموذج اللغوي للعربية الكلاسيكية / الفصحى -حسب ما يقول فيشر- قد تشكَّل مع نفاذ غلبة العربية لغة للثقافة في دولة الخلفاء، وكان أقدم أثر لكتابة

(١) السابق، الصفحة نفسها.
(٢) ف. فيشر: العربية القديمة في رواية إسلامية ضمن دراسات في العربية، ترجمة د. سعيد بحيري، ص ١١٧ - ١١٨.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

نحويـة للعربيـة الكلاسـيكية كتـاب سـيبويه (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٣م)، ويعلـم أنَّ إتمـام تعلـم لغـة نموذجيـة عربيـة كلاسـيكية فصـحى[١] ظلـت معاييرهـا في كلِّ النقـاط الجوهريـة فيمـا بعـد دون تغـيُّر، وظهـر- حسـب زعمـه- النمـوذج اللغـوي للفـترة الكلاسـيكية بوضـوح في النصـوص الـتي تكوَّنـت بعـد منتصـف القـرن الثامـن الميـلادي[٢].

ويقـول فيشـر: «وتبعًـا للوضـع الـذي استرشـدنا بـه علـى تاريـخ نشـوء العربيـة الكلاسـيكية بمعلومـات علمـاء اللغـة العربيـة، يـكاد يكـون اعتمـادًا كليًّـا عليهـا تقريبًـا، يصعـب تحديـد نصيبهـم في توحيدهـا، وجعلهـا نموذجيـة، وهـو مـا مـرَّت بـه العربيـة عنـد انتقالها من فـترة ما قبـل الكلاسـيكية إلى الفـترة الكلاسـيكية (الفصـحى). ففـي الأسـاس عدَّ علمـاء اللغـة كلَّ ظاهـرة يسـتدل عليهـا في نصـوص فـترة مـا قبـل الكلاسـيكية -أي: في الشـعر العـربي القديـم والقـرآن الكريـم- مقبولـةً، وعلـى الرغـم مـن ذلك فـإنَّ اللغـة النموذجيـة للفـترة الكلاسـيكية تتسـم بتضييـق التنـوع الأصلـي في بنـاء الصيـغ والنحـو والـثروة اللغويـة»[٣].

وحسـب زعـم فيشـر - «وتوصـف نصـوص الفـترة الكلاسـيكية مـن خـلال أنَّـه قـد تحققـت فيهـا المعايـير الـتي وضعهـا النحـاة، فلغتهـا تضـع إذنْ النمـوذجَ العـربي الكلاسـيكي الـذي قيـس عليـه باسـتمرار الأسـلوب والاسـتعمال اللغـوي في الأزمنـة الأخـيرة»[٤]. أمَّـا المرحلـة الأخـيرة: (فـترة مـا بعـد الكلاسـيكية) فـيرى فيشـر أنَّـه بالرغـم مـن تحقـق وضـع النحـو والمعجـم مكتوبًـا، فقـد ظلـت اللغـة بعيـدة عـن التغـير الصـوتي، وأي تغـير في المجـال الصـرفي إلى حـدٍّ بعيـد، و«مـع أنَّـه وضعـت القـوة المعياريـة لنظـام النحـو الملقـن بشـكل مـدرسي حـدودًا، مـع ذلـك لـم تسـلم العربيـة الكلاسـيكية أيضًـا مـن التغـير والتبـدل. وقبـل كلّ شيء كان المقصـود مـن ذلـك تلـك المجـالات الـتي لا يسـوغ بسـهولة وضـع معايـير لهـا مـن خـلال

(١) السابق، ص ١١٨.
(٢) السابق، الصفحة نفسها.
(٣) ف. فيشر: العربية القديمة في رواية إسلامية ضمن دراسات في العربية، ترجمة د. سعيد بحيري، ص ١١٨ - ١١٩.
(٤) السابق، ص ١٢٠.

نظريات ... ولذا ظهرت في وقت مبكر جدًّا أوجه عدول عن النماذج الكلاسيكية في النحو والأسلوبية، ولم يسلم بناء الصيغ أيضًا من أشكال التجديد. وقد وقعت بعض هذه التغيرات تحت تأثير لغة الحديث العربية المعاصرة»[1].

ويردد فيشر زعمه قائلًا: «إنَّ قسمًا كبيرًا من الأدب العربي في العصور الوسطى له لغة تحمل- قياسًا على معايير فترة الكلاسيكية في القرن التاسع الميلادي- ملامح ما بعد الكلاسيكية» بشكل واضح؛ ولذا من الصعوبة أن تنفصل زمنيًّا عن فترة ما بعد الكلاسيكية داخل تطور العربية الكلاسيكية»[2].

ويرى فيشر «أنَّه بمرور القرن العاشر الميلادي، تبيَّن في نصوص كثيرة الميلُ إلى الانفصال عن نماذج الفترة الكلاسيكية، ومنذ القرن الحادي عشر صارت أشكال التجديد في النحو والأسلوب تدريجيًا معتادة لدرجة أنَّه يمكن أن يتحدث منذ ذلك الزمن على الأكثر عن فترة ما بعد الكلاسيكية»[3].

وتصل «فترة ما بعد الكلاسيكية حتى القرن التاسع عشر الميلادي - غير أنَّها- لا تمثّل في ذاتها وحدة مستقلة؛ لأنَّ تعبير المؤلفين الذين يكتبون بالعربية الكلاسيكية في أثناء هذه الفترة الزمنية الطويلة يظهر فروقًا كبيرة جدًا. وعند الحكم على لغة مؤلفات فترة ما بعد الكلاسيكية يجب أن يراعي -أيضًا- أنَّ عددًا كبيرًا من نصوص فترة ما قبل الكلاسيكية والفترة الكلاسيكية يتبع جزءًا متممًا للبناء اللغوي لكلٍّ أولئك الذين قد تعلموا اللغة الفصحى العربية/الكلاسيكية. وظلت هذه النصوص مؤثرة باستمرار، بوصفها نماذج أسلوبية، وسادت الاقتباسات الصريحة أو الضمنية منها في مؤلفات الأزمنة المتأخرة عليها. ولذا لا يجوز للمرء أن يتعجب من ظهور مؤلفين باستمرار يقتربون في لغتهم من الاستعمال اللغوي الكلاسيكي اقترابًا شديدًا»[4].

(١) ف. فيشر: العربية القديمة في رواية إسلامية ضمن دراسات في العربية، ترجمة د. سعيد بحيري، ص ١٢٠- ١٢١.
(٢) السابق، ص ١٢١.
(٣) السابق، الصفحة نفسها.
(٤) ف. فيشر: العربية القديمة في رواية إسلامية ضمن دراسات في العربية، ترجمة د. سعيد بحيري، ص ١٢٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ومـن المستشـرقين الذيـن رأوا أنَّ الفصـحى هـي العربيـة القديمـة المستشـرق الفرنـسي هـنري فلايـش (Fleisch, H.) ١٩٠٤- ١٩٨٥ م، مستشـرق وعالـم أديـان)، الـذي يؤكـد ذلـك قولـه: «إنَّ البـدو قـد كانـوا علـى العمـوم -في صـدر الإسـلام، عصـر الفتوحـات الإسـلامية- يتكلمـون عربيـة تحتفـظ بالإعـراب كلِّـه، مـع وجـود اختلافـات خاصـة بلهجاتهـم، ومـع خصوصيـات أخـرى خاصـة بلهجتهـم. هـذا الإعـراب لـم يكـن لـه أثـر مـن المـاضي، وقـد ظـل الشـعراء محتفظيـن بـه في تقاليـد الشـعر..... إنَّهـا احتـوت علـى جـزء لازم مـن اللغـة اليوميـة، ويسـتطيع الطفـل البـدوي تعلمهـا بصـورة طبيعيـة ببسـاطة مـن خـلال تكـرار لغـة أسـرته وأترابـه كمـا يفعـل كلُّ طفـل، ويمكـن أن تكـون بعـض المجموعـات قـد فقـدت اسـتعمال الإعـراب، لكـنَّ هـذا لا يغيـر مـن الانطبـاع العـام بـأنَّ الإعـراب قـد ظـل فـترة طويلـة -نوعًـا مـا- بعـد ذلـك»[1].

ويستشـهد فلايـش برواية الأزهـري (ت ٣٧٠هـ) الـتي تؤكـد أنَّـه لـم يسـمع حـين كان أسـيرًا عنـد بـدو القرامطـة في شـرق وسـط شـبه الجزيـرة العربيـة أي لحـن أو خطـأ لغـوي فاحـش في كلامهـم. ويـرى أنَّـه مـن غـير الممكـن أن يزعـم الأزهـري هـذا الزعـم لـو أنَّ العـرب (بـدو القرامطـة) كانـوا يتكلمـون مـن غـير إعـراب[2].

هـذا تصـور سـقناه لمجموعـة مـن المستشـرقين يـرون العربيـة الفصـحى هـي العربيـة القديمـة، أشـهرهم: نولدكـه، وفِـك، وفيشـر، وفلايـش، وبـلاو، وفرسـتيخ.

(1) Fleisch, H.1964: p 42.

(2) Ibid., p. 42 – 43.

٥- اتجاه متشكك

هناك تصور للعربية الفصحى متشكك في كل ما ذكره العلماء العرب القدامى، فيرى بعضهم أنَّ القرآن الكريم لم ينزل في البداية بالعربية الفصحى، وإنَّما عُدّل فيما بعد، وهذا رأي المستشرق الألماني فولرز. وكما قلت في بداية البحث إنَّ أبحاث المستشرقين ليست كلُّها سيئة، وليست كلُّها صحيحة، ويجب عليَّ أثناء عرض اتجاهات المستشرقين في تصورهم للعربية الفصحى أن أعرض كلَّ الاتجاهات دون تدخل، وهذا ما نحاول الالتزام به.

ويعدُّ المستشرق الألماني كارل فولرز(Vollers, K.) ١٨٥٧- ١٩٠٩م) أحد المستشرقين الذين قدموا آراء مصاغة بشكوك عديدة، فقد كتب كتابًا بعنوان «اللغة العامية واللغة المكتوبة في العربية القديمة»، وزعم فيه أنَّ النبي محمدًا ﷺ كان يتلو القرآن في أوائل الأمر بلهجة حجازية تخلو من كثير من الخصائص المعروفة في العربية، ومنها: تحقيق الهمز، وبعض الصيغ الفعلية والاسمية، والإعراب، حيث يرى أنَّ الإعراب لم يكن في زمن النبي ﷺ خصيصة يلتزم متكلمو العربية جميعًا باستخدامها، وأنَّه لم ينشأ عن الاستعمال اللغوي المشترك، بل ربَّما كان خصيصة مقصورة على بعض القبائل، أمَّا العرب الآخرون فقد كانوا يعدونه مجرد خصيصة تميز الخطاب الرفيع (Elevated Discourse). ولكي نكون دقيقين، فإنَّه ربَّما كان مقصورًا على الشعر الذي يعتمد على الوزن بصورة حاسمة[١].

وشكّك فولرز في أن يكون لأيَّة حركة من حركات الإعراب تلك الوظيفة النحوية (Grammatical Function) التي قُرنت بها في العربية الفصحى[٢]. ويرى أنَّ العربية الفصحى التي رواها لنا النحويون العرب -التي توجد في القرآن الكريم، كما احتفظ بها الشعر في موازينه- مصنوعة. وهو ينكر على الإطلاق أن تكون حية في مكة في عهد النبي ﷺ. ويشك كذلك في أن يكون البدو الذين خرج من بينهم الشعراء يتكلمون هذه اللغة[٣].

(١) انظر زويتلر الترجمة العربية، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ والأصل p. ١١٧.
(٢) السابق، ص ٢٩٩ والأصل p. ١٧٧.
(٣) انظر تلخيصًا لآراء فولرز في كتاب د. رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ولقد قوضت الحجج التي جاء بها المستشرقون جاير، ونولدكه، وبلاشير، ورابين، وآخرون -بصورة تكاد تكون نهائية- صحة نظرية فولرز[١].

وجاء من بعد فولرز من المستشرقين المتشككين باول كالِه (Kahle, P.)، فمن ثلاث دراسات كتبها كاله، ودرس فيها الإعراب، ولغة القرآن، لم يشك في أنَّ لغة البدو ولغة الشعر كانتا متماثلتين، أمَّا الشك فكان في اللغة التي تكلمها النبي ﷺ وأصحابه. وخلص -اعتمادًا على نص للفراء لم يكن معروفًا من قبل، وعلى عدد من الأقوال المنسوبة إلى الأجيال الأولى من المسلمين، تتضمن الحض على استعمال الإعراب استعمالًا دقيقًا في قراءة القرآن -إلى أنَّ هناك دليلًا على أنَّ المسلمين الأوائل كانوا يقرؤون القرآن من غير إعراب.

وعلَّق كاله على كلمة «الإعراب» في نص أبي بكر الصديق، بقوله: «الإعراب» يعني: الحركات في أواخر الكلمات العربية طبقًا لقواعد اللغة العربية الفصحى. واستنتج كاله من ذلك أنَّ «الإلحاح على طلب قراءة القرآن بالإعراب لا يبدو معقولًا إلَّا إذا كان يقرأ في الواقع بدون إعراب، وأريد له أن يُقرأ بالإعراب الذي عُدَّ في وقت متأخر من مظاهر الصحة اللغوية»[٢].

وواضح أنَّ استنتاجه خاطئ؛ إذ لم يكن الإعراب بمعناه الاصطلاحي معروفًا في أيام أبي بكر وابن مسعود، ومعنى «إعراب القرآن» في هذه الأحاديث - كما يذكر د. رمضان عبد التواب- هو الوضوح والبيان في قراءة القرآن الكريم[٣].

وهناك مستشرقون جاءوا من بعد فولرز وكاله، ولم يأخذوا بما جاء عندهما، وإن كانت فرضياتهم تعدُّ امتدادًا لهذا الفكر، ومن هؤلاء المستشرق ديفيد تستن (Testen, D.)، ففي بحث له عن: العربية الأدبية والحجازية المبكرة (Literary Arabic and Early Hijazi)، يشير بمصطلح الحجاز إلى اللغة الطبيعية / اللغة الأمّ للمجتمعات التي نزل القرآن

(١) انظر زويتلر الترجمة العربية، ص ٣٢٢، والأصل p. ١٢٩.
(٢) انظر زويتلر الترجمة العربية، ص ٣٢٢، والأصل p. ١٢٩.
(٣) د. رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، ص ٣٨٠.

فيها أولًا بلهجات اجتمعت مع مدن مكة والمدينة، التي يُقال إنَّها متماثلة واقعيًا[1]، وأنَّ مفهوم الحجازية القديمة أنَّها صيغة خاصة من العربية، ومن ثمَّ لم تكن- حسب رأيه- متعادلة مع العربية الفصحى الموجودة، في الاستشهادات النحوية المبكرة التي كانت مدركة من الملامح المميزة التي يختلف فيها أهل الحجاز عن غيرهم من العرب[2].

ويرى تستن أنَّ هناك من يعارض القول بفصاحة النبي ﷺ، وأنَّ لغة النبي ﷺ كانت مختلفة عن العربية الفصحى في صيغتها الفصيحة[3]، وهناك باحثون أكثر حداثة عزوا بقوة التفاسير المختلفة إلى التعارض الملاحظ بين عربية القرآن والعربية الفصحى، ويشير إلى أنَّ الرؤية المتطرفة المقدمة من كارل فولرز، خلص فيها إلى أنَّ هناك ثغرة تركيبية واسعة عزلت لهجة الحجاز القديمة عن اللغة العربية الفصحى، وكان منطلق فولرز- حسب زعم تستن - أنَّ بنية اللغة التي تكلم بها النبي ﷺ (لغته الطبيعية) قريبة من اللهجات العامية الحديثة، أكثر من قربها من العربية الفصحى، وهو يعزو ذلك إلى النص القرآني الذي- حسب زعم فولرز- أُعيد تصحيحه بصورة شاملة لكي يكون نموذجًا من اللغة الشعرية الكلاسيكية / الفصحى للبدو[4]، وبنهاية إعادة التصحيح، أصبح نص القرآن نصًا بلغة مختلفة، حيث احتوت على سمة الإعراب التي كانت غائبة أصلًا في النص الأصلي[5].

يذكر تستن - بعدما أشار إلى تصور فولرز - إلى أنَّه اختار وجهة النظر التي مفادها: اختلاف طبيعة لهجة الحجاز القديمة، لتكون قائمة على برهان موجود، في نص القرآن، ويذكر أنَّه سيتقيد بمعلومات (Data) مبرهنة، من الطور التاريخي الخاص بنص القرآن المهتم بالصوامت، ويرى أنَّ الكُتَّاب الأوائل الذين كتبوا النص القرآني ربَّما لم يكونوا -

(1) Testen, D.1997: p.207
(2) Testen, D.1997: p. 208.
(3) Ibid., p. 209
(4) Ibid., p. 210.
(5) Ibid., p.210.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

حسب زعمه- متمهلين في تمثيل (الصوائت، والإعراب ... إلخ). فهم - حسب زعمه- لم يكن لديهم القدرة على تبديل أي شيء وجدوه في نص القرآن. ويحاول أن يصل إلى أنَّه من خلال ملمح خاص يراه من لهجة الحجاز[1]. وأوَّل سمة من تلك السمات التي وجدها في النص القرآني هي تخفيف الهمزة، وهذا - حسب زعم تستن- خاص بلهجة الحجاز، أشار إليه النحويون العرب كثيرًا[2]، ويرى كذلك أنَّ الأعراف الكتابية للقرآن كُيّفت كأعراف معيارية للكتابة العربية التي تشهد بغياب الهمزة في الحجازية المبكرة، فالشكل الصحيح للنص لا يرمز فيه إلى الهمزة التي ميزت فيه في المرحلة الثانية بواسطة علامات ملونة منقوطة (في الصحف الأولى)، أو من خلال إضافة رمز الهمزة مشتقًا من حرف العين (في الكتابة الأحدث). والموقع العرفي للهمزة -غالبًا- ما يقدّم/ يمثّل بالصائت الطويل الذي توضع عليه الهمزة، فالصيغة الصحيحة الأصلية للنص القرآني متفقة مع ملاحظات النحويين الذين صرحوا أنَّ لهجة الحجاز مفتقرة إلى الهمزة، وهي في موقع بداية الكلمة موجودة في النص القرآني فحسب[3].

ويشير كذلك إلى حذف الألف، وهذا عندما يدخل حرف التعريف (ال) على الكلمات، التي بها ألف في أوّلها، وهذا يؤكد عنده أنَّ حرف التعريف في الحجازية المبكرة لم يكن تاليًا بأي همز حقيقي كالموجود في العربية الفصحى، ويمثّل لذلك بكلمات: الآن (alaana) مقابل ما في العربية الفصحى (ali' aana) وكذلك unaas أُناس في الحجازية و lunaas في الفصحى، وalnaas في الحجازية، وفي الفصحى an-naas الناس بتشديد النون[4].

وهذه شهادة من القرآن - حسب زعمه- تؤكد ما يزعمه من أنَّ القرآن به تأثير من لهجة الحجاز، وهي السبب المباشر لما يريد أن يؤكده في بحثه.

(1) Testen, D.1997: p. 211.
(2) Ibid., p. 212 .
(3) Ibid., p. 212.
(4) Testen, D.1997: p. 214.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويمكننا أن نبعد رؤية تستن عن الاتجاه المتشكك، إلَّا أنَّه ينطلق في بحثه من تصور فولرز لعربية القرآن، وهذا الذي جعلني أراه امتدادًا لتصور فولرز، وإن لم يتمثّل تصور فولرز كليَّة.

ويأتي رأي المستشرق الفرنسي بيير لارشي (Larcher, P.)، متشككًا في الرؤية الإسلامية للعربية الفصحى، فيرفض رؤية ابن فارس، وغيره من العلماء القدماء، في نظرتهم إلى فصاحة لغة القرآن، إضافة إلى أنَّه يؤيد رؤية فولرز وكاله، ويرى أنَّ العربية الفصحى تنوع لغوي ذو مكانة، ومنتقى من تنوعات متعددة، كما يرى أن العربية الشعرية المشتركة التي كُتب بها الشعر القديم لم تكن إلَّا أسطورة مقدمة كخلفية للعربية النموذجية، كما أنَّ ارتباطها بلهجة قريش أمر عقائدي فحسب[1].

أمَّا المستشرق الفرنسي (Gilliot, C.) فرأيه فيه كثير من الشك والريبة، ففي مقال له بعنوان: (اللغة والقرآن) يرى فيه أنَّ القراءات المختلفة للقرآن راجعة - حسب زعمه- إلى الخط العربي الذي كُتب به القرآن أولًا، قبل العلامات التي وضعوها فيما بعد[2]. وهذا نوع من الفرضيات التشكيكية في لغة القرآن، لا ترقى لأنْ تكون علمًا يُهتم به. ومثل هذه الأفكار مبنية بشك أبعدها عن الصواب.

ويرى المستشرق جون وانسبرو (Wansbrough, W.) مستشرق بريطاني معاصر)، أنَّ مصطلح Koine) (يصف مجموعة من العناصر المفسرة، آتية من مفهوم هذا المصطلح الذي توصف به العربية الفصحى. فهذا المصطلح استعمل ليرسم المفاهيم التالية:

لغة الشعر الجاهلي والقرآن.

نوع من اللغة الواسطة التي تسمى (Lingua Franca) للبدو.

المصدر المفترض للهجات الحضرية الحديثة[3].

(1) Larcher, p. 2005.
(2) Gilliot, C.2003: p. 384.
(3) Wansbrough, J.1977: p. 87.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويـرى أنَّ العنصـر المشـترك (Koine)، كان مطبقًـا أيضًـا علـى دليـل مشـكل وضئيـل للهجـة، لتنتـج سلسـلة مقبولـة ظاهريًـا: إقليميـة (نجـد - الحجـاز)، اقتصاديـة (بـدو - حضـر)، اجتماعيـة (أشـراف - عامـة)، إثنيـة (عـرب - عجـم). ويصـرح بـأنَّ نتيجـة اختبـاره كانـت البرهنـة علـى عكـس افتراضـات العلمـاء المسـلمين، فالعربيـة الفصـحى لـم تكـن أبـدًا متطابقـة مـع أيـة لهجـة عربيـة واحـدة[1]. ويـرى أيضًـا أنَّ المناقشـات الـتي كانـت بـين البصريـين والكوفيـين لـم تكـن أكـثر مـن مناقشـات مدرسـية، وأنَّهـا وُظفـت علـى أنَّهـا اختلافـات غـير مهمـة[2].

وبعـد هـذا النقـد الـذي وجّهـه وانسـبرو إلى النظريـة الإسـلامية في العربيـة الفصـحى، وغيرهـا مـن النظريـات المعاصـرة الـتي تقـترب مـن هـذه النظريـة، يـرى وانسـبرو أنَّ الحـل في تفسـير اللغـة العربيـة الفصـحى ديـني، وليـس فيلولوجيًـا[3]، ويـأتي بالأدلـة الـتي تـروق لـه، وتؤكـد رؤيتـه، ومنهـا مـا يلـي:

رفض الرسول ﷺ قراءة عبد الله بن عتيق، والسبب في تصوره هو أنَّه كان يرطن اليهودية.

رفـض لغـة عـدي بـن زيـد، ورفـض لهجـة النصـارى (العباديـة) في الجاهليـة، والسـبب -حسـب زعمـه- أنَّهـم نصـارى[4].

ثـم يطلـق نظريتـه القائمـة علـى أنَّ العربيـة الفصـحى شـكل قديـم للغـة السـامية، وأنَّ الإعـراب أسـاسي في تأثيره الفعَّـال في عمليـة التواصـل، يقـول وانسـبرو إنَّ هـذا- في رأيـه- غـير مثبـت وغـير مبرر، ويـرى كذلـك أنَّ نمـاذج عديـدة لمـا يسـمّى بالصيـغ غـير المُشـكّلة (pausal) الـتي تشـغل

(1) Ibid., p. 87.
(2) Ibid., p. 94.
(3) Ibid., p. 105.
(4) Wansbrough, J.1977: p. 105.

هذا مخالف لما هو موجود عند العلماء العرب؛ لأن الاستشهاد بشعره مثبت في كتبهم.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

القرآن يمكن تفسيرها بكونها مصورة للمظهر المقطعي للعربية الحديثة[1]. ويستشهد بالتاء المربوطة التي تصور (ألف مد ـah) عند الوقوف عليها، فهي تصور(at و ah)[2].

وينتقد وانسبرو المستشرق فِك في تصوره القائم على أنَّ الآيات الكريمة التي ذكرها في التدليل على وجود الإعراب، وأن الإعراب أساس في لغة القرآن الكريم، ومنها: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ وغيرها. ويقول متشككًا في دور الإعراب في عربية القرآن إنَّ كلَّ القراءات غالبًا ما تؤدى التراكيب اللغوية المختلف في إعرابها المعاني نفسها، وهذه المشكلة شُرحت بواسطة المفسرين، ويتضح من تقسيم السيوطي في إعراب القرآن؛ أن هناك ٢٥ آية يمكن أن تقرأ بثلاث طرق إعرابية (ما قرئ بالتثليث من حروف القرآن)، ويضرب أمثلة لإمكانية قراءة «إياك نُعبدَ»، «وإياك نَعْبد»، وكذلك «أمَّا ثمودُ / ثمودَ فهديناهم»، «فبم تبشرون / تبشرون»، ويصف ذلك بأنَّه اعتباطية، وبغير مسؤولية من قبل النحاة العرب، فقد صنعوا ملاحظات ساخرة (Caustic Observation). كما يرى أنَّ سلوك النحويين في المسألة المشهورة «المسألة الزنبورية»، وفي تفسيرهم شعر عدي بن زيد، والنابغة الجعدي، والفرزدق، والنوادر التي تحكى في هذا، ربَّما يؤدي إلى إلقاء بعض الشكوك في الوصف القائم آنذاك على العربية الفصحى[3].

ويرى وانسبرو أنَّ الإعراب في البداية لم تكن وظيفته الأولى نحوية على وجه الحصر، متخذاً من تمييزالسيوطي في الإتقان حينما يميز بين الإعراب عند النحاة والإعراب في تلاوة القرآن دليلًا على ذلك، يقول السيوطي: «المراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة، وهو ما يقابل اللحن؛ لأنَّ القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها»[4]. ويتخذ من تصور فولرز الذي يرى أنَّ وظيفة الإعراب كانت أساسية في الإيقاع. كما أنَّ النقطة التي قدمت من خلال فتسشتاين التي

(1) Ibid., p. 106 – 107.
(2) Ibid., p. 109.
(3) Ibid., p.109.
(٤) السيوطي: الإتقان، ج ٣، نوع: ٣٦، ص ٧٣٠.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تشـير إلى ممارسـة البـدو لـه باعتبـار أنَّ الشـعر وُجِّـه لكـي يُغَـنَّى، ومـن ثـمَّ يتطلـب وفـرة مـن الصوائـت[1]، ويقـول وانسـبرو: إنَّ الحقيقـة أن الشـعر البـدوي تحـوَّل مـن الشـعر إلى تـلاوة النـبي ﷺ للقـرآن، فمصـدر الإعـراب كان الشـعر البـدوي[2]. ويكمـل رؤيتـه بالإشـارة إلى أنَّ الإعـراب قضيـة آتيـة مـن العـروض العـربي، ويذكـر مـا يؤكـد ذلك مـن كلام سـيبويه عـن فتحة الترنـم، ومـد الصـوت، وقـول حـازم القرطاجـني (حـروف الترنـم) و(الحـروف المصنوعـة)[3].

ونلاحـظ هنـا ملاحظتـين، إحداهمـا: أنـه يتخـذ مـن قـول السـيوطي في الإتقـان دليـلًا علـى أن الإعـراب واللحـن اسـتعملا عنـد العـرب قديمًـا، ولكـن ليـس بالمعـنى النحـوي. والأخـرى يحـاول أن يجـد في فواصـل القـرآن، والقـوافي، إضافـة إلى الظواهـر البديعيـة – ومنهـا السـجع – علـى أنهـا تسـهم في وجـود الإيقـاع.[4]، ليؤكـد في النهايـة أن الإعـراب في العربيـة آتٍ مـن هـذه الظواهـر.

هنـاك خلـط واضـح في مزاعـم وانسـبرو، يبعـده عـن الموضوعيـة، بـل إنَّ رؤيتـه فيهـا كثـير مـن نقـاط الضعـف، وسـوف نحلـل هـذه المزاعـم في مكانـه مـن هـذا البحـث. ومـا نؤكـده هنـا أن الآراء الخاصـة «بالاتجـاه المتشـكك» تقـدم تصـورات قائمـة علـى الشـك في لغـة القـرآن، فمنهـم مـن جعلهـا متأثـرة بالسـريانية، ومنهـم مـن جعلهـا بعيـدة عـن الفصـحى، وأن القـرآن نـزل بالعاميـة المكيـة، ومنهـم مـن يتشـكك في النظريـة الإسـلامية في تصورهـا للغـة العربيـة الفصـحى، كمـا جـاء في تصـور وانسـبرو.

يمكننـا تقسـيم اتجاهـات للمستشـرقين التـي نراهـا في تصورهـم للعربيـة الفصحى كالآتي:

- اتجـاه يـرى أنَّهـا لهجـة لقبيلـة عربيـة، وأن هنـاك مـن يراهـا قبيلـة قريـش، ومنهـم مـن يراهـا نجـد، ومنهـم مـن يراهـا كنـدة، ومنهـم مـن يراهـا لهجـة قبيلـة مـن وسـط شـرق شـبه الجزيـرة العربيـة، ومنهـم مـن يراهـا لغـة قبيلـة دون تحديـد اسـمها.

(1) Wansbrough, J. p. 109.
(2) Ibid., p. 110.
(3) Ibid., p. 110.
(4) Ibid., p. 116.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- اتجاه يزعم أنَّها مستوى أدبي.
- اتجاه يراها لغة صنعها النحويون العرب، وبعضهم يراها تقاليد شعرية شفوية اهتم بها بعد نزول القرآن الكريم، وقُعّدت فيما بعد.
- اتجاه يراها تنوعًا من العربية القديمة.
- اتجاه متشكك، بعضه يشكك في لغة القرآن، وبعضه يشكك في النظرية الإسلامية للعربية الفصحى.

الفـصل الثـاني

تصور المستشرقين جوشوا بلاو وكيس فرستيخ للعربية الفصحى

قلت في المقدمة إنَّ بلاو وفرستيخ مع نولدكه، ورينان، وفِك، وفيشر، وعدد آخر من المستشرقين، يمثّلون التصور الذي يرى أن العربية الفصحى هي العربية القديمة؛ ولذا هو الأقرب للتصور الذي يراه العلماء العرب القدماء، وكثير من علماء الساميات. وبلاو وفرستيخ يمثّلان - من وجهة نظري- التصور نفسه في نسخة جديدة؛ لذا جعلت هذا الفصل عرضًا تحليليًّا لآرائهما، ثم يأتي فصل آخر أحلل فيه آراء بلاو وفرستيخ في ضوء الآراء الاستشراقية الأخرى.

وسأبدأ هنا بعرض تصور بلاو متبعًا العناصر التالية:

أولًا: العربية القديمة والعربية المولدة.

ثانيًا: القرآن ولغة مكة، وهل توجد ازدواجية لغوية قبل الإسلام / الواقع اللغوي قبل الإسلام؟

ثالثًا: رده على تصور المستشرق الإسباني فديريكو كورينتي (Corriente, F.).

أولًا: العربية القديمة والعربية المولدة:

يفرق بلاو بين العربية القديمة ((Old Arabic) والعربية المولدة Neoarabic)[1]، وهذا المصطلح رأينا ترجمته بالعربية المولدة، كما صنع العرب القدماء في وصف الكلمات المولدة، ولم نترجمه بمصطلح العربية الجديدة، وهي الترجمة الحرفية للمصطلح؛ وذلك خوفًا من اللبس. فأي عربية جديدة؟ أفي صدر الإسلام زمن الفتوحات الإسلامية؟ أم العربية الجديدة الآن؟ ولم نأخذ بترجمة العالم اللغوي د. حمزة المزيني في ترجمته لهذا المصطلح -باللهجات العربية؛ لأن اللهجات العربية فيها القديم والحديث. ويرى بلاو أنَّ هناك اختلافات واضحة بين نمطين لغويين، العربية النموذجية (Standard Language)

(1) Blau, J.1977: p. 1. 186 والترجمة العربية ص.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

والعربيـة المولـدة. الأولى حافظـت علـى صوامـت اللغـة السـامية الأم (Proto-Semitic)[١] بصـورة تـكاد تكـون كاملـة، فقـد تحـوَّل الصوتـان الاسـتمراريان الخارجـان ممَّـا بـين الأسـنان في اللهجـات الحضريـة إلى الصوتـين الوقفيـين (Occlusives)، المناظريـن (ث، ذ << ت، د.)، وتعرضـت الصوائـت -وبخاصـة القصيرة منهـا- إلى تغـيرات كبـيرة[٢]. وفي الصـرف بـدت كثـير مـن الاختلافـات المتعـددة بـين العربيـة القديمـة والعربيـة المولـدة، فالعربيـة القديمـة تتصف بالميـل بصـورة متزايـدة نحـو الاتصـاف بالنمـط التأليفـي (Synthetic)، أي إنَّهـا تسـتعمل الوحـدات الصرفيـة المتصلـة أكـثر، في حـين تميـل العربيـة المولـدة إلى النـوع الثـاني، أي النمـط التحليلـي (Analytic)، وتعتمـد - حسـب زعمـه- بشـكل أقـل علـى الوحـدات الصرفيـة المتصلـة؛ ولـذا اختفـت في العربيـة المولـدة علامـات الإعـراب، وهـو مـا أدَّى إلى تغـيرات تاليـة، وأصبـح ترتيـب الكلمـات داخـل الجملـة (Word Order) أكـثر ثباتًـا؛ وذلـك بسـبب اختفـاء علامـات الإعـراب، ولا يتـاح في اللغـة المولـدة إمـكان وضـع المفعـول بـين الفعـل والفاعـل، وأصبـح وضـع الفاعـل قبـل الفعـل أكـثر شـيوعًا فيهـا منـه في العربيـة النموذجيـة، وتضـاءل اسـتعمال المثـنى في العربيـة المولـدة، خلافًـا لمـا في العربيـة النموذجيـة[٣].

ويشـير بـلاو إلى أنَّ الفـوارق بـين اللغـة القديمـة والعربيـة المولـدة لا تقتصـر علـى الفـرق بـين الخصائـص التأليفيـة والخصائـص التحليليـة؛ إذ لـم يعـد التنـاوب بـين جمـل الصلـة وجمـل الصفـات لازمًـا، وهـو مـن أهـم خصائـص العربيـة النموذجيـة، فقـد أصبحـت جمـل الصفـات أكـثر شـيوعًا، وتعرضـت الأعـداد إلى بعـض التغـيرات العميقـة، وهـو مـا نتـج عنـه تغـيّر بنيتهـا بصـورة كليّـة[٤].

---

(١) يترجم د. المزيـني هـذا المصطلـح بـ(مـا قبـل السـامية)، وأعتقـد أنَّ الأفضـل (السـامية الأم) كمـا صنـع ذلـك د. محمـد الخـولي في معجـم علـم اللغـة النظـري، انظـر المـادة المذكـورة في المعجـم المذكـور.

(2) Blau, J.1977: p. 3. 187 .والترجمة العربية، ص

(3) Ibid., p. 3. 187 .والترجمة العربية، ص

(4) Ibid.., p. 4. 188-189 .والترجمة العربية ص

إنَّ اللغة العربية القديمة هي التي سبقت اللغة العربية المولدة في تاريخ اللغة العربية، وقد تمثّلت في الصناعة الشعرية التي - حسب زعمه - نوعًا قديمًا أكثر من اللغات السامية كالكنعانية والآرامية، بالرغم من أنَّها ظهرت في مرحلة تاريخية قوامها مئات من السنين بعد هذه اللغات، فقد حافظت على النهايات الإعرابية، الأصوات التي من المفترض أن توصف بأنَّها مظهر من مظاهر اللغة السامية الأم، والصوائت الطويلة التي تقصر -غالبًا- في المقاطع المغلقة، والصوائت القصيرة التي تظهر في كلِّ موضع حتى المقاطع المفتوحة[1].

أمَّا العربية المولدة فقد بدت لديه نوعًا لغويًّا أكثر تحليلًا مقارنة بالنوع التأليفي في العربية القديمة التي كان ظهورها راجعًا إلى التحول العام، الذي تكوّن مبكرًا منذ مئات السنين في الصيغَ الأقدم للأكادية، والكنعانية، والآرامية، لتتطور هذه اللغات إلى مراحل لغوية أخرى، تتشابه نموذجيًّا مع العربية المولدة أكثر من العربية القديمة؛ لذا لن يندهش أي فرد من وجود اللغة العربية المولدة. وفي المقابل فإنَّ استمرار العربية القديمة غير متوقع - دون شك - لكونها لهجة منعزلة خارجة عن المحيط (Isolated Peripheral Dialectic)[2]. هذا في تصور بلاو سبب مهم، جعل اللغة العربية القديمة تستمر بسبب انعزالها. وفي موضع آخر من بحوثه العديدة في مجال تاريخ العربية، يشير إلى أنَّ العرب قبل الفتوحات الإسلامية في العصر الجاهلي، وحتى ظهور الإسلام كانوا يعيشون في عزلة تامة عن العالم الخارجي، يتجولون من مكان إلى آخر داخل شبه الجزيرة العربية سعيًا وراء العشب، ويعيشون في صراعات وحروب لا تنتهي بين القبائل المختلفة، وهذا ما يجعل بلاو يزعم أنَّ هذا الانعزال يقدم تفسيرًا لظاهرة وجود الملامح والسمات الأثرية القديمة داخل اللغة العربية بشكل كبير، إذا ما قورنت باللغات السامية الأخرى، كاللغة الكنعانية، والآرامية، رغم ظهور اللغة العربية بعد هذه اللغات بمئات السنين[3].

(1) Blau, J, 1986.: p. 35 – 36.
(2) Ibid., p. 36.
(3) Blau, J, 1981: p. 1.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وهـذا الانعـزال التـام عـن التأثـيرات الخارجيـة - في رأيـه- جعـل العـرب يعيشـون في الظـروف المعيشـية البدائيـة نفسـها، كمـا كان عـاش أجدادهـم، فحافظـوا علـى البنيـة القديمـة (Archaic Structure) للغتهـم، وبسـبب غيـاب أي انقـلاب مؤثـر قـادر علـى إحـداث تغيـير جـذري وسـريع. وأشـارت مصـادر عربيـة، إلى إنَّ العـرب الذيـن كانـوا ينتشـرون في أعـداد قليلـة متفرقـة داخـل مسـاحات كبـيرة في شـبه الجزيـرة العربيـة كانـوا يتحدثـون لهجـات عـدة مختلفـة، تنقسـم إلى مجموعـة اللهجـات الشـرقية، وتوجـد في منطقـة الخليـج، ومجموعـة اللهجـات الغربيـة الـتي تشـمل لهجـات الحجـاز[1].

ويضيـف بـلاو أنَّ العـرب قـد أنتجـوا لغـة شـعرية (poetic language)، وهـى مـا يُشـار إليها باللغـة العربيـة الفصـحى / الكلاسـيكية، ويقـول: إنَّـه لا يهتـم بمـا إذا كانـت هـذه اللغـة الكلاسـيكية ظهـرت بكونهـا لغـة إحـدى القبائـل، أو كانـت لغـة قبيلـة مميـزة، لكـن يكفـي- مـن وجهـة نظـره- أن نقـول: إنَّ هـذه اللغـة الكلاسـيكية كانـت حـتى بدايـة القـرن السـادس الميـلادي بمثابـة لغـة قبليـة راقيـة، تسـتوعب مفـردات لغويـة، وسـمات صوتيـة وصرفيـة وتركيبيـة للهجـات قبليـة عـدة[2].

ويشـير بـلاو إلى أنَّ الاختلافـات بـين هـذه اللهجـات، أو حـتى بـين اللغـة الكلاسـيكية والعاميـات القبليـة، ينبغـي عـدم المبالغـة في تقديرهـا، فنوعيًّـا هـذه العربيـة الكلاسـيكية وهـذه اللهجـات تنتميـان إلى النـوع التأليفـي (Synthetic Type)، ولهمـا الطابـع الجمـالي في التعبـير عـن المعـاني الكثـيرة بكلمـة واحـدة، ويمتلـكان أنظمـة متشـابهة في تصريـف الأفعـال؛ لـذا كان مـن السـهل التحـول مـن لغـة إلى لغـة أخـرى[3].

ويذهـب إلى أن الفتوحـات الإسـلامية الكـبرى هـي الـتي غـيرت البنـاء اللغـوي / النمـط التأليفـي بشـكل كامـل، وأن الخطـوط الفاصلـة بـين اللهجـات الغربيـة الشـرقية والغربيـة قـد

(1) Ibid., p. 36.
(2) Ibid., p. 12-.
(3) Blau, J, 1981: p. 2.

تداخلت بعد أن امتزجت هذه القبائل المختلفة، وتجمعت في معسكر حربي واحد، فظهرت لهجات جديدة. ويشير إلى عامل آخر حاسم، وهو اتصال العرب بالشعوب الأخرى، وغالبًا كانت ثقافتهم أكثر علوًّا في تلك المعسكرات، بله مدن مثل البصرة والكوفة اللتين تطورتا من معسكرات الجنود، وبدأ عدد كبير من السكان باكتساب العربية، لكنهم كانوا يتحدثون العربية بشكل غير صحيح، باستثناء فئة خاصة منهم، فالانحرافات التي حدثت في صيغ العربية القديمة (شاملة العربية الكلاسيكية) لم تكن- حسب زعمه- تغيرات عارضة، لكنَّها أحدثت تأثيرًا في المظهر الحقيقي/الأساسي للغة، لم يقتصر على الأصوات بسبب النطق غير السليم، لكنها أثرت في البنية الأساسية للغة[1]. فكما ذكر فِك، فإن «اللغات التي كان يتحدث بها السكان الأصليون الذين سيطر عليهم العرب، فقدت بعد الفتوحات نظامها اللغوي؛ ولذلك واجه السكان الأصليون صعوبات كبيرة في التحدث بالعربية، ومحاولة استخدام قواعد العربية الكلاسيكية/ الفصحى، فقاموا بإسقاط النهايات الإعرابية في الصرف وتصريف الأفعال، ولجؤوا إلى استخدام أساليب معروفة لديهم. وحذف النهايات الإعرابية هو أحد التغيرات التي أثرت في العربية القديمة، وحولتها إلى اللغة العربية الوسيطة»[2].

ويذكر أنَّ هناك وثائق عُثر عليها تؤكد أنَّ اللغة العربية الوسيطة كانت تحمل الخواص البنيوية كلّها التي تميز العربية المولدة، وربَّما نشير إلى أنَّ الفتوحات العربية تمثّل الحقبة القديمة من العربية المولدة، ومع ذلك، فإنَّ هناك فرقًا بين اللغة العربية الوسيطة والعربية الحديثة، وتحديدًا فيما يتعلق بالدلالة الثقافية لكلٍّ منهما: فالعربية الوسيطة نقلت لنا في نصوص أدبية اختلطت فيها بالعناصر الكلاسيكية/الفصيحة،

(1) Ibid., p. 3.

(2) Blau, J, 1981: p. 3.

العربية الوسيطة التي ظهرت في نصوص العربية في العصر الوسيط، وآخرون يرونها معبرة عن شكل لغوي مكوّن من العربية النموذجية وعناصر عامية، ممّا يجعل هذه النصوص مميزة، وبعض الباحثين يستعمل هذا المصطلح من غير تفريق بين المعنيين انظر:. Blau, J.1981: p.187

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وكانـت مهمـة ثقافيًـا، في حـين كانـت العربيـة الحديثـة (Modern Arabic) [١] تتمتـع بـدور ثقـافي أقـل، ولـم تقـدم أدبًـا بالمعـنى الحقيقـي للكلمـة[٢].

ويذكـر أنَّ هنـاك فرقًـا رئيسًـا بـين الشـكل اللغـوي لـكلِّ اللهجـات في القرون الأولى للإسـلام إذا مـا قورنـت بالعصـور الحديثـة ؛ ف لهجـات العصـور الوسـيطة كانـت تختلـف نوعيًـا عـن اللهجـات البدويـة في عصرهـا الـتي اسـتمرت في المحافظـة علـى البنيـة اللغويـة التأليفيـة تقريبًـا، في حـين جـاءت العاميـات البدويـة الحديثـة متقاربـة مـع اللهجـات الحضريـة الحديثـة علـى الرغـم مـن وجـود اختلافـات في بعـض الوجـوه. كلُّ هـذا يجعلنـا نسـتطيع التميـيزبين هاتـين الفترتـين علـى الرغـم مـن تقاربهمـا اللغـوي الشـديد، ومـن ثَـمَّ يمكننـا أن نطلـق علـى كلٍّ منهمـا اسـمًا خاصًّـا، وأن نحافـظ علـى مصطلـح العربيـة الوسـيطة.[٣]

وحسـب بـلاو، فـإنَّ العربيـة الوسـيطة قـد انتشـرت بـين السـكان الحضريـين الأصليـين مـع بدايـة القـرن الأوَّل للفتوحـات العربيـة العظـمى، إلَّا أنَّ تحديـد تاريـخ هـذا التطـور مسـألة غـيرواضحـة تمامًـا. فهنـاك برديـة تشـيرإلى أنَّ هـذا الطـور بـدأ منـذ سـنة ٨٧هـ، وهـذه البرديـة مكتوبـة -عمومًـا- بلغـة عربيـة كلاسـيكية / فصـحى نقيـة، لكنهـا - بسـبب كـون مؤلفيهـا مـن أصـل غـيرعـربي وغـيرمسـلمين- احتـوت علـى أخطـاء وانحرافـات عـن الاسـتعمال الفصيـح، وهـذا يوضـح لنـا السـمات الرئيسـة للعربيـة الوسـيطة[٤]. وهـذه العربيـة الوسـيطة -حسـب بـلاو- (مـع وجـود بعـض الانحرافـات القليلـة المميزة عـن اللغـة الكلاسـيكية /الفصحى) يمكـن أن نطالعهـا بشـكل واضـح في النـص العـربي المسـيحي المبكـر في حيازتهـا / ظهورهـا. وهـذا النـص -رغـم عـدم تحديـد تاريخـه- يرجـع إلى نهايـة القـرن الثامـن،

(١) هذا المصطلح يقصد به بلاو (كما جاء في الهامش رقم ٥ من p. 3) كلّ اللهجات العربية الحديثة، ولا يجب أن يكون المراد به اللغة الأدبية العربية الحديثة، وهي إحياء فني للعربية الفصحى انظر

Blau, J.1981: p. 187.

(2) Blau, J.1981: p. 3.

(3) Blau, J, 1981: p. 4.

(4) Ibid.,p. 4.

وقـد كتـب باللغتـين العربيـة واليونانيـة، وعُـثر عليـه في المسـجد الأمـوي في دمشـق. والمهـم مـن هـذا النـص، أنَّ بـلاو يشـير إلى أنَّ الجـزء العـربي منـه يبـيّن غيـاب النهايـات الإعرابيـة، ولغتـه تعكـس البنيـة اللغويـة الـتي نعرفهـا مـن النصـوص المتأخـرة[1]. ويسـتخلص بـلاو مـن هـذا كلِّـه حقيقـة ظهـور العربيـة الوسـيطة في المـدن أثنـاء الفتوحـات العظمـى وبعدهـا، وذلـك بتحليـل لغـوي للبرديـة المبكـرة، وأيضًـا النصـوص العربيـة المسـيحية الـتي قـد ترجـع إلى القـرن الثامـن الميـلادي[2].

ويبـدو أنَّ العربيـة الوسـيطة انتشـرت مـن الطبقـات الدنيـا إلى الطبقـات العليـا داخـل المجتمـع الحضري/المـدني في فـترة قصـيرة، ومنـذ بدايـة القـرن الثامـن الميـلادي بـدأ زحفهـا حـتى وصلـت إلى الوثائـق الرسـمية، مثـل: البرديـة (الـتي يشـير إليهـا)، وهـو مـا يوضـح لنـا أنَّهـا انتشـرت بـين فئـات المجتمـع حـتى الطبقـة الحاكمـة. ويشـير إلى أنَّ نسَّـاخ هـذه الوثائـق ربَّمـا كانـوا مـن السـكان الأصليـين، أو ينتمـون إلى الطبقـات العليـات مـن المجتمـع، وهـي الطبقـات الـتي كانـت تحـاول تقليـد أسـلوب كتابـة الفاتحـين وخطاباتهـم؛ ولهـذا- حسـب زعمـه- كان الاسـتخدام اللغـوي لهـذه الوثائـق يعكـس لنـا لغـة العـرب الحضريـين الذيـن تولـوا مناصـب إداريـة، وهـذه النتيجـة يؤكدهـا بـلاو مـن الحديـث الأدبي المبكـر، فقـد نجـد فيـه انحرافًـا عـن اللغـة العربيـة الكلاسـيكية، وتأثـير السـكان المدنيـين في الفاتحـين العـرب الذيـن يعيشـون في المـدن، وهـذا يبـدو ممكنًـا، وبخاصـة بعـد احتـكاك الطرفـين في معسـكرات حربيـة واحـدة[3].

ويعـرض تصـوره لتطـور العربيـة، مشـيرًا إلى أنَّ اللهجـات العربيـة الوسـيطة الحضريـة نشـأت بدايـة مـع العصـر الإسـلامي، وحافظـت لهجـات البـدو في البدايـة علـى الملامـح الرئيسـة غـير المتغـيرة، فكثـير مـن لهجـات البـدو كانـت في الحقيقـة متأثـرة بالهجـرات الـتي نتجـت عـن قبائـل متباينـة في الاحتـكاك مـع الآخـر، وأحيانًـا صنعـت نمـاذج مختلطـة،

(1) Blau, J, 1981: p. 5.
(2) Ibid.,p. 6.
(3) Ibid., p. 7.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وحافظـت هـذه اللهجـات البدويـة علـى بنيـة كانـت علـى العمـوم بنيـة تأليفيـة، ومـن هنـا ظلـت قريبـة مـن العربيـة الفصـحى، ومقابـلًا للهجـات الحضريـة التحليليـة[1].

الخلاصـة -كمـا يراهـا بـلاو- أنَّ الواقـع اللغـوي بعـد الفتوحـات الإسـلامية ظهـر فيـه انقسـام واضـح بـين اللهجـات الحضريـة (العاميـة التحليليـة) مـن جانـب والعربيـة الفصـحى التأليفيـة ولهجـات البـدو مـن جانـب آخـر. وهـذا الانقسـام معكـوس في الروايـات الـتي -غالبـا- يشـك فيهـا الباحثـون؛ لأنَّ هـذه القصـص تصـف البـدو بكونهـم حقيقـة نموذجيـة للعربيـة الأصيلـة (Authentic Arabic)، فلهجـات البـدو نوعيًّـا قريبـة مـن العربيـة الفصـحى، تتضـاد مـع عاميـة الحضريـين الذيـن يتكلمـون العاميـة العربيـة الوسـيطة، كوجـود نـوع مـن العربيـة الفصـحى، حيـث يحافـظ علـى حالـة الإعـراب، وهـي السـمة الخارجيـة البـارزة للعربيـة الفصـحى، فهـم عدُّوهـا مقابـلًا للهجـات العربيـة الوسـيطة التحليليـة (Analytical Middle Arabic Dialects)، فهـي مختلفـة عنهـا[2].

ويلفـت بـلاو نظرنـا إلى أننـا بواسـطة ديـوان هذيـل نعـرف أنَّ المـواد الشـعرية العربيـة القديمـة كانـت معروفـة عنـد البـدو، ليـس المظهـر العشـائري للهجـات البـدو والعربيـة الفصـحى فحسـب؛ بـل الأسـباب الاجتماعيـة أيضًـا، فظـروف حيـاة البـدو كـشيء مميـز عـن سـكان المـدن لـم تتغـير، فهـي مسـتمرة مـن قبـل الإسـلام، لتشـكل الخلفيـة الطبيعيـة، ليمجـد شـعر البـدو مثاليـات المجتمـع البـدوي[3]. ويذكـر أنَّ هنـاك نقطـة مهمة أخـرى، وهـي أنَّ الـرواة (البـدو) الذيـن يـروون اللغـة للمـدارس اللغويـة (البصـرة والكوفـة) كان معظمهـم مـن الـرواة المشـهورين، ورواة الشـعر هـؤلاء كانـوا خـبراء في الشـعر العـربي الكلاسـيكي، وكان مـا يروونـه المـادة الـتي اسـتعملت كاستشـهادات (Authorities) للاسـتعمال الفصيـح. وبإيجـاز، بـلاو لا يتشـكك في الحقيقـة التاريخيـة للقصـص الـتي هـي عمـل رواة كوسـائط

(1) Blau, J, 1981: p. 8.
(2) Ibid., p. 8.
(3) Blau, J, 1981: p. 9.

لغويين. ويذكر أنَّ هناك قصصًا أخرى تثبت أنَّ كلَّ بدوي يُرَى ثقة في لغته، وليس معرضًا للخطأ في اللغة[1].

إذا كان بلاو يقرر أنَّ اللغة العربية القديمة استمرت بعد الإسلام لغة حية، ولهجات البدو كانت من النوع التأليفي نفسه الموجود في العربية القديمة، فمتى بدأت العربية المولدة؟ كنت سابقًا أشرت إلى بعض آرائه في العربية المولدة، وفي السطور التالية شرح لتصوره تجاهها. ويشير الرأي التقليدي- حسب ما يقول بلاو- إلى أنَّ اللحن في اللغة العربية الفصحى (بداية العربية المولدة) ظهر في المدن، وتحديدًا في الإمبراطورية الإسلامية الجديدة نتيجة للاحتكاك اللغوي مع السكان المدنيين غير العرب، في حين كانت لغة المدن قد فسدت، فإنَّ البدو قد حرصوا على حفظ لغتهم من اللحن، واستمروا في التحدث باللغة النقية (Pure) مثلما كانوا يفعلون في أيام الجاهلية[2]. ويرى أنَّ هذا التصور يوضح أنَّ البدو تكلموا لهجات مختلفة باختلاف استعمال اللغة الشعرية النموذجية في الكلام اليومي، وحسب قوله، فإنَّ هناك لغة بدوية مشتركة انتشرت في معسكرات الجيوش بعد (وأثناء) الفتوحات الإسلامية الكبرى، وشكّلت العربية الكلاسيكية/الفصحى المتأخرة. هذه النظرية- في تصور بلاو- تتناقض مع الاتجاه العام للتطوّر اللغوي والروايات الواضحة للمصادر، ووفقًا لها فإن في كلِّ إقليم توجد لهجة القبيلة التي استقرت فيها، ويكون متفقًا عليها[3].

هذا الرأي الذي يرى أنَّ العربية المولدة ظهرت مع الفتوحات الإسلامية متفق إلى حد كبير مع الرأي العربي التقليدي، ففيه - حسب بلاو- ربط جهود اللغة العربية المولدة مع الفتوحات الكبيرة في المدن في الدولة الإسلامية في العصر الإسلامي الأوَّل، حيث التغيرات الاجتماعية والثقافية الكبيرة في المدن. هذا حدث في المدن، في حين استمر البدو في التعلق بلهجاتهم العربية

(1) Ibid.,p. 9. 9
(2) Ibid.,p. 38.
(3) Blau, J, 1981: p. 38.

القديمة لعدة قرون[1]. بسبب الانقسام الحاصل بين العربية المولدة الحضرية واللغة الشعرية النموذجية كان سكان الحضر يجدون صعوبات عندما يحاولون استخدام العربية الشعرية، في الوقت الذي كان كلُّ رجل بدوي عادي يتحدث لهجات من اللغة العربية القديمة مثلما كان في الجاهلية؛ وهذا الزعم عند بلاو يتبعه زعم آخر، وهو أنَّ هذا كان سهلًا نسبيًّا على البدوي[2].

ويدافع بلاو عن رأيه في مقابل من يزعمون أنَّ البدو كانوا يتكلمون لهجات مولدة في الحياة اليومية، فيقول: «لو أنَّ الشعراء البدو قد تحدثوا لهجات اللغة العربية المولدة لتركوا من آثارها في قصائدهم، وهذا لم يحدث، ولماذا تغيب ملامح التصويب الخاطئة (Pseudo – Correction) عن الشعر الجاهلي؛ فأي شخص يدّعي أنَّ القصائد مثل الأعمال النثرية كُيفت باللغة العربية الفصحى على أيدي اللغويين العرب القدامى، وهذا لا يمكن أن يُدّعى على القرآن فمنذ زمن كما نعرف -مثلًا من معالجة الهمزة- هذا النص أصبح مقدسًا منذ زمن مبكر؛ ولذلك لا يمكن أن يكون معالجًا من العلماء العرب القدامى»[3].

ونلاحظ هنا أنَّه يقدم حجة موثوقًا بها على وجود اللغة العربية، أخذها من القرآن الكريم، وهو كتاب مقدس لم يتغير ولم يقم بتغييره أي فرد، فكيف تكون العربية الفصحى مصنوعة من العلماء العرب؟ والعربية المولدة التي يسميها (Neo–Arabic)[4]

(1) Ibid.,p. 39.

(2) Ibid, p. 39.

(3) Blau, J, 1981: p. 40, and Blau, J.1969: p. 191 –192.

(٤) خصَّص بلاو مقالاً بعنوان: ظهور النوع اللغوي للعربية المولدة، وضح فيه بدايتها وسماتها، انظر: Blau, J.1969: p. 191 –201 وفي بحثه المترجم إلى العربية: العربية المولدة المبكرة في نصوص العربية الوسيطة، يرى أنَّ المصدر الأساسي لإعادة بناء العربية المولدة المبكرة يتمثَّل في النصوص التي ألفت في نموذج العربية الوسيطة، انظر: بلاو: العربية المولدة المبكرة، ص ٢٤٧ . ويشير في البحث نفسه إلى أنَّ أهم مصدر لمعرفة العربية المولدة هي لغة الأقليات الدينية في الدولة العربية، وهي العربية المسيحية والعربية اليهودية؛ لأنَّ المسيحيين واليهود لا يتقنون العربية إلّا بقدر محدود خلافًا لأبناء الوطن المسلمين، انظر p. ٢٤٨، وانظر توضيحات أكثر في p.٢٤٩ – ٢٦٣ .

ظهـرت -حسـب زعمـه- بعـد اختـلاط العـرب مـع غيرهـم مـن الأمـم الـتي فُتحـت علـى أيـدي المسـلمين، فمـا صفـات هـذا النـوع؟ هـل يختصـر الفـرق بينـه وبـين العربيـة القديمـة في الإعـراب فحسـب؟ يـرى بـلاو أنَّ الاختلافـات بـين العربيـة القديمـة والعربيـة المولـدة لا تقتصـر علـى النهايـات الإعرابيـة (Inflectional Endings) فحسـب، بـل إنَّ العربيـة المولـدة اخترقـت اللغـة القديمـة بعمـق؛ لأنَّ اللغويـين العـرب لا يمكنهـم أن يغيروهـا ببسـاطة. وقـد أراد المستشـرقان ف. فيشـر وياسـترو أن يثبتـا اختفـاء النهايـات الإعرابيـة في الجاهليـة، وافترضـا أنَّ اللهجـات العربيـة المولـدة قبـل الإسـلام كانـت علـى مسـتويات المفـردات والجمـل والنحـو، يقـول بـلاو: إنَّ هـذا الـرأي غـير مناسـب للأسـباب الواقعيـة والنظريـة، ففـي الحقيقـة، النصـوص العربيـة الوسـيطة المبكـرة تشـير -غالبًـا -إلى كلِّ ملامـح اللهجـات العربيـة، وهـذه هـي بدايـة العربيـة المولـدة الأولى، ولـم تكـن العربيـة القديمـة بـدون النهايـات الإعرابيـة[1]. ثـم يؤكـد بـلاو رأيـه بقولـه: حـتى لـو زُعـم أنَّ النهايـات الإعرابيـة اختفـت مـن لهجـات قبـل الإسـلام، فإنَّهـا تكـون بـدون تغـيرات أخـرى حادثـة، حـتى لـو لـم تكـن قـد حفظـت كمـا كانـت[2].

ويذكـر بـلاو أنَّ زويتلـر ذهـب بعيـدًا ليؤكـد أنَّ النهايـات الإعرابيـة في بدايـة الإسـلام كانـت محذوفـة مـن كلِّ الصيـغ العربيـة المتكلمـة لعـدة قـرون علـى الأقـل، وأنَّ الانتبـاه لحقيقـة أنَّ الإطـار العـروضي للشـعر العـربي يحتـاج إلى النهايـات الإعرابيـة كالشـعر الشـفهي، فـالأداء الشـعري يحتـاج إلى حفـظ الأصـوات والكلمـات والتراكيـب وكلّ الأنظمـة، وهـذا كان لفـترة طويلـة يسـتعمل في الـكلام النمـوذجي. يقـول بـلاو ردًا علـى زويتلـر: حـتى لـو احتاجـوا إلى النهايـات الإعرابيـة الـتي اختفـت مـن اللغـة المحكيـة للشـعراء، فلمـاذا لا يطبقـون ذلـك علـى صيـغ العربيـة المولـدة مـادام الـوزن يسـمح لهـم بالاسـتخدام؟ فمؤلفـو القصائـد الشـفوية أخـذوا باسـتخدام لغتهـم الـتي ينطقونهـا، ولـم يكـن لديهـم أسـباب عروضيـة لاسـتخدام

(1) Blau, J.1986: p. 40.
(2) Ibid.,p. 40.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

شـكل مختلـف، فلمـاذا لـم يسـتمروا في إضافـة صائـت مـادام الإطـار العـروضي يتطلـب ذلك؟ لمـاذا اسـتطاعوا أن ينجحـوا في إضافـة الصائـت المحتـاج إليـه في المطابقـة التامـة مـع أي نظـام نحـوي؟[1] ليصـل بـلاو إلى زعمـه القائـل: إنَّ الافـتراض الأمثـل أنَّ اللهجـات الـتي تحـدث بهـا الشـعراء القدمـاء كانـت متماثلـة نوعيًّـا/ نمطيًّـا مـع اللغـة الشـعرية النموذجيـة المعربـة[2].

ويعطـي بـلاو براهـين ورؤى مهمـة في ردِّه علـى رؤيـة زويتلـر، سـوف أحللهـا في الفصـل الآتي مـن هـذا البحـث.

ثانيًا: القرآن ولغة مكة، وهل توجد ازدواجية لغوية قبل الإسلام؟:

(يصـف بـلاو فرضيـة فولـرز ١٩٠٦) الـتي أحياهـا بـول كالـه- وقـد سـبق عرضهمـا في موضـع سـابق مـن هـذا البحـث -بأنَّهـا فرضيـة متطرفـة[3]، وهـي الـتي يزعـم فيهـا أنَّ القـرآن كان مؤلفًـا باللغـة العربيـة المولـدة، وأعيـد صياغتـه بالفصـحى فيمـا بعـد، ويذكـر بـلاو أنَّ كلًا مـن نولدكـه وبروكلمـان وغيرهمـا برهنـوا بشـكل واضـح علـى أنَّ نـص القـرآن المجـرد مـن الصوائـت يبرهـن مـن جهـة أولى علـى وجـود الإعـراب، وأنَّ حـالات الشـذوذ في كتابـة النـص المجـرد مـن الصوائـت تبـيّن مـن جهـة ثانيـة أنَّ هـذا النـص لـم يتعـرض لأي تغيـير[4]. ويناقـش بـلاو نظريتـين مـن النظريـات القائمـة حـول لغـة القـرآن الكريـم، وهمـا:

النظريـة الـتي تفـترض أنَّ اللغـة المحكيـة في مكـة كانـت تختلـف نوعيًّـا/ نمطيًّـا عـن العربيـة النموذجيـة الـتي كتـب بهـا القـرآن، وهـو مـا يعـني أنَّ الوضـع اللغـوي في مكـة قبـل الإسـلام كان يتصـف بالازدواجيـة اللغويـة (Diglossia)، بمعـنى وجـود العربيـة الأدبيـة القديمـة، مقابـل العربيـة المولـدة المحكيـة.

النظريـة الثانيـة أنَّ عاميـة مكـة لغـة أدبيـة تنسـب إلى نـوع اللغـة العربيـة القديمـة[5].

(1) Ibid,.p. 41.
(2) Blau, J.1986: p. 4.
(3) Blau, J.1977: p. 14.
(4) Ibid.,p. 15. . العربية، ص 205 والترجمة
(5) Blau, J.1977: p.15. 205 والترجمة العربية، ص

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وبعدما يشير إلى أنَّه سوف يناقش هاتين النظريتين فحسب، يقول: إنَّه من غير المقصود أن يكون الشعراء الذين يتكلمون العربية الجديدة/المولدة ولا يعرفون نحو العربية النموذجية قادرين على نظم الشعر العربي النموذجي من غير أن تظهر فيه الخصائص التي تنسب إلى العربية المولدة، أو أن يكون هذا الشعر خاليًا من العناصر الخاطئة[1]. ويذكر أيضًا أنَّ خلو القرآن خلوًّا تامًّا من خصائص العربية المولدة، أو الغياب الكامل لملامح النمط العربي المولد، والتصحيحات الخاطئة (Pseudo – Correct Elements) يكشف- حسب زعمه- عن وضع لغوي لا يمكن أن تكون فيه الفوارق بين اللغة الأدبية واللغة المحكية كبيرة[2]، فلو لم تكن عامية مكة قبل الإسلام تتصل بالبنية اللغوية القديمة لعثرنا في القرآن على حالات كثيرة من الانحرافات (Deviations) عن العربية النموذجية، مثل تلك الانحرافات التي نجدها في الواقع في بعض القراءات القرآنية. ويقرر بلاو أنَّه لا يرى أنَّ القرآن الكريم قد خضع للتغيير من أجل أن ينسجم مع العربية النموذجية) كما تزعم فرضية فولرز)؛ ويعلّل بلاو ذلك بأنَّ نص القرآن أصبح ذا منزلة مقدسة جدًّا منذ وقت مبكر جدًّا، وهذا يتبيّن ممَّا حدث حين احتيج إلى إضافة رمز الهمزة بدلًا من تغيير النص المقدس، ويضيف سببًا آخر، وهو المحافظة على بعض حالات الشذوذ عن العربية النموذجية المألوفة فيه[3]. فالقرآن – حسب زعم بلاو- يصور لغة مكة؛ وزعمه هذا مبني على أنَّ نص القرآن لم يتعرَّض للتغيير/التنقيح اللغوي، لكنه يكشف عن بعض الخصائص التي تتصف بها مكة، مثل: تقصير الكسرة الطويلة في نهاية الكلمة[4].

(1) Ibid., p. 15. والترجمة العربية، ص 206-207
(2) Ibid.,p. 15. والترجمة العربية، ص 206-207
(3) Blau, J.1977: p. 15. 207 والترجمة العربية، ص.
(4) Ibid.,p. 15. . 207 والترجمة العربية، ص

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وينتقـل بعـد ذلـك إلى مناقشـة الـرأي الـذي يزعـم أنَّ الازدواجيـة اللغويـة كانـت عنـد العـرب قبـل الإسـلام، ليقـرر أنَّـه لا يوافـق علـى هـذا الـرأي، زاعمـاً أنَّـه مـن المسـلم بـه أنَّ الشـعراء الجاهليـين، وكذلـك محمـد ﷺ، كانـوا يتكلمـون لهجـات تنتمـي إلى النمـط اللغـوي المميـز للعربيـة القديمـة، وأنَّ هـذه اللهجـات لا تختلـف اختلافًـا كبيـرًا عـن اللغـة الأدبيـة الـتي كانـوا يسـتعملونها، فيجـب أن يـؤول غيـاب الانحرافـات اللغويـة باتجـاه العربيـة المولـدة الـذي يـكاد يكـون كامـلًا، وكذلـك غيـاب التصحيحـات الزائفـة، وهمـا الظاهرتـان اللتـان توجـدان بأوضـح صـورة في النصـوص المتأخـرة؛ لأنَّهمـا برهانـان واضحـان علـى أنَّ الازدواجيـة اللغويـة لـم تكـن موجـودة قبـل الإسـلام عنـد القبائـل الـتي سـاهمت في الثقافـة الأدبيـة العربيـة علـى الأقـل؛ لأن الاختلافـات بـين اللغـة المحكيـة واللغـة الأدبيـة لـم تكـن تتجـاوز الحـدود المألوفـة[1]. ويـرى أنَّ مـن المؤكـد أنَّ اللغـة النموذجيـة كانـت منـذ أقـدم الفـترات الـتي رُوي لنـا شيء منهـا -أي: أواخـر القـرن الثالـث الميـلادي- لغـة عامـة للعـرب/لغـة فـوق اللغـة القبليـة (Super Tribal Language)، ومـع هـذا فقـد كانـت اللغـات المحكيـة قريبـة الصـورة منهـا[2].

ويعـرض بـلاو تاريـخ ظاهـرة الازدواجيـة اللغويـة وأسـبابها، ويؤكـد إنَّهـا نشـأت نتيجـة للفتوحـات العربيـة الكـبرى، وأن التغـيّر الحاسـم بـدأ في حقبـة الفتوحـات في القـرن الأوّل الهجـري/ السـابع الميـلادي، وقـد مثلـت التغـيرات العميقـة في الأوضـاع الاجتماعيـة، ومـن بينهـا التواصـل الوثيـق بالأمـم المغلوبـة، فالأسـباب الخارجيـة هـي الـتي أدت إلى نشـأة النمـط اللغـوي العـربي المولـد[3]. أمَّـا الأسـباب الداخليـة فهـي- حسـب زعـم بـلاو- الـتي مهـدت للبنيـة اللغويـة للعربيـة المولـدة، فقـد كانـت تتمثّـل في صيـغ الوقـف الـتي كانـت موجـودة مـن قبـل، إضافـة إلى بعـض الخصائـص الأخـرى.

ويذكـر أمثلـة لهـذه الخصائـص الأخـرى، ومنهـا: تسـهيل الهمـز وحذفـه في لهجـة الحجـاز، وإحـلال النصـب محـل النصـب والجر(يـن) بـدلًا مـن حالـة الرفـع (ون) في جمـع المذكـر السـالم

(1) Ibid., p. 16.
(2) Ibid.,p. 16.
(3) Blau, J.1977: p . 16.

في مكة[1]. ويرى أنَّ النصوص العربية المسيحية المكتوبة باللغة العربية الوسيطة تشير إلى وجود العربية المولدة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، -بل إنَّه يمكن رجعها أحيانًا إلى الوراء حتى سنة ٨٧هـ-، ويظهر ذلك من البرديات المبكرة التي كانت تتضمن -في الغالب- بعض الوثائق الرسمية التي كُتبت بعد استخدام العربية لغة للإدارة[2].

ويقرر بلاو أنَّ هذه البرديات كتبت عمومًا باللغة العربية النموذجية مع وجود عدد قليل من العناصر العربية ذات النمط المولد، ومع ذلك فإنَّ وجود بعض الانحرافات القليلة فيها يكفي للبرهنة على أنَّ الخصائص الرئيسة للهجات العربية كانت موجودة في بداية القرن الثاني الهجري، فهناك ما يدل على أنَّ الصوائت القصيرة في المقاطع المفتوحة كانت عرضة للحذف، وأنَّه لم يَعُد يميزبين الضاد والظاء، والإعراب قد أخذ في الاختفاء، ونظام الأعداد قد تغير بشكل كامل[3].

ويكمل كلامه قائلًا: ولذلك فيمكن النظر إلى أن وجود النمط اللغوي المولد في بداية القرن الثاني الهجري أمر مسلم استنادًا إلى هذه البراهين. وبما أنَّه قد تبيّن -فيما يعتقد بلاو- عدم صحة الزعم القائل بوجود العربية ذات النمط اللغوي المولد قبل الإسلام، فلابدَّ أنَّ الفتوحات العربية الكبرى هي التي ساعدت على تغير اللهجات العربية القديمة إلى النمط اللغوي المولد[4]. وهكذا يخلص بلاو إلى الآتي:

عربية مكة التي كانت وقت نزول القرآن عربية من النمط القديم، أي: قريبة من العربية المعربة.

الازدواجية اللغوية لم تكن موجودة قبل الإسلام، ووجدت بفعل التغيرات الاجتماعية والجغرافية والثقافية التي جاءت إبّان الفتوحات الإسلامية، حيث احتك العرب بغيرهم من الشعوب التي خضعت لهم.

(1) Ibid.,p. 16,Note,80.
(2) Ibid.,p. 17. والترجمة العربية، ص 210.
(3) Blau, J.1977: p . 17.
(4) Ibid.,p. 17.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يقسـم أسـباب نشـأة الازدواجيـة اللغويـة إلى خارجيـة وداخليـة، وقـد انتهـى في بحـث لـه بعنـوان: (الجاهليـة وانبثـاق النـوع اللغـوي العـربي الجديـد)، إلى أنَّـه لا توجـد دلائـل علـى ظهـور العربيـة المولـدة في الجاهليـة، ويؤكـد أن العربيـة المولـدة قـد ظهـرت في المـدن في الإمبراطوريـة العربيـة كتتابـع لغـوي للفتوحـات العربيـة الكـبرى، ويتسـاءل: لمـاذا لا يـرى آثـارًا للعربيـة المولـدة في عربيـة الجاهليـة[1]؟

ثالثًا: رد جوشوا بلاو على فرضية المستشرق الإسباني فردريك كورينتي

تتضـح رؤيـة بـلاو في العربيـة وتاريخهـا مـن المسـاجلة الـتي حدثـت بينـه وبـين كورينـتي عقـب كتابـة كورينـتي بحثـه ١٩٧١م، فقـد عقـب عليـه بـلاو، ثـم عقـب كورينـتي علـى بـلاو ببحثـه ١٩٧٣، وحـاول كلٌّ منهمـا أن يثبـت فرضيتـه. وسـأعرض في الصفحـات التاليـة تصـور كورينـتي مصحوبًـا بـردود بـلاو.

وجـه كورينـتي في بحثـه الأوَّل (١٩٧١)- وهـو بعنـوان ترجمتـه: «في قضيـة الحمـل الوظيفي لبعـض الوسـائل التأليفيـة في الصـرف العـربي والسـامي» - جـلَّ اهتمامـه إلى مسـألتين هما:

أهميـة الإعـراب بوصفـه وسـيلة تأليفيـة (Synthetic) وظيفيـة في اللغـة العربيـة الأدبيـة المتأخـرة (الـتي كانـت معربـة).

الـدور الـذي لعبتـه الحـركات الإعرابيـة في تاريـخ اللغـات السـامية عمومًـا، إن كان لهـا مثـل هـذا الدور أساسًـا.

يـرى كورينـتي في بحثـه هـذا أنَّـه يمكـن التسـليم بـأنَّ علامـات الإعـراب الـتي تلحـق الأفعـال والأسـماء والصفـات كانـت مسـتعملة في الشـعر القديـم والقـرآن، وأنَّهـا غابـت كليَّـةً الآن

(1) Blau, J.1986: p. 43.

ومنـذ قـرون عديـدة مـن العربيـة الوسـيطة والعربيـة المحكيـة كلِّهـا[١]. ويشـير إلى أنَّ هـذا مـا يجعلـه يقـول: إنَّ هـذا مـا يمنعنـا مـن رجـع النمطـين إلى طوريـن متتابعـين في تاريـخ العربيـة الواحـدة[٢]. ثـم يعـرض فكـرة الحمـل الوظيفـي (Functional Yield) ويـرى أنَّـه يمكـن بواسـطتها حـل هـذه القضيـة[٣]. ولتطبيـق هـذه الفكـرة قـام بجمـع نصـوص شـعرية ونثريـة عربيـة مـن فـترات متعـددة، وطبَّـق فكـرة الحمـل الوظيفـي علـى كلِّ علامـة إعـراب، وطبقهـا علـى التقابـلات الصرفيـة التركيبيـة (Morphosyntactical Oppositions) ، وقـام باختبـار التبـادل، ليتضـح إن كان يمكـن أو لا يمكـن أن يكـون اسـتعمال تلـك العلامـات لازمًـا لضمـان محتواهـا المنطقـي واسـتقامته[٤].

ويصـل كورينـتي- حسـب زعمـه- بعـد هـذا الاختبـار إلى مـا يؤيـد انطباعـه، وهـو أنَّ علامـات الإعـراب الأحـدث ليـس لهـا إلَّا حمـل وظيفـي ضئيـل؛ لأنَّـه يمكـن تحديـد المعـنى الدقيـق للقـول المعـين دائمًـا دون اللجـوء إلى علامـات الإعـراب، وذلـك- حسـب زعمـه- مـن الإشـارة إلى بعـض الخصائـص التحليليـة، مثـل: ترتيـب الكلمـات، وغـير ذلـك[٥]. ويؤكـد زعمـه أيضًـا قائـلًا : يجـب أن تـنزل علامـات الإعـراب منزلـة ثانويـة بـدلًا مـن مقارنتهـا بالعلامـات التصريفيـة الاسـمية والفعليـة في الأسـرة اللغويـة الهنديـة - الأوروبيـة؛ لأن اللغـة العربيـة يمكـن أن تـؤدي -في أحيـان كثـيرة- وظيفتهـا بكفـاءة أكـبر مـن غيرهـا، وهـي الحـال الـتي نجدهـا -أحيانًـا- في العربيـة القديمـة، أو بصـورة دائمـة، كمـا هـي الحـال فيمـا نسـميه باللغـة العربيـة الوسـيطة[٦]. ويـرى كورينـتي -أيضًـا- أنَّ اختفـاء الإعـراب كان حتميًّـا بسـبب كـون حملهـا الوظيفـي = فائدتهـا الوظيفيـة غـير مهمـة، فلـم نعـد نتعامـل إلَّا مـع مجموعـة مـن الوحـدات الصرفيـة الثانويـة في أحسـن الأحـوال أو في أسـوئها، مـع مجـرد

(1) Corriente, F.1971: p. 20 – 22.
(2) Corriente, F.1971: p. 22 – 23.
(3) Ibid., p. 34.
(4) Ibid., p. 34.
(5) Ibid., p. 25.
(6) Ibid., p. 40- 45.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أصـداء مـن المـاضي ليسـت مهمـة لغويًـا، أي: مـع نظـام ميـت، وهـو نظـام لا تفاجئنـا كثيـرًا قدرتـه علـى الاسـتمرار الظاهـري في مؤسسـة اجتماعيـة محافظـة كمـا هـي الحـال في اللغـة غالبًـا[1]، ثـم يلفـت النظـر إلى عـدد مـن اللغـات السـامية الـتي انتهـت بإجمـاع مذهـل إلى حـذف كثـير مـن الأنظمـة القديمـة للصرفيـات التأليفيـة، أو إنقـاص حملهـا الوظيفـي إلى مسـتويات غـير مهمـة، وهـو مـا أدى إلى النتيجـة نفسـها[2].

ويشـير كورينـتي إلى أنَّنـا يجـب أن ننظـر إلى الزيـادة في أنظمـة الإعـراب السـامية -وبخاصـة نظـام العربيـة- بعـين ناقـدة أكـثر ممـا فعـل بـلاو، في ضـوء وجـود حـالات كثـيرة مـن حـالات الإعـراب الـتي لا ضـرورة لهـا، وأن يُنظـر إلى التطـور البنيـوي والنمطـي مـن العربيـة القديمـة إلى العربيـة الوسـيطة علـى أنَّـه أقـل لفتًـا للنظـر، علـى الرغـم مـن الحـالات الكثـيرة مـن الترتيـب الحـر للكلمـات، وهـو مـا يتوافـق تمامًـا مـع الانخفـاض الضئيـل للنسـبة الدقيقـة للحمـل الوظيفـي الملحـوظ بـين هذيـن النمطـين للغـة العربيـة[3]. ويكمـل كورينـتي زعمـه قائـلًا: إنَّـه إذا نظرنـا في القيمـة اللغويـة الحقيقيـة لعلامـات الإعـراب في العربيـة، ثـم قدّرنـا أنَّ أكـثر حـالات الترتيـب الحـر للكلمـات إنَّمـا تصحـب بظهـور ضمائـر عائـدة، فإنَّـه لا يبقـى إلَّا القليـل في العربيـة القديمـة ممَّـا يوجـب الاعتقـاد السـائد أنَّ هـذه اللغـة أكـثر اتصافًـا بالنمـط التأليفي عن العربية الوسيطة[4].

ثـم ينتقـل إلى قضيـة أخـرى، وهـي تزامـن اللهجـات المعربـة وغـير المعربـة، فيزعـم أنَّ هنـاك تزامنًـا بينهمـا طـوال فـترة تمتـد إلى الـوراء حـتى القـرن السـابع الميـلادي، وربَّمـا إلى القـرن السـادس علـى الأقـل، وأحيانًـا أقـدم مـن ذلـك، أمَّـا صلتهمـا ببعـض فـيرى كورينـتي أنَّهـا صلـة نسـبية، ولا يمكـن الهـروب مـن النتيجـة الـتي تلـزم عنهـا، وهـي أنَّ العربيـة كانـت في الأصـل معربـة، وأنَّ هـذا كان نتيجـة للانفصـال اللهجي الـذي تطـورت بعـده بعـض اللهجـات

(1) Corriente, F.1971: p. 32.
(2) Ibid., p. 43.
(3) Corriente, F.1973: p.160161-.
(4) Ibid.,p. 161.

بصورة سريعة وبعضها بصورة أبطأ[1]. ويلفت كورينتي النظر إلى ضآلة الحمل الوظيفي لعلامات الإعراب (Negligible Functional yield of the Irabdevices) ، وأنَّها وفَّرت الإطار البنيوي نفسه الذي يسمح بالتفاهم المشترك(Mutual intelligibility) لكلٍّ من النوعين اللهجيين، إضافة إلى تكافؤ الصيغ المعربة وغير المعربة ضمن المادة اللغوية نفسها[2].

ويرى أنَّه ربَّما تولّد من أي واحد من هذين النمطين اللهجيين لهجة معينة تحمل معظم الخصائص التي أصبحت تميز اللغة العربية المشتركة، ومن ثمَّ العربية واللغة المكتوبة عند العرب، فيما صارت اللهجة الأخرى التي كانت تجاورها اللغة العربية المحكية في العصور المتأخرة[3]. ويرى أنَّ الافتراض أنَّ العربية أو شكلاً آخر من أشكال العربية المعربة شبيهًا لها كان يستخدم في تلك الفترة نفسها بصورة طبيعية لغةً محكية عند أية مجموعة أو مجموعات (ويشمل ذلك البدو)، وأنَّه يمكن أن يكون الإعراب نفسه قد بقي في بعض أشكال اللغة العربية المحكية حتى العصر العباسي، بوصفه مجرد مميز للأسلوب الذي تستعمله الطبقة العليا أو الطبقة البدوية الأرستقراطية[4].

ويعترض بلاو على مزاعم كورينتي، وخصص بحثه (١٩٧٢) للرد عليه ، وركز على ست نقاط، في النقطة الأولى يشير بلاو إلى أنَّ كورينتي يستخدم مصطلح تحليلي (Analytical) استخدامًا غريبًا وشاذًّا، وأنَّ ترتيب الكلمات وحده الذي يحدد وظائف المكونات في جملة ما، ليس تأليفيًّا ولا تحليليًّا[5]، ويقول: ويمكن للإنسان أن يعترف أنَّ اللغات التحليلية تكشف بوضوح عن توجه واضح نحو التمييز بين الفاعل والمفعول عن طريق الترتيب الثابت للكلمات، ومع ذلك يقول بلاو: فإنَّ التلازم بين النمط اللغوي

(1) Corriente, F.1973: p. 157.
(2) Ibid., p. 158.
(3) Ibid.,p. 158.
(4) Corriente, F.1971: p. 39.
(5) Blau, J.1972: p. 29 – 30.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

التحليلي والترتيب الثابت للكلمات ليس أمرًا لازمًا بأي حال[1]. ويعترض على كورينتي في مساواته السطحية بين البنية اللغوية التحليلية والترتيب الثابت للكلمات، ليخلص بلاو إلى أنَّ «الترتيب الأكثر حرية للكلمات في العربية يبيّن بوضوح وجود بنية مختلفة عن بنية العربية الوسيطة واللهجات الحديثة»[2]. وينتقد تعامل كورينتي مع قضية الحمل الوظيفي لتحديد الحمل الوظيفي لعلامات الإعراب في اللغات المختلفة، وأشار إلى عدد من الحالات التي حذفت من الإحصاءات التي قام بها كورينتي؛ لأنَّ بعض حالات التبادل ممكنة، لكنَّه إمَّا أن «ينشأ عنها جملة صحيحة نحويًّا، وإن كانت من حيث المعنى غير ملائمة للسياق، أو أن ينشأ عنها تركيب مختلف، لكنَّه يكاد يتماثل من حيث المعنى مع التركيب الأول»[3].

ويفصل بلاو الموضوع أكثر في بحثه المنشور في (١٩٧٧)، ويتعرّض لبعض القضايا المهمة، ومنها رأيه فيمن يزعم زيادة الإعراب في العربية، وأهمية الإعراب فيها. أما بالنسبة لزيادة الإعراب (The Redundancy of Case Ending)، فالحقيقة أنَّ هناك عددًا من الباحثين في السنين الأخيرة قد لفتوا الأنظار إلى حقيقةٍ مفادها اتصاف نظام الإعراب في العربية النموذجية بقدر عالٍ من الحشو، ومن هؤلاء كورينتي والمستشرق أمبروز، فما رأي بلاو؟

خلص أمبروز إلى أنَّه يمكن لنا أن نفترض – مع بعض التحفظات الضرورية – أنَّ نظام الإعراب في نثر العربية النموذجية قد وصل بصورة ضمنية في وقت مبكر إلى الطور الذي نجده بصورة ظاهرة في اللهجات العربية الحديثة[4].

---

(1) Ibid., p. 30.
(2) Ibid., p. 36.
(3) Blau, J.1972: p. 36.
(4) Blau, J.1977: p. 4 – 5. 190-189 والترجمة العربية ص

ويذهـب كورينـتي إلى درجـة أبعـد مـن ذلـك، فهـو يفـترض أنَّ اللهجـات المعربـة وغـير المعربـة كانـت متزامنـة في إطـار بنيـوي واحـد قبـل ظهـور الإسـلام؛ لـذا لـم يكـن الإعـراب مهمًّـا جـدًّا «إلَّا لمكانتـه البلاغيـة وقيمتـه الاجتماعيـة»، ويرجـع ذلـك إلى مـا يقـرره مـن أنَّ حملـه الوظيفـي كان يقـترب مـن الصفـر؛ لأنَّـه لـم يعـد حائـلًا دون الفهـم المتبـادل بـين هذيـن النوعـين مـن اللهجـات[1].

ويعـرض بـلاو هـذه الرؤيـة ويزيدهـا وضوحًـا بقولـه: إنَّ كورينـتي يـرى أنَّ الحجـاز وسـوريا وجنـوب العـراق كانـت المناطـق الـتي بـدأت تختفـي فيهـا علامـات الإعـراب قبـل الإسـلام، فقـد أصبحـت هـذه العلامـات ذات حمـل وظيفـي ضئيـل، وهـو مـا أدى إلى نشـوء العربيـة ذات النمـط المولـد، ثـم جعـل طرقهـا التحليليـة الأكـثر كفاءة تبـدأ موجـة موجـودة بانتحـاء كان يعمـل في المواضـع الضعيفـة مـن البنيـة اللغويـة السـامية، اسـتطاعت أن تصـل بالتـدرج إلى اختفـاء الإعـراب بصـورة كاملـة مـن اللهجـات العربيـة عنـد نهايـة القـرن التاسـع الميـلادي، وقـد حـدث ذلـك مـن غـير أن يكـون نتيجـة لأثـر اللغـات المحليـة غـير العربيـة في تلـك المناطـق[2]. ويذكـر بلاو أنَّ أكـثر الآراء تطرفًـا هـو رأي داود عبـده (في كتابـه: أبحـاث في اللغـة العربيـة، ص ١٢٢- ١٢٩)؛ إذ خلـص فيـه إلى أنَّ علامـات الإعـراب لا تـؤدي أيَّـة وظيفـة مهمـة، وأنَّهـا كانـت حشـوًا، وأنَّ هـذه الحـركات الإعرابيـة كانـت جـزءًا لا يتجـزأ مـن الكلمـة[3]. ولمناقشـة هـذه الآراء يتسـاءل بـلاو في البدايـة: هـل ترتيـب الكلمـات داخـل الجملـة ملمـح تحليلـي (Analytical Feature) ؟ يقـول بـلاو :إنَّ كلًا مـن أمـبروز في بحثـه ١٩٧٢ وكورينـتي في بحثـه (1971, p. 31, p. 38) قـد عـدَّا ترتيـب الكلمـات ملمحًـا تحليليًّـا يميـز العربيـة النموذجيـة، وربَّمـا أمكـن التسـليم بـأنَّ اللغـات التحليليـة تتصـف بميلهـا الواضـح إلى التمييـز بـين الفاعـل والمفعـول المباشـر -مثـلًا- عـن طريـق الترتيـب الثابـت للكلمـات، ومـع ذلـك، فـإنَّ التـلازم بـين الأنمـاط اللغويـة التحليليـة الـتي يُعلَـم المفعـول المباشـر بكلمـات صرفيـة (Morph-words) «كمـا تفعـل العربيـة مثـلًا»

(1) Ibid.,p. 5.الترجمة العربية، ص 190 الترجمة.
(2) Blau, J.1977: p. 5.190 الترجمة العربية، ص
(3) Ibid.,p. 5. 191 الترجمة العربية، ص

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

على ترتيب حر للكلمات، وتبعًا لذلك، فإنَّ وجود ترتيب مفصل للكلمات في العربية النموذجية لا يبرهن إطلاقًا على طبيعتها التحليلية[١].

ويقرر بلاو أنَّ العربية النموذجية ليست أقل اتصافًا بسمة التأليفية، ولو لم يكن لذلك سبب إلَّا زيادة نظام الإعراب فيه فيجب ألَّا نبالغ في أهمية ظاهرة الزيادة، لأنها - حسب زعم بلاو- جزء متمم / مكمل (Integral Part) في كلِّ نظام لغوي؛ لذلك يجب ألَّا ينظر إلى مثل هذه الزيادة على أنَّها منظومة ثانوية، أو أنَّها لا تزيد عن كونها بقايا تاريخية[٢]، وتبعاً لذلك - كما يقرر بلاو- فإنَّ الحمل الوظيفي غير المهم لنظام الإعراب في العربية لا ينبئ عن أنَّ علامات الإعراب قد اختفت من البنية المجردة للغة المحكية. وأقل من ذلك أن يستخلص منه (تبعًا لداود عبده) أنَّ علامات الإعراب كانت في الأساس جزءًا من الكلمة، وأنَّها لم تتطور لتكون علامات إعراب إلَّا في زمن متأخر، فيبدو نظام الإعراب بصورة عامة في اللغات التي يسبق فيها الفعل توابعه -على الأقل- ملمحًا زائدًا إلى درجة كبيرة بصورة تلفت النظر[٣].

ثم يقرر أنَّ نسبة الحالات الإعرابية التي يمكن الاستغناء عنها وظيفيًّا في كل الكلام حتى الشعر الجاهلي تصل إلى ٩٠ ٪ تقريبًا، وأن الأنواع الأخرى تتفاوت بين ٩٧ ٪ و١٠٠ ٪. ويعلق على هذه النسبة التي أخرجها كورينتي بقوله: ومع ذلك فإنَّ الانطباع العام الذي نخرج به أنَّ إحصاءات كورينتي صحيحة من غير شك، وأنَّ كورينتي وصل إلى أنَّ علامات الإعراب في الروسية تصل فيها الزيادة إلى نسبة ٧١,٢٪، وليس هناك حمل وظيفي إلَّا لما نسبته ٢٨,٧ ٪ منها[٤].

---

(1) Ibid.,p. 5. 191. الترجمة العربية، ص.

(2) Blau, J.1977: p. 5 - 6.192-191 الترجمة العربية، ص

(3) Ibid., p. 5. 192 الترجمة العربية، ص

(4) Ibid.,p. 6. 192 الترجمة العربية، ص

ويصل بلاو من ذلك إلى أنَّ الزيادة تبدو مظهرًا مميزًا لأنظمة الإعراب في عدد كبير من اللغات، «وقد يكون فيها كلِّها»، وهذا يجعلنا نتردد في إضفاء أهمية خاصة عليها في العربية النموذجية، وإن كانت عالية جدًّا. وكما أسلفنا، فإنَّ الحمل الوظيفي لعلامات الإعراب غير مهم في اللغات السامية عمومًا[1]. أمَّا بخصوص القضية الأخرى، وهي عدم أهمية علامات الإعراب Irrelevance of Case) Endings) فيقول بلاو: يمكن القول فيما يخص اللغة الروسية إنَّ علامات الإعراب يمكن أن توصف بالزيادة، لكنَّها ليست غير مهمة، كما في مقابلاتها في اللغة العربية، إذ يمكن في العربية أن تحذف علامات الإعراب في مواضع الوقف من غير أن يدعو ذلك إلى الحكم على الشكل غير المعرب بالخطأ النحوي، وهو عكس ما يحدث في الأمثلة الروسية، وربَّما أمكن القول: إنَّ عدم أهمية أي عنصر لغوي -أي: القول بطبيعته الزائدة أو إمكان الاستغناء عنه- يتجاوز القول بمجرد زيادته[2].

ويزعم أنَّ نظام الإعراب في العربية ليس على هذه الدرجة من عدم الأهمية التي يبدو بها من ادعاءات كورينتي، فهذه العلامات الإعرابية لا تحذف في العربية النموذجية إلَّا عند الوقف فقط، أمَّا في درج الكلام فلا يمكن الاستغناء عنها؛ لذلك فإنَّ عبارات مثل: «في كتاب»، و«للأخ» يجب أن تنتهي بعلامة الإعراب حين تكون متبوعة بصفة (كما في الكتابِ الجميل/وللأخِ الجميل) مثلًا، يضاف إلى ذلك أنَّ الوقف لا ينشأ عنه حذف علامات إعراب جمع المذكر السالم والمثنى[3]. وأضاف أن ما يسميه كورينتي «عدم الأهمية» موجود في غير العربية النموذجية، ومنها المجرية -مثلًا- وهي لغة تتميز بنظام إعراب واضح جدًّا[4]. وبلاو أنَّه لا يتفق مع كورينتي في رأيه القائل إنَّ زيادة نظام الإعراب في العربية وعدم أهميته قد وفرا إطارًا بنيويًّا متجانسًا مما سمح بالتفاهم المتبادل بين

(1) Blau, J.1977: p. 6. 192 الترجمة العربية ص
(2) Ibid., p. 7 192 .الترجمة العربية ص
(3) Ibid., p. 7. 193 الترجمة العربية ص
(4) Ibid., p.7. 193ص .الترجمة العربية

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اللهجات المعربة وغير المعربة[1]. ويستدل بلاو على وضع اللهجات القديمة من اللهجات المعاصرة، فقد كتب في كتابه: (١٩٨١) (المعنون بـ) البداية والخلفية اللغوية للعربية اليهودية) دراسة لبقايا التنوين في اللهجات البدوية الحديثة، التي يتصور أنَّها شواهد من طور أقدم لهذه اللهجات كان الإعراب فيها موجودًا بصورته الكاملة، يقرر بلاو أنَّ الحقيقة تقول: إنَّ كلًّا من العربية الوسيطة واللهجات البدوية الحديثة احتفظت بالتنوين بالفتح (اً) فقط، ويفترض أنَّه في مرحلة من التطور بقيت نهاية حالة النصب تاريخيًّا، في حين اختفت حالات الإعراب الأخرى تمامًا، وهذا الاختفاء كان معطى رئيسًا لعوامل صوتية[2].

ويذكر أنَّ نصوصًا من عربية اليهود كان التنوين فيها مُحافَظًا عليه، إضافة إلى أمثلة موجودة من تأثير مباشر من العربية الفصحى[3]، وأنَّه وراثيًّا يبدو أنَّ التنوين كان محتفظًا به في بعض الكلمات، ويعدّد الأمثلة التي تؤكد وجود التنوين في عربية اليهود[4]. وفي تحليله لبقايا التنوين في لهجات البدو الحديثة يشير إلى أنَّ الهدف المباشر من هذه التحليلات هو توضيح الدرجة المدهشة من التشابه في حفظ التنوين بين هذه اللهجات (لهجات البدو الحديثة) وعربية اليهود، ويرى أنَّه من الضروري عند التقييم اللغوي المميز لبقايا التنوين في عربية اليهود أن نعرف إلى أي مدى ينعكس التنوين في الاستعمال الحي، وإلى أي مدى يجب أن تصح المقارنة مع لهجات البدو الحديثة ليمكن افتراض طرق التطور المتوازي[5]. وينتهي بلاو من دراسة التنوين في عربية اليهود ولهجات البدو الحديثة إلى الآتي:

---

(1) Blau, J.1977: p. 8. 197 الترجمة العربية ص
(2) Blau, J.1981: P. 170.
(3) Ibid., p.170.
(4) Ibid.,p.171 -177.
(5) Blau, J.1977: p. 187.

في حين اختفى التنوين كليًّة من اللهجات العامية الحضرية الحديثة، بقي محتفظًا به بواسطة البدو، لكنَّه -غالبًا- يستعمل اختياريًّا (Optional) [١].

في حالة الظرف، احتفظ بالتنوين فيها ليس في لهجات البدو فحسب؛ بل في اللهجات الحضرية العامية أيضًا « ويبدو أنَّ تأثير اللغة الفصحى كان موجودًا في عدد من الأمثلة »[٢].

يوجد التنوين في كلمات قصيرة قليلة كوحدة صرفية اختيارية للتنكير، ومن أمثلة ذلك ظهوره في الكلمات التالية: كُلًا، كُلٌّ، كُلٍّ[٣].

كان التنوين محتفظًا به في نصوص عربية اليهود، لكن هذا الاحتفاظ كان في كل التراكيب النحويَّة[٤].

يُستخدم التنوين وحدة صرفية في الاسم غير المعرف في حالات عربية اليهود[٥].

يلحق التنوين كثيرًا جدًّا بخبر الاسم غير المعرف[٦].

ربَّما يلحق التنوين المبتدأ في الجمل الاسمية[٧].

وحاول بلاو في بحث آخر (١٩٨٣) -أفرده للحديث عن بقايا التنوين وعلامات الإعراب- أن يثبت من بقايا التنوين في حالة الإعراب بالرفع، في نصوص من عربية اليهود في القرن السابع عشر الميلادي، شاهدًا على وجود التنوين[٨]. هذا تصور مهم

(1) Ibid, p. 188.
(2) Ibid, p. 189.
(3) Ibid, p. 190.
(4) Ibid, p. 191.
(5) Ibid, p. 193.
(6) Ibid, p. 196.
(7) Ibid, p. 199.
(8) Blau, J. 1983: p. 529 - 531.

هذه الطبعة إهداء من المجمع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

للعربية وتاريخها لمستشرق له باع طويل في دراسة العربية وتاريخها، وسيكون لنا وقفة مع تصور بلاو في الفصل الآتي. وينبغي هنا أن نذكر أنَّ تصور بلاو يتلخص في الآتي:

هناك فروق بين العربية القديمة والعربية المولدة، على مستوى الأصوات، والصرف، والتراكيب، وأنَّ العربية القديمة نمط تأليفي، أمَّا المولدة فهي نمط تحليلي.

لم يشهد العصر الجاهلي عند العرب ظاهرة الازدواجية اللغوية.

خلو القرآن الكريم من خصائص العربية المولدة يكشف عن وضع لغوي لا يمكن أن تكون فيه فوارق لغوية كبيرة بين اللغة الأدبية واللغة المحكية، وعربية مكة كانت وقت نزول القرآن عربية من النمط القديم، أي: قريبة من العربية المعربة.

الحمل الوظيفي غير المهم لنظام الإعراب في العربية لا ينبئ عن أنَّ علامات الإعراب قد اختفت من البنية المجردة للغة المحكية.

تبدو الزيادة مظهرًا مميزًا لأنظمة الإعراب في عدد كبير من اللغات، وقد يكون في اللغات كلِّها.

وأنتقل إلى عرض تصور المستشرق كيس فرستيخ (Versteegh,K.) في الصفحات التالية وفقاً للعناصر الآتية:

أولًا: عربية الجاهلية والعربية المولدة.

ثانيًا: تطور النحو وظاهرة اللحن.

ثالثًا: تأريخ ابن خلدون للعربية.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أولًا: عربية الجاهلية والعربية المولدة

يذكر فرستيخ[1] أنَّ فترة ما قبل الفتوحات الإسلامية -التي بدأت بعد وفاة الرسول ﷺ (٦٣٠م)- كانت القبائل العربية تتكلم فيها لهجات مختلفة -تقريبًا-، وبعيدًا عن لهجاتهم المختلفة، كانت القبائل تشترك في صيغة لغوية عربية -تقريبًا- فوق القبيلة (Intertribal)، كانت مستعملة في الشعر، والأقوال المأثورة، وسجع الكهان؛ وسميت أيضًا بالمشتركة الشعرية، ويعتقد أنَّها تطورت من واحدة من مجموعة من اللهجات، لكن ليست بدون سمات لغوية مندمجة فيها من لهجات أخرى، وهذا الوجود للاختلافات بين اللهجات -مثل: الاختلافات بين اللهجات واللغة المشتركة الشعرية (Poetic Koine) - ليس مرسخًا جدًّا، وثمَّة دليل جاء عن طريق النحويين العرب[2].

ويذكر فرستيخ أنَّ التقسيم الذي صنعه رابين وكورينتي وفيشر للهجات العربية القديمة، وتُقسمفيه إلى قسمين شرقية وغربية، يتطابق مع ما صنعه العلماء العرب القدماء، حيث إنَّهم قسموا اللهجات العربية القديمة إلى لهجة تميم ولهجة الحجاز[3]، ويقرر أيضًا أنَّه لا يميز بين لغة الحياة اليومية واللغة الشعرية، ويرجع ذلك إلى أنَّ فرستيخ ينظر إلى كلِّ الاختلافات اللغوية العربية في الجاهلية على أنَّها لغة واحدة متضمنة نوعيات مختلفة، مثل الاختلافات الإقليمية، ومن هذه الرؤية يرى

(١) كيس فرستيخ مستشرق هولندي، أستاذ بجامعة نمخن، وكان عميدًا للمعهد الهولندي بالقاهرة لفترة ليست قصيرة، له دراسات عديدة، عن تاريخ النحو العربي، انظر حول ذلك كتاب د.عبد المنعم السيد جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي. كما أنَّه من المهتمين والدارسين لتاريخ اللغة العربية؛ ولهذا العالم فضل كبير على الباحث، لمده بكثير من الأبحاث المهمة. وقد عرض فرستيخ في إطار تاريخ اللغة العربية، في بحثه ١٩٨٧ المناهج العلمية التي طبقت بواسطة الباحثين المعاصرين على تاريخ اللغة العربية من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، الفصحى، والعربية الوسيطة، واللهجات الحديثة، وظاهرة الازدواجية اللغوية. انظر بحثه Versteegh, K. 1987.

(2) Versteegh, K.1984 :p. 1.

(3) Versteegh, K.1984 :p. 2.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اللغـة الشـعرية أسـلوبًا مرتفعًـا أو تنوعًـا حادثًـا في اسـتعمال الشـعر[1]، أمَّـا اللهجـات فهـي الاختلافـات الإقليميـة للغـة نفسـها، كما يقـول فرسـتيخ: إنَّـه يعتقـد أنَّ واحـدًا مـن الحوافـز الـتي يعطيهـا الباحثـون تميـز للغـة الشـعر عـن اللغـة اليوميـة. وهـذا الافـتراض- مـن وجهـة نظـره- افـتراض مضلـل، ويزعـم أنَّ القيـاس الـذي يضعـه بعـض الباحثـين ليقيـس اللغـة الشـعرية للقصائـد العربيـة الجاهليـة باللهجـة الشـعرية الهومريـة (اليونـاني)، (وهـذا زعـم زويتلـر) يعـدُّ قياسًـا مضلـلًا بـدون دخـول في مناقشـة الطبيعـة الشـعرية للشـعر العـربي الكلاسـيكي، ويزعـم أنَّ لغـة القصائـد العربيـة كانـت متطابقـة مـع اللغـة اليوميـة للقبائـل[2].

ويكمـل فيقـول إنَّ هنـاك دليـلًا يؤكـد وجـود لغـة عربيـة واحـدة قبـل فـترة الفتوحـات، وهـذا يظهـر مـن شـهادة النحويـين العـرب، ففـي تصـوره أنَّنـا لـو أخذنـا كتاباتهـم بجديـة لوجـب أن نحـترم ونقبـل صـدق مـا نسـبوه إلى البـدو، فقـد اسـتخدم النحويـون مصطلـح «البـدو» ليـس للإشـارة إلى رواتهـم في المـدن فحسـب، وإنَّمـا للإشـارة إلى القبائـل المتنقلـة الـتي ينطـق أفرادهـا اللغـة العربيـة النقيـة، ويـرى أنَّ هـذا الأسـلوب هـو الـذي اسـتخدم في شـبه الجزيـرة العربيـة قبـل الإسـلام[3]. ويذكـر فرسـتيخ أنَّ المثاليـة الرومانسـية الـتي صنعهـا العـرب للحيـاة في الصحـراء، والقيـم البدويـة المنتشـرة في المجتمـع الإسـلامي، قـد أدت دورًا مهمًّـا في تـذوق النقـاء اللغـوي للغـة البـدو، ويـرى كذلـك أنَّ شـهادات النحويـين العـرب لا يمكـن أن نتجاهلهـا، ليصـل في النهايـة إلى أنَّ اللغـة اليوميـة واللغـة الأدبيـة عنـد القبائـل العربيـة قبـل الفتوحـات كانتـا متطابقتـين[4].

ويجيـب فرسـتيخ عـن التسـاؤل القائـل: هـل فقـدت العربيـة الإعـراب قبـل الإسـلام؟ فيقـول: إنَّـه يعتقـد أنَّ وجـود أو غيـاب الإعـراب في لغـة البـدو -سـواء أكان قبـل الإسـلام أم بعـده- غـير مرتبـط بهدفـه الأسـاسي، وهـو- كمـا صـرح بـه- تحليـل وشـرح التغـيرات

(1) Ibid., p. 2.
(2) Ibid., p. 2.
(3) Versteegh, K.1984 :p. 3.
(4) Ibid., p. 3.

المعقدة التي مرت بها اللغة العربية في القرن الأوَّل بعد الفتوحات، ويقرر أنَّه مع الرأي القائل: إنَّ البدو استمروا في استخدام الإعراب لقرون قليلة بعد الفتح، ثم انتهى هذا الاستخدام بسبب تأثير حضارة المقيمين التي لم تغير لغتهم فحسب، وإنَّما غيّرت أسلوب حياتهم كليَّة[1].

ويتابع فرستيخ نظرية فِك في تاريخ اللغة العربية – التي عرضناها في بحثنا هذا في الصفحات السابقة– ويرى –وفقًا لهذه النظرية– أنَّ التغير من العربية القديمة إلى العربية المولدة وجب شرحه عن طريق تأثير اللحن في سكان المناطق التي فُتحت، وهذا يفسر في رأي فرستيخ غياب التصحيحات الزائفة في نصوص عربية الجاهلية، إضافة إلى كونه يفسر الانحراف في اتجاه العربية المولدة؛ ليؤكد رأي بلاو الزاعم أنَّ تغيرات اللغة تأخذ مكانًا كنتيجة للفتوحات[2]. ويقرر أنَّه طبقاً للرأي المقبول سابقًا بأنَّ لغة القصائد الجاهلية هي تسجيل لتنوع العربية القديمة التي أصبحت لغة القرآن الكريم أيضًا، فإنَّ الاختلافات بين اللغة المستعملة في النوعين (الشعر والقرآن) ليست جوهرية. ويذكر أنّ معالجة الهمزة في أسلوب القرآن، مقارنة مع طبيعة اللهجات الشرقية / لهجة الشعر، ليؤكد أنَّ هذه الاختلافات ليست دليلًا لتحول أخير لنص القرآن إلى العربية الكلاسيكية (حسب زعم فولرز)، لكن لغة الحجاز –تبعًا لرأي رابين– لم تكن من اللهجات الغربية الخالصة؛ وإنما كانت لهجة متأثرة بعمق باللهجات العربية الوسطى والشرقية، التي شكَّلت الأساس للعربية الكلاسيكية[3].

ويرى فرستيخ أنَّ تنظيم طبيعة المادة اللغوية يكفل لنا نتيجة مؤداها: أنَّه لا يمكن أن يوجد شك في أنَّ اللهجة الحجازية لهجة معروفة أفضل من كلٍّ لهجات العرب قبل الإسلام، وهذا – في رأيه – يشير إلى أنَّه لا يمكن لنا أن نستثني احتمالية تأثير اللهجات

(1) Ibid., p. 3.
(2) Versteegh, K.1984: p. 4.
(3) Ibid., p. 5.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الشـرقية- الوسـيطة في الحجازيـة. وهـذه النتيجـة بزعـم فرسـتيخ يمكـن أن تصـاغ بقـول مفاده: إنَّه لا وجود لتعـارض بين النوعـين من العربيـة[1]، ويقصد بذلك اللهجة الشـرقية واللهجة الغربيـة، أو لهجة تميم ولهجة الحجاز، وينتهي إلى أنَّ اللغة العربيـة (الشـعرية - القرآنيـة)، ولغـة الحياة اليوميـة -آنذاك- قـد شـكّلا معًـا أسـاس اللغـة العربيـة القديمـة[2].

هـذا الزعـم الـذي يقـرره فرسـتيخ يؤكـده العلمـاء العرب القدمـاء، وفقهـاء اللغـة والنحويون، فقـد هذبـوا- حسـب رأيـه- وقعَّـدوا هـذه اللغـة مـن زمـن مبكـر. ويعـرض رأي وانسـبرو -الـذي عرضنـا لـه سـابقًا- وفحـواه أنَّ المعايـير الكلاسـيكية في اللغـة العربيـة قـد قُعّـدت في زمـن متأخـر، أي: في «القـرن الثالـث الهجـري / التاسـع الميـلادي»[3]. وهـذا يشـير- في رأي فرسـتيخ- إلى رفـض وانسـبرو شـهادة الأعمـال الكبـيرة، وهـي المـادة النحويـة المتعلقـة بالمرحلـة الأولى مـن تاريـخ الإسـلام، الـتي بـدأ فيهـا النحويـون العـرب صياغـة قواعـد القانـون اللغـوي، وجعلهـا متاحـة لهـم، والمـادة اللغويـة الـتي اعتمـد عليهـا النحويـون العـرب كانـت لغـة البـدو، ولغـة الشـعر، والقـرآن الكريـم، ليخلـص فرسـتيخ إلى رأي مـؤداه: أنَّ هـذا التعـارض بـين العربيـة الأدبيـة ولغـة الحيـاة اليوميـة لـم يكـن موجـودًا قبـل الإسـلام، لكنَّـه أتى مـن ظهـور اختـلاف جديـد للعربيـة بكليتهـا الـتي تميـزت بانحـراف أسـاسي وجوهـري عـن قواعـد لغـة الجاهليـة، وهـذا التغـير جـاء بعـد الفتوحـات[4].

ويشـير فرسـتيخ إلى أنَّ صـور التقابـل في صـورة اختـلاف لغـوي كبـير، واختلافًـا منخفضًـا حسـب الوظائـف الاجتماعيـة والثقافيـة[5]. ويذكـر دليـلاً آخـر لـه طابـع مختلـف، وهـو الكتـب الـتي ألَّفها العـرب قديمًـا في اللحـن، وتعـنى بتصحيـح الأخطـاء اللغويـة الـتي تقـع فيهـا فئـات مختلفـة مـن النـاس عنـد اسـتخدامهم اللغـة العربيـة. فهـدف هـذه الكتـب - حسـب

(1) Ibid., p. 5.
(2) Versteegh, K.1984: p. 5.
(3) Ibid., p. 5.
(4) Ibid., p. 6.
(5) Ibid., p. 6.

مـا يذكـر فرسـتيخ – ليـس دراسـة التراكيـب اللغويـة للغـة العاميـة، أو تصحيـح كلام العامـة، بـل التركـيز على نـوع مـن الخطـأ الـذي يطـرأ على النصـوص المكتوبـة، ويذكـر فرسـتيخ أنَّ تحديـد هـذه الأخطـاء الموجـودة في النصـوص المكتوبـة يمنعنـا مـن أن نحصـل علـى صـورة شـاملة للغـة العاميـة، وهـي لغـة الحيـاة اليوميـة؛ لأنَّ كثـيرًا مـن ملامـح هـذه اللغـة العاميـة قـد تشـوَّه بشـكل يمنعنـا مـن دراسـتها، ولهـذا فـإنَّ كتـب لحـن العامـة تبـين جانبًـا ضئيـلًا مـن التعـارض الـذي وجـد بـين اللغـة الأدبيـة واللغـة العاميـة[1].

ويذكـر أنَّ العيـب نفسـه كان موجـودًا في النصـوص المكتوبـة في فـترة اللغـة العربيـة الوسـيطة لكنَّهـا تمدنـا ببعـض المعلومـات، فاللغـة المحكيـة تظهـر فيهـا الأخطـاء، لكـنَّ أكثرهـا شـيوعًا لا تظهـر في هـذه النصـوص[2]، ويشـير إلى دراسـة بـلاو الـتي حلـل فيهـا عربيـة اليهـود، وخلـص فيهـا إلى أنَّ خصائـص اللهجـات نـادرًا مـا تظهـر، حـتى عندمـا نجدهـا فإنَّهـا لا تعـبر عـن الخصائـص الكليـة للفـترة الـتي كتـب فيهـا النـص[3].

ويشـير فرسـتيخ إلى وجـود تطابـق بـين اللغـة العربيـة واللغـة اللاتينيـة في هـذا الموضـوع؛ لأنَّ نصـوص الكتابـات الكوميديـة، والمقـالات الخاصـة بطـرق الطهـي والأدويـة البيطريـة، كانـت تكتـب باللغـة اللاتينيـة القديمـة، وفيهـا قليـل مـن العاميـة، وكثـيرًا مـا كان ذلـك نتيجـة لاسـتخدام هـذه الدلائـل شـواهد على تغـير اللغـة، كمـا يشـير إلى أنَّ هنـاك تماثـلًا آخـر بـين النصـوص المكتوبـة باللغـة العربيـة في مرحلتهـا الوسـيطة والعاميـة اللاتينيـة، وهـو أنَّ كلَّ واحـدة مـن اللغتـين كانـت توجـد لـها جماعـات مختلفـة، تـؤدي دورًا في نشـر هـذا النـوع مـن اللغـة، ففـي حالـة اللغـة العربيـة الوسـيطة، فـإنَّ وجـود نصـوص مختلفـة يرجـع إلى أنَّ هـذه النصـوص كتبتهـا جماعـات اليهـود والنصـارى، ولا تعـدّ اللغـة العربيـة هـي المرجـع لهـم مثلمـا هـو الحـال بالنسـبة للمسـلمين؛ ولهـذا لا يقـع عليهـم ضغـط المحافظـة على الأسـلوب

(1) Versteegh, K.1984: p. 7.
(2) Ibid.,p . 7.
(3) Ibid., p. 7.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

السـليم الفصيـح الـذي يجـب أن يسـتخدموه في الكتابـة ، أمـا عربيـة اليهـود والنصـارى فإنَّنـا نجـد أنَّ الخطـأ الـذي تسـتخدمه مجموعـة مـا تسـتخدمه وتتبنـاه المجموعـة نفسـها فيمـا بعـد في كل كتاباتهـا[1].

وإذا كان فرسـتيخ يشـير في بحثـه هـذا (١٩٨٤) إلى تشـابه بـين العربيـة واللاتينيـة في عـدد مـن القضايـا، فإنَّـه في بحثـه (١٩٨٦)، الموسـوم بـ«اللاتينيـة، والهيلينيـة، والعربيـة» يجـد تشـابهًا في المجتمعـات اللغويـة الثلاثـة، مـن حيـث مفاهيـم اللغـة المعياريـة وفسـاد الـكلام أو اللحـن (Corruption of Speech) ، واللهجـة، واللغـة العاميـة (Colloquial language) [2]، وهـذا التشـابه- في تصـور فرسـتيخ- بـين التعاليـم النحويـة الثلاثـة يعكـس تشـابهًا في الموقـف اللغـوي الـذي قوَّمـوه. وهـذا الموقـف اللغـوي مميـز ربَّمـا بوجـود ظاهـرة الازدواجيـة اللغويـة، ففـي كلٍّ هـذه المجتمعـات اللغويـة الثلاثـة- كمـا يقـول فرسـتيخ- توجـد لغـة معياريـة / نموذجيـة، وهـي لغـة ذات قيمـة اجتماعيـة وعلميـة وثقافيـة، وكانـت تسـتخدم كلمـة مكتوبـة، ولـم تكـن هـذه اللغـة النموذجيـة مكتسـبة) لغـة أم)، وإنَّمـا تتعلـم في المـدارس[3].

ويقـرر في كتابـه (١٩٨٤) المعنـون بـ«التهجـين والتوليـد، حالـة اللغـة العربيـة» أنَّ كتـب لحـن العامـة ونصـوص الفـترة الوسـيطة للغـة العربيـة يمكـن أن تمدنـا بفكـرة بسـيطة عـن الاسـتخدام غـير الدقيـق للعربيـة الكلاسـيكية، لكنهمـا لا يمكـن أن يسـتخدما بمفردهمـا أبـدًا شـاهدين يعتمـد عليهمـا لقيـاس عـدم الدقـة بـين اللغتـين، أو لدراسـة تسلسـل الأحـداث التاريخيـة[4].

(1) Versteegh, K.1984: p. 8.
(2) Versteegh, K.1986: p. 425.
(3) Ibid., p. 425.
(4) Versteegh, K.1984: p. 9.

ثانيًا: النحو العربي وظاهرة اللحن

يوجد -من وجهة نظر فرستيخ- مصدر واحد يساعدنا على معرفة التغيرات التي مرت بها اللغة العربية، وهو أن شهادة النحويين العرب تعدُّ حجة قوية في وصف استخدام البدو للهجاتهم التي كانوا يستخدمونها قبل الإسلام، بالخصائص القديمة نفسها، وبعد فترة الفتوحات الإسلامية فسدت اللغة العربية على ألسنة المتحدثين الجدد، وبخاصة في المدن، وهذا الفساد أو اللحن هدد العرب بانتشاره، حتى انتشر ألسنة الذين يتلون القرآن الكريم[1]، يقول فرستيخ: هذا ما أكدته الرواية التقليدية عن نشأة النحو في الثقافة الإسلامية؛ ولذلك قام النحويون العرب بتجميع وتنسيق اللغة الفصحى، ولا نعرف تحديدًا من أوَّل من اتخذ هذه الخطوة، وإن كانت معظم المصادر - كما يقول فرستيخ- قد ذكرت الدور الذي قام به أبو الأسود الدؤلي إضافة إلى الخليفة الرابع عليٍّ -رضي الله عنه-[2].

يذكر فرستيخ أنَّ النحويين واجهوا مشكلتين هما:

مشكلة وجود قراءات مختلفة للقرآن الكريم والقصائد الكلاسيكية/القديمة.

الأخطاء التي وقع فيها المعتنقون الجدد للإسلام، الذين حاولوا التحدث بلغة حكامهم، وهي في الوقت نفسه لغة دينهم الجديد.[3]

حاول النحويون- حسب ما يذكر فرستيخ - حلَّ مشكلة تعدد واختلاف القراءات عن طريق تطوير معايير يمكن أن تساعدهم على اختيار أفضل القراءات المختلفة، وكان معيارهم هو اللغة الحية، لغة البدو التي لم تفسد بعد، فلم تفسد لعدم اختلاطهم بأهل المدن المقيمين، وهذا التطور انقطع بسبب نشر القرآن الكريم بالصورة التي قررها

(1) Ibid.,p. 9.
(2) Ibid.,p. 9 _ 10.
(3) Versteegh, K. 1984: p.10.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الخليفة الثالث عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، لاقى قبولًا واسع النطاق في القرن الأوَّل الهجري / النصف الأوَّل من القرن الثامن الميلادي[1].

أمَّا المشكلة الثانية المتعلقة بأخطاء المسلمين الجدد الذين لم تكن العربية لغتهم، فيقرر أنَّ هذه المشكلة أدت إلى زيادة الوعي بالحاجة إلى حماية اللغة الفصحى مما يسمى اللحن، وهو عمومًا الخطأ الذي يقع فيه المتحدث بسبب عدم اتباع قواعد النحو، بخاصة الاستخدام غير الصحيح للإعراب، الذي نشأ عن التعليم السيئ، والسلوكيات السيئة.[2]

ويذكر فرستيخ أهمية الروايات المستمدة من تاريخ النحو العربي في معرفة تاريخ اللغة العربية، ويقول: » إذا لم نرفض شهادة النحويين العرب فيجب علينا أن نقبل حكمهم الذي يؤكد على التقابل بين لغة البدو النقية ولغة الحضر الفاسدة، ونصدق أنَّ في القرون الأوَّلى للإسلام وجدت قبائل البدو التي حافظت على اللغة الفصحى كما كان يتحدث بها قبل الفتوحات الإسلامية، وهذا الرأي - حسب زعم فرستيخ - مؤكد عن طريق الروايات التي تقول: إنَّ الطبقة العليا -ومنها الخلفاء- كانوا يرسلون أبناءهم إلى الصحراء لتعلم اللغة العربية الصحيحة »[3].

هذا كلُّه يؤدي إلى نتيجة - حسب زعمه - مؤداها أنَّ البدو لم يفقدوا لغتهم العربية القديمة حتى بعد عدة قرون قليلة من التاريخ الإسلامي؛ وهذه النتيجة - حسب ما يذكر - لها توابع بعيدة في فهمنا لتاريخ اللغة العربية قبل مجيء الإسلام، وتأكيدًا لما سبق، فإنَّ استخدام عربية الجاهلية - حتى بعد فترة الفتوحات الإسلامية - كان موجودًا في لغة الحوار اليومي، وكذلك في النوادر[4]. هذه النوادر كانت تستخدم دليلاً على عدم

(1) Ibid., p. 10.
(2) Ibid., p. 10.
(3) Versteegh, K. 1984: p.11.
(4) Ibid., p.11.

قـدرة المسـتعربين علـى التحـدث باللغـة العربيـة بشـكل سـليم، وكذلـك- حسـب مـا يقـرر- وضحـت أنَّ هـؤلاء المتحدثـين الجـدد قـد غـيَّروا وعدَّلـوا في اللغـة العربيـة، إضافـة إلى أن هـذه النـوادر وضحـت شـيئًا آخـر، وهـو أنَّ هـذه الجماعـات «المسـتعربين الجـدد» كانـت تعـاني مـن عـدم القـدرة علـى الـكلام بإعـراب سـليم، ويذكـر فرسـتيخ جملـة «تـوفي أبانـا وتـرك بنـون» كمثـال للمسـتعرب الـذي لا يعـرف جيـدًا اسـتخدام الإعـراب، وهـذا مرتبـط بقواعـد اللغـة العربيـة القديمـة[1].

ويقـول فرسـتيخ: إنَّ لهجـة البـدو أبقـت كثيـرًا مـن الملامـح المحافظـة علـى اللغـة العربيـة القديمـة، أكـثر مـن سـكان الحضـر، وسـيظهر هـذا في الملامـح الآتيـة الـتي تميـز لغـة البـدو[2]، وسـوف أنقـل بعضًـا منهـا علـى النحـو الآتي:

- لا توجد إمالة أو تفخيم.
- نجد في مناطق كثيرة الازدواج الصائتي (Diphthongs) «فتحة - ياء» و «فتحة - واو» عوضًا عـن اليـاء والـواو.
- الأصـوات «فتحـة، كسـرة، ضمـة» يحتفـظ بهـا كأصـوات مسـتقلة في غـرب وجنـوب غـرب شـبه الجزيـرة العربيـة.
- معظم أصوات ما بين الأسنان ظلت باستثناء بعض المدن، مثل: مكة، وعدن.
- لهجات البدو في شبه الجزيرة لا تزال محافظة -إلى حد كبير- على بنية المقطع.
- النظام النبري محافظ عليه.
- هناك تمييز بين المثنى والجمع في استخدام الضمائر والأفعال.
- تتميز لهجات البدو بمحافظتها على الإعراب، (ين) و (ون)، عكس سكان المدن.[3]

(1) Ibid., p.11.
(2) Versteegh, K. 1984: p.11 – 12.
(3) Ibid., p. 1112-.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وينتهـي فرسـتيخ- بعـد عرضـه السـمات اللغويـة للبـدو- إلى أنَّنـا نجـد بعـض الملامـح التجديديـة في لهجـات البـدو، وبالرغـم مـن محافظتهـم علـى لغتهـم، فـإنَّ هـذا لـم يمنـع تطـور لغتهـم، ويشـير إلى أنَّـه مـن الصعـب تحديـد مـا إذا كان تطـور لغتهـم داخليًّـا، أم نتيجـة للاحتـكاك الحتـمي مـع أهـل الحضـر(١).

هـذا التصـور لتاريـخ العربيـة يحـاول فرسـتيخ دائمًـا تأكيـده في أبحاثـه المتعـددة، ففـي بحثـه (١٩٨٣): «النحـو العـربي ولحـن الـكلام» يصـرح أنَّ هدفـه دراسـة المرحلـة النحويـة السـابقة لسـيبويه؛ لتحديـد العلاقـة بـين النحـو والقلـق علـى التدويـن الصحيـح وتـلاوة القـرآن الكريـم(٢). ويصـرح أنَّـه يعتقـد أنَّ الحافـز المباشـر لتطـور علـم النحـو عنـد العـرب كان قلقهـم علـى النـص القـرآني، ومـن هـذه القضايـا الخاصـة النـص القـرآني، وقضايـا التدويـن الخاصـة بالصوامـت والصوائـت، ولمَّـا كانـت هنـاك اختلافـات في الصوائـت -لتعلقهـا بدلالـة نحويـة في آخـر الـكلام- أصبـح الموضـوع لـه مناقشـات نحويـة، وكان هـذا الهـدف التقليـدي لتطـور النظـام النحـوي- حسـب فرسـتيخ - ضـرورة عمليـة للتـلاوة الصحيحـة للقـرآن، وحافـزًا أوَّل لعلـم النحـو(٣). وينتهـي في بحثـه هـذا إلى أنَّ كل الروايـات الخاصـة بالنحـاة الأوَّائـل تقـرر أنَّ أغلبيـة كبـيرة مـن الأمثلـة تؤكـد:

أولًا: قلقهـم علـى نقـاء لغتهـم، هـذا القلـق يتضمـن في المقـام الأوَّل الاسـتعمال الصحيـح لعلامـات الإعـراب، وفي المقـام الثـاني الاسـتعمال الصحيـح عـن طريـق وضـع علامـات الصوائـت داخـل الكلمـات، وفي المقـام الثالـث الاسـتعمال الصحيـح للكلمـات القديمـة، وكان الاسـتياء موجهًـا بخاصـة إلى المقامـين الأوَّل والثـاني، اللذيـن حُـددا بمصطلـح لحـن، ويشـير

(1) Ibid., p. 12.
(2) Versteegh, K.1983: p. 139.
(3) Ibid., p.139.

أيضًا إلى أنَّ قضية اللحن هذه كانت تشغل الجيل الأوَّل من النحويين العرب، وأنها شرحت بواسطة المتأخرين خطأ في العناصر الأساسية للنحو[1].

ويقرر أنَّ معظم الروايات العربية تدل على أنَّ أصل النحو العربي متعلق باللحن في علامات الإعراب، وأنَّ النحويين ناقشوا التحولات من العربية القديمة إلى العربية الحديثة على وجه الحصر بمصطلحات لاختفاء العلامات الإعرابية، ليؤكد أنَّنا لو نظرنا إلى المصادر العربية لأمكننا التأكد من وجود أخطاء نحوية شددوا عليها، ومن ناحية أخرى، هذا التشديد الكبير على الأخطاء في حالات النحو دليل لوقاية النظام في ذلك الوقت[2]. فالعلماء العرب – حسب زعم فرستيخ – قد واجهوا مشكلة مزدوجة، المشكلة الأوَّلى هي الفوضى عند كثير من المتكلمين في استعمال النهايات الإعرابية، والثانية هي الانحلال الدائم للفصحى المقوى بواسطة واقع التلاوة الصحيحة للقرآن المعتمدة بدقة على معرفة القواعد النحوية، وأنَّهم قد حلوا هذه المشكلة المزدوجة عن طريق جعل نظام المادة النحوية متوفرًا لكي تجعلها ممكنة لمناقشة وتحليل المشكلات، أو حسب ابن خلدون: استنتجوا قواعد كلية من لغة البدو، وطبقوها قاعدة على سائر كلامهم[3].

ثالثًا: تأريخ ابن خلدون للعربية

أمَّا في كتابه (1997B) الموسوم بـ «التعاليم اللغوية العربية»، فقد جعل الفصل الثاني عشر بعنوان: «ابن خلدون وتاريخ العربية». وفيه يقول فرستيخ: إنَّ البدو في الجاهلية كان لديهم عادة حسنة، وهي الاهتمام بلغتهم التي تحوَّلت من جيل إلى جيل آخر، مثلما يكتسب الطفل اليوم لغتنا، لكن عندما جاء الإسلام تركوا الحجاز لفتح الإمبراطوريات التي كانت في أيدي الأمم والدول التي كانت مسكونة بغير العرب، فبدأت عاداتهم اللغوية في التغير كنتيجة للطرق المختلفة للمتكلمين، فهم قد سمعوا

(1) Ibid., p. 155156-.
(2) Versteegh, K.1983: p. 157.
(3) Ibid., p.158.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

هـؤلاء الذيـن حاولـوا تعلـم العربيـة، وأصبحـت في هـذا الواقـع اللغـوي لغـة انتشـر فيهـا اللحـن. ولمَّـا كانـت هـذه المشـكلات مؤرقـة، اسـتنتج العلمـاء قواعـد مـن كلام البـدو، الـذي كان صحيحًـا تمامًـا، واسـتعملوها قانونًـا لكلامهـم[١].

ويشـير فرسـتيخ في هـذا السـياق إلى أنَّ ابـن خلـدون يقـول :إنَّ البـدو كانـوا يتكلمـون العربيـة وفقًـا لميلهـم الطبيعـي، ولـم يحتاجـوا إلى نحويـين ليخبروهـم كيـف يتكلمـون[٢]، ومـن هنـا - حسـب فرسـتيخ - فـإن رؤيـة ابـن خلـدون في تطـور اللغـة العربيـة شـهادة مهمـة لرؤيـة العـرب أنفسـهم لتاريـخ لغتهـم[٣].

ويـرى أنَّ أغلـب المستشـرقين يـرون أنَّ العـرب في الجاهليـة كان لديهـم لغـة شـعرية ولغـة الحيـاة اليوميـة، لكنـه -وفاقًـا لابـن خلـدون- يذكـر أنَّ اللغـة النقيـة / الفصـحى للبـدو ظلـت راسـخة حـتى حـدث احتـكاك بـين العـرب والأمـم الأخـرى أثنـاء مرحلـة الفتوحـات، عندمـا فتحـوا منطقـة كـبرى مـن العالـم المسـكون فيـه، الـتي امتـدت مـن وسـط آسـيا حـتى إسـبانيا، وفي التفاعـل بـين العـرب وسـكان المناطـق المفتوحـة كانـت العربيـة مسـتعملة، حـتى هـؤلاء البشـر (المسـتعربون) واجهـوا كثـيرًا مـن المتاعـب في تعلـم البنيـة المعقـدة للغـة العربيـة، فهـم قـد أخطـأوا، ومـن ثَـمَّ فسـدت.[٤]

ويـرى فرسـتيخ أنَّ الموضـوع الأسـاس عنـد ابـن خلـدون هـو هـذا الفسـاد / اللحـن الـذي حـدث في اللغـة، فقـد تحوَّلـت إلى لغـة جديـدة، ثـم يشـير إلى أنَّ الصيـغ العاميـة للغـة تأصّلـت أثنـاء مرحلـة الفتوحـات، لكـنَّ النحويـين رفضـوا التركـيز إلَّا على العربيـة، ولـم يعطـوا أي اهتمـام للصيـغ الملحونـة للغتهـم. هـذا التقابـل / التعـارض بـين نحويـة اللغـة الفصـحى وعـدم نحويـة الـكلام العـامي ظـل متواصـلًا في العالـم العـربي حـتى اليـوم.[٥]

(1) Versteegh, K.1997B: p. 153.
(2) Ibid., p.154.
(3) Ibid., p.154.
(4) Ibid., p.155. 2200000000
(5) Versteegh, K.1997B: p. 155.

ويخلص فرستيخ من شهادة ابن خلدون إلى بعض النتائج، منها: أنَّ أي تطور في العربية من اللغة القديمة إلى المولدة ربَّما كان تدريجيًّا، إضافة إلى أنَّه حدد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كتاريخ يؤكد أنَّه لم يكن يوجد فيه فرد واحد يتكلم العربية الفصحى كلغة أم، وأنَّ اللغة الأم لكل المتكلمين أصبحت اللهجات العامية المماثلة للهجات العربية الحديثة. وأشير إلى أني سوف أحلل تصور ابن خلدون في هذا الكتاب.

ويواصل فرستيخ توضيح رؤيته في بحثه (١٩٨٧) المكتوب بالعربية، وعنوانه: «النحويون واللغويون وموقف «دوزي» من التراث العربي»، ينتقد فيه رؤية دوزي للنحويين العرب، وتصورهم أنَّهم اهتموا بلغة متحجرة لا تستعمل إلَّا للكتابة، إضافة إلى رؤيته الزاعمة أنَّ اللغة العربية الفصحى لم تعش إلَّا قرنين فقط من الزمان، وكان النحويون العرب خاطئين في نظرتهم إلى اللغة الفصحى كلغة حية يتعلمها العرب كلُّهم منذ نشأتهم بشكل طبيعي.[١] وللرد على مزاعم دوزي يقول فرستيخ : «إنَّ الكلمة الرئيسة لفهم أفكار النحاة في شأن تطور اللغة العربية تنحصر في عبارة «فساد اللغة»، التي تدل على كلِّ التغيرات الطارئة على اللغة بعد مجيء الإسلام والمؤدية إلى أن تصبح للفصحى لغة دارجة»[٢].

ثم يستعين بقول ابن خلدون في المقدمة ص ٥٤٦: «فلمَّا جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيَّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين. والسمع أبو الملكات اللسانية؛ ففسدت بما ألقي إليها مما يغيرها؛ لجنوحها إليه باعتبار السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسًا، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة»[٣].

(١) كيس فرستيخ: النحويون واللغويون وموقف دوزي من التراث العربي، ص ٤٠٣.
(٢) كيس فرستيخ: النحويون واللغويون وموقف دوزي من التراث العربي، ص ٤٠٣.
(٣) السابق، ص ٤٠٣.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويقـرر فرسـتيخ أنَّ «النقطـة المركزيـة في نظـر ابـن خلـدون هـي أنَّ النحـاة قاومـوا فسـاد اللغـة، ووضعـوا النحـو مـن أجـل تدويـن لغتهـم، وحفظهـا مـن التغـير، وطـرد اللحـن منهـا، أي: إنَّهـم كانـوا يعتـبرون تلـك اللغـة لغـة حيـة، تعيـش بفضـل اجتهـاد النحـاة واللغويـين، في حـين أنَّ دوزي يعتبرهـا لغـة مصطنعـة ليسـت لهـا حيـاة إلَّا في النصـوص الأدبيـة، وفي تخيـل النحويـين»[1]. أمـا موقفـه هـو مـن اللغـة الفصـحى فيؤكـده بقولـه: «فـإنيّ موقـن أنَّ اللغـة الفصـحى لهـا وجـود حقيقـي، فـلا توجـد في إنجـاز الناطقـين فحسـب، بـل في قدرتهـم أيضًـا، إذ يمكنهـم أن يختـاروا في حديثهـم بـين مختلـف مسـتويات النظـام اللسـاني الـذي يمتـد مـن أعلـى مسـتوى اللغـة الفصـحى إلى أدنى مسـتوى اللغـة الدارجـة، فيشـكل تسلسـلًا واحـدًا لا يتجـزأ»[2].

ويشـير فرسـتيخ في كتابـه (١٩٩٧A) المعنـون بـ(اللغـة العربيـة، تاريخهـا ومسـتوياتها) -وتحديـدًا في الفصـل الرابـع) : العربيـة في مرحلـة الجاهليـة)- إلى قضايـا كان قـد أكدهـا مـن قبـل في بحوثـه، ومنهـا رفـض العلمـاء نظريـة فولـرز بشـكلها المتطـرف، وفيهـا يزعـم فولـرز أنَّ القـرآن الكريـم لـم يـنزل في البدايـة بالفصـحى، وإنَّمـا نـزل بالعاميـة القرشـية، ثـم كتـب بالفصـحى. ويعلـق فرسـتيخ علـى ذلـك بقولـه: «مـن الصعـب أن نقبـل فكـرة أن يتـم تنزيـل نـص سـماوي مقـدس بلهجـة دارجـة. مـن المؤكـد أن لدينـا نمطًـا شـعريًّا مـن اللغـة العربيـة. ومـن الصعـب في حالـة تنزيـل نـص سـماوي ذي أهميـة كبيـرة أن يتـم اختيـار أي نمـط غـير هـذا النمـط الشـعري العـالي»[3].

ويتكلـم عـن الواقـع اللغـوي في الجاهليـة، فيقـول: » إنَّ اللهجـات العربيـة القديمـة كانـت مختلفـة في الجانـب الصـوتي، وهنـاك اختلافـات لهجيـة علـى مسـتويات لغويـة بنيويـة أعلـى، ومثـال ذلـك - حسـب فرسـتيخ - مـا هـو محتمـل وجـوده في لهجـة الحجـاز، وهـو

(١) السابق، ص ٤٠٤.
(٢) السابق، ص ٤٠٨.
(3) Versteegh, K. 1997 A. p. 41. 58 وانظر ترجمة هذ الكتاب للدكتور محمد الشرقاوي، ص

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وجـود المثـنى غـير المتصـرف (Undeclined dual) ، ويـرى أن أفضـل مثـال علـى ذلـك الآيـة الكريمـة رقـم ٦٣ مـن سـورة طـه «إن هـذان لسـاحران»، حيـث لا تعمـل (إن) علـى نصـب الاسـم كمـا هـو المفـروض في قواعـد الفصـحى، ويشـير إلى أنَّ هـذه الآيـة قـد أزعجـت كثـيرًا مـن الشـراح والنحـاة»[١].

ويخلـص مـن النظـر في مجموعـة الاختلافـات الـتي قدمهـا إلى أنَّ اللهجـات العربيـة القديمة ليسـت متباعـدة تباعـدًا شـديدًا. ويـرى فرسـتيخ أنَّ معظـم الاختلافـات اختلافـات صوتيـة إذا مـا نحينـا ظاهـرة «أكلـوني البراغيـث» جانبًـا، إضافـة إلى أنَّ هنـاك شـيئًا واحـدًا واضحًـا مـن مثـل التنـوع التركيـبي[٢] ، وهـو إذا مـا كانـت السـمات الـتي ذكرناهـا صحيحـة، فـإنَّ كلاً مـن المجموعتـين / اللهجتـين كانتـا تسـتخدمان الإعـراب، وليسـت حالـة المثـنى في الآيـة الكريمـة ٦٣ مـن سـورة طـه (إن هـذان لسـاحران) دليـلًا قويًـا لتثبـت العكـس، ونظـرًا لأنَّ القاعـدة المركزيـة للإعـراب في النظريـات المختلفـة عـن الواقـع اللغـوي في الجاهليـة فـإنَّ غيـاب أي دليل علـى وجـود كلام غـير معـرب (Declensionless Speech) في كتـب النحـو مهـم في فهمنـا للتطـور التاريـخي للغـة العربيـة[٣].

ويشـير في الفصـل السـابع مـن كتابـه (1997A) -الـذي خصَّصـه للعربيـة المولـدة- إلى ظهـور مـا يسـميه النـوع المولـد مـن العربيـة (Neo-Arabic) ، الـذي أصبـح منتشـرًا في الفـترات الأولى مـن الفتوحـات، ثـم تطـور إلى اللهجـات العربيـة كمـا نعرفهـا. وهـذا النـوع يتقابـل اصطلاحيًـا مـع مصطلـح العربيـة القديمـة (Old Arabic) ، ليشـير لديـه إلى العربيـة الـتي كانـت مسـتعملة في الجاهليـة، العربيـة المطـردة لقبائـل البـدو، لغـة القـرآن والشـعر الجاهلـي.[٤]

(1) Ibid.,p. 45. .

(٢) محمـد الشـرقاوي مترجـم هـذا الكتـاب يسـميه (اللغـات النحويـة)، وهـذا في تصـوري بعيـد عـن دلالـة المصطلـح الإنجليـزي المذكـور عنـد فرسـتيخ.

(3) Ibid.,p. 46.

(4) Ibid., p. 98.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

هـذا تصـور فرسـتيخ للعربيـة وللواقـع اللغـوي في العصـر الجاهلـي، وهـو قائـم كمـا قدمنـا على العناصـر التاليـة:

لغـة عربيـة واحـدة تقريبًـا في العصـر الجاهلـي، ويسـتند في ذلـك علـى شـهادة النحـاة العـرب، ويؤكـد أنَّ افـتراض كـون اللغـة الشـعرية للقصائـد الجاهليـة تشـبه لغـة أدب هوميـروس افـتراض مضلـل، ويؤكـد أنَّ لغـة القصائـد الجاهليـة كانـت متطابقـة مـع اللغـة اليوميـة للقبائـل.

لـم تفقـد العربيـة الإعـراب قبـل الإسـلام، فلغـة البـدو كان بهـا إعـراب، واسـتمرت في اسـتخدامه قرونًـا قليلـة بعـد الفتوحـات الإسـلامية. ويـرى الاختلافـات بـين اللغـة المسـتعملة في الشـعر الجاهلـي، والمسـتعملة في القـرآن ليسـت جوهريـة، ويشـير إلى أنَّ بعـض الاختلافـات الموجـودة ليسـت دليـلًا علـى تحـوّل أخيـر لنـص القـرآن إلى العربيـة الكلاسـيكية، وأنَّ اللغـة العربيـة الشـعرية – القرآنيـة ولغـة الحيـاة اليوميـة آنـذاك شـكّلا معًـا أسـاس اللغـة العربيـة القديمـة.

مـا حـدث بعـد الفتوحـات الإسـلامية فصاعـدًا، غـيّر التاريـخ اللغـوي للعـرب في كلِّ مـكان، واتضـح التقابـل بـين التنوعـين اللغويـين في البنيـة اللغويـة، وحسـب الوظائـف الاجتماعيـة والثقافيـة.

يسـتخدم فرسـتيخ كتـب اللحـن، ووثائـق مـن العربيـة الوسـيطة (عربيـة اليهـود والنصـارى)، وشـهادات النحويـين العـرب، وابـن خلـدون، أدلـة علـى وجـود الفصـحى، وعلـى تطـورات العربيـة عـبر العصـور.

ظهـرت العربيـة المولـدة بعـد الفتوحـات الإسـلامية كنـوع جديـد دارج للعربيـة، وأصبـح منتشـرًا في الفـترات المبكـرة للفتوحـات الإسـلامية، وهـو الـذي تطـوَّر إلى اللهجـات العربيـة الحديثـة كمـا نعرفهـا.

هـذه الرؤيـة نجـد لهـا أنصـارًا كثيريـن، وبخاصـة الذيـن تتعلـق بحوثهـم بالبحـث في مجـال اللغـات السـامية، منهـم مستشـرقون وعـرب، ومـن ذلـك د. رمـزي بعلبكـي الـذي يـرى أنَّ الفصـحى مرحلـة مـن العربيـة الشـمالية تاليـة للعربيـة القديمـة الـتي تتصـل اتصـالًا وثيقًـا بعربيـة الشـمال العتيقـة، ويـرى أنَّ الخصائـص التركيبيـة الـتي تتسـم بهـا الفصـحى ترجـع جذورهـا إلى مـا قبـل القـرن الثالـث للميـلاد، أي: زمـن نقـش رَقـوش، فهـي مماثلة لمـا في نقوش قريـة الفـاو، الـتي يرجَّـح أنَّهـا تعـود إلى فـترة قـد تصـل إلى القـرن الثالـث قبـل الميـلاد. ومنهـا الحـالات الإعرابيـة الثـلاث. وهـذه الخصائـص اللغويـة الخاصـة بالفصـحى في الحقيقـة هـي مـا خلـص إليـه علمـاء السـاميات[1].

(١) د. رمزي بعلبكي: هوية الفصحى، صـ٢٩-٣٢.

الفصل الثالث

تحليل ومقارنة لتصورات المستشرقين بلاو وفرستيخ

سوف أقوم في الصفحات التالية بتحليل تصور كلٍّ من بلاو وفرستيخ في ضوء الفرضيات والتصورات الاستشراقية الأخرى، مناقشًا هذه التصورات، ومحاولًا تمييز الصحيح من الخاطئ، وسوف أكون موضوعيًا؛ والموضوعية في تصوري قائمة على التمسك بمبادئ وأسس البحث العلمي دون تفضيل رأي على آخر إلَّا بالحجج العلمية المؤسسة.

وسوف نرى في الفصل المخصص لرؤية العلماء العرب القدامى أنَّ سيبويه قد اعتمد على «اللغة الحجازية» حسب تسميته إياها، وقال عنها: إنَّها اللغة الأولى القُدمى، وكذلك اعتمد على لغة تميم، وهي من أعلى اللهجات العربية فصاحة. أمَّا عن كون الانعزال سببًا لحفاظ اللغة العربية على سمات لغوية قديمة قد انحدرت لها من السامية الأم، فإنَّ هذا الزعم مقبول إلى حد كبير، فالمقرر لدى اللغويين حديثًا أنَّ التغيّر اللغوي يرجع إلى العوامل التي تحيط بمعظم جوانب الحياة الإنسانية[1]. والأحداث المروية عن العرب في شبه الجزيرة العربية، قبل الإسلام -وبخاصة وسطها غربًا وشرقًا- تؤكد أنَّ احتكاكهم بالآخرين لم يكن كثيرًا، وهذا يؤكده ما صنعه النحويون فيما بعد «أي بعد الإسلام»، حينما اعتمدوا في أخذهم العربية عن قبائل بعينها، قبائل أظن أنَّ الانعزال وعدم الاحتكاك مع الأمم الأخرى كان أهم الشروط في اختيارها. والواقع اللغوي العربي المعاصر ربَّما يفيدنا في ذلك، فلهجات بدو شبه الجزيرة العربية الآن ربَّما تكون أقرب إلى العربية وسماتها الصوتية والصرفية، من لهجات المغرب العربي مثلًا، أو لهجات مصر أو أي قطر عربي آخر.

والنوع الثاني من العربية يسميه العربية المولدة أو الجديدة (New-Arabic)، ويصفها بأنَّها نوع لغوي أكثر تحليلًا، وكان ظهوره - حسب زعمه - راجعًا إلى التحول العام الذي يتشابه مع ما حدث مبكرًا منذ مئات السنين في اللغات السامية الشقيقة، الكنعانية والآرامية. هذا التصور يتوافق تمامًا مع تصور العلماء العرب القدامى، وتصور بلاو يتفق مع تصور فرستيخ -تقريبًا- في كل شيء، وهذه التصورات تتفق مع الروايات

(١) د. مصطفى التوني: علل التغير اللغوي، ص ٢٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

العربيـة القديمـة، الـتي تؤكـد أنَّ العـرب كان قلقهـم شـديدًا علـى نقـاء لغتهـم، وقلقهـم كان منصبًّا علـى الاسـتعمال الصحيـح للإعـراب، وفي المقـام الثـاني الاسـتعمال الصحيـح لضبـط الكلمـة وأبنيتهـا[1]. فاللحـن- حسـب الروايـات الأوْلى - كان السـبب الأسـاسي لنشـأة النحـو العـربي، وقضيـة اللحـن كانـت قـد شـغلت الجيـل الأوَّل مـن النحـاة، ، ومـن هنـا نلحـظ تقـارب الوجهتـين: إحداهمـا: الوجهـة الاستشـراقية؛ ولـذا لابـدّ مـن الوجهـة الأخـرى: الروايـات العربيـة الـتي تؤكـد تفـشي الأخطـاء اللغويـة، ومـن كلام الجاحـظ وابـن خلـدون نتأكـد أنَّ لغـة جديـدة قـد انتشـرت، وقـد كان الجاحـظ شـاهدًا علـى الواقـع اللغـوي العـربي في القـرن الثالـث الهجـري، ليؤكـد لنـا وجـود تنوعـين لغويـين. وسـوف نوضـح ذلـك في مكانـه مـن هـذا البحـث.

وتصـور كلٍّ مـن بـلاو وفرسـتيخ بقـدر مـا وجدنـاه أكـثر قبـولًا -إلى حـد كبـير- والأقـرب دون شـك إلى تفسـيرات وروايـات العلمـاء العـرب القـدامى، فإنَّـه يتضـح أكـثر بالموازنـة بـين أفكارهـم وأفـكار أصحـاب التصـورات الأخـرى مـن المستشـرقين والباحثـين في تاريـخ العربيـة وسـماتها؛ ولـذا سـوف تكـون الصفحـات التاليـة مناقشـة، وموازنـة بـين تصورهمـا والتصـورات الأخـرى في هـذا المضمـار في قضايـا: الإعـراب ظاهـرة لغويـة حقيقيـة للعربيـة القديمـة، ومناقشـة تصـور المستشـرق زويتلـر للعربيـة، ومناقشـة تصـور وانسـبرو وردود بـلاو عليـه. وسـأبدأ بعـرض القضيـة الأولى.

الإعراب ظاهرة لغوية

رأينـا سـابقاً أنَّ بـلاو يؤكـد وجـود الإعـراب في اللغـة العربيـة القديمـة، وأن البـدو ظلـوا يسـتعملونه في لغتهـم حـتى العصـر العبـاسي، واسـتمروا يتحدثـون باللغـة النقيـة - حسـب زعمـه - مثلمـا كانـوا يفعلـون ذلـك في أيـام الجاهليـة[2]؛ ومعـنى هـذا أنَّ اللغـة المعربـة لـم تكـن قاصـرة علـى لغـة الشـعر فحسـب، فالعـرب - حسـب زعمـه- قـد تكلمـوا لهجـات مختلفـة

(١) انظر بحث فرستيخ Versteegh, K.1983: p. 155.

(2) Blau, J.1986: p.39.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

في الـكلام اليـومي بخـلاف اللغـة الشـعرية النموذجيـة، وقـد كان البـدوي العـادي يتحـدث في العصـور الإسـلامية الأولى هـذه لهجـات مـن اللغـة العربيـة القديمـة، مثلـه مثـل البـدو في الجاهليـة، وقـد كان هـذا سـهلًا نسـبيًّا عليـه[1].

رأينـا بـلاو يتسـاءل: لمـاذا تغيـب ملامـح التصحيحـات الزائفـة (Psuedo – corrections) عـن الشـعر الجاهلـي؟ ومـراده بالتصحيحـات الزائفـة هـو الاسـتدلال علـى عـدم وجـود أخطـاء لغويـة عُدلـت فيمـا بعـد تعديـلًا غـير صحيـح. فهـذا المصطلـح ومصطلـح (Hyper-Corrections) «التصحيحـات الزائفـة» يعـدان مـن ظواهـر مـا يسـميه بـلاو اللغـة العربيـة الوسـيطة، حيـث يسـعى الكاتـب إلى التقـرب مـن اللغـة المعياريـة / الرسـمية دون توفيـق. نلاحـظ في كلام بـلاو الثقـة في لغـة القـرآن وعـدم الشـك فيهـا، بـل الاعتمـاد عليهـا في التأسـيس والبرهنـة علـى رؤيتـه الزاعمـة بوجـود ظاهـرة الإعـراب، وفي التأكيـد أنَّ العربيـة الفصـحى «ذات الإعـراب» لـم يصنعهـا العلمـاء العـرب.

وإذا كان بـلاو يقـول ذلـك، فـإنَّ فرسـتيخ يقـرر أنَّـه مـع الـرأي القائـل إنَّ البـدو اسـتمروا في اسـتخدام الإعـراب لقـرون قليلـة بعـد الفتـح، وأن هـذا الاسـتخدام انتهـى بسـبب تأثـير تمـدن المقيمـين، فحضارتهـم لـم تغـير لغتهـم فحسـب، بـل غـيرت أسـلوب حياتهـم كليَّـة[2]. ويؤكـد- كمـا رأينـا آنفًـا- أنَّ اللغـة العربيـة الشـعرية- القرآنيـة ولغـة الحيـاة اليوميـة شـكّلا معًـا أسـاس اللغـة العربيـة القديمـة[3]. وهـذا الزعـم الـذي يؤكـده فرسـتيخ يؤكـده مـن كلام العلمـاء العـرب القـدامى، فقهـاء اللغـة والنحويـين، وغيرهـم مـن أمثـال ابـن خلـدون. فحسـب فرسـتيخ، فـإنَّ العـرب قـد هذبـوا هـذه اللغـة وقدَّروهـا في زمـن مبكـر، ويتخـذ مـن الكتـب النحويـة الجامعـة للمـواد اللغويـة المتعلقـة بالمرحلـة الأولى مـن تاريـخ الإسـلام مسـتندًا ليؤكـد أن هـذه المـواد اللغويـة الـتي اعتمـد عليهـا النحويـون العـرب كانـت لغـة البـدو، ولغـة

(1) Blau, J.1986: p. 39.
(2) Versteegh, K.1984: p. 3.
(3) Ibid., p. 5.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

القصائـد الشـعرية والقـرآن، ليخلـص إلى رأي يزعـم فيـه أنَّ هـذا التعـارض بـين العربيـة الأدبيـة ولغـة الحيـاة اليوميـة لـم يكـن موجـودًا قبـل الإسـلام، لكنَّـه أتى مـن ظهـور اختـلاف جديـد في العربيـة ككلٍّ، وتميزهـا بانحـراف أسـاسي وجوهـري عـن قواعـد عربيـة الجاهليـة[1].

هـذا هـو تصورهمـا للعربيـة القديمـة الموصوفـة بالإعـراب، وقـد كان الإعـراب أكـثر السـمات الـتي اعـترض عليهـا الباحثـون مـن المستشـرقين والعـرب. وفي الصفحـات الآتيـة سـوف أقـوم بفحـص آراء الباحثـين في هـذه القضيـة، وأوازن بينهـا وبـين رأي بـلاو- فرسـتيخ مناقشًـا كلَّ الآراء بموضوعيـة وحياديـة.

كان طـرح بعـض المستشـرقين موافقًـا لمـا جـاء في الـتراث العـربي مـن روايـات تؤكـد أنَّ الإعـراب سـمة أصيلـة في العربيـة، وعلـى الرغـم مـن هـذا، فـإنَّ هـذه النظـرة يرفضهـا عـدد مـن المستشـرقين، منهـم فتسشـتاين، وربَّمـا يكـون مـن أقـدم المستشـرقين المنكريـن وجـود الإعـراب، وأنـه سـمة أصيلـة في العربيـة، ويذهـب إلى أنَّـه لا يوجـد أحـد يتكلـم باللغـة العربيـة الفصـحى، وأنَّ الإعـراب الموجـود في النصـوص القديمـة لا يشـير إلى نطـق في القـرن السـابع الميـلادي، وأنَّ هـذا الإعـراب وُلِـد في ظـروف تـرى أنَّ الإعـراب مكمـل، وبخاصـة في القافيـة؛ فالصوائـت يُحتـاج إليهـا لإنتـاج الـوزن والإيقـاع في الشـعر القديـم، وكذلـك - حسـب زعمـه - في نصـوص القـرآن. أمـا في القـرن الثـاني الهجـري -عندمـا كانـت علامـات الصوائـت مكتوبـة في النـص القـرآني- فأصبـح هـذا النظـام هـو المعيـار في الإعـراب، وأخـذ النحويـون العـرب مـن هـذا النظـام قواعدهـم اللغويـة، فالمـادة الـتي قعدوهـا لـم تكـن مأخـوذة مـن اللغـة الحيـة[2].

معـنى كلام فتسشـتاين أنَّ اللغـة العربيـة الفصـحى لـم تكـن لغـة حية،ومـن ثَـمَّ، فـإنَّ الإعـراب لـم يكـن سـمة لغويـة للعربيـة، ويـرى قواعـد النحـو العـربي المؤسسـة للعربيـة الفصـحى قواعـد مصنوعـة. وشـبيه بهـذا الـرأي ما ذكـره المستشـرق إشـبرنجر، وهـو أنَّ الإعراب

(1) Ibid., p. 6.
(2) See Goldziher, I.1994: p. 19.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

سـمة غـيرحيـة أو غـيرواقعيـة، بـل مخترعـات صناعيـة اخترعهـا النحويـون العـرب. ويزعـم إشـبرنجر أنَّ الإعـراب كان يسـقط في الـكلام في العصـر الكلاسـيكي، ويواصـل زعمـه ويتجـرأ على لغـة القـرآن قائـلًا: حـتى القـرآن توجـد فيـه هـذه الظاهـرة، وتكـون في بعـض الحـالات مـن أجـل الإيقـاع. فظاهـرة الإعـراب- حسـب زعمـه- معقـدة ومرتبطـة بسـمات للغـة العربيـة، وأنَّ إعـراب النصـوص القرآنيـة يملـك آلافًـا فـوق الآلاف مـن الاختلافـات[1]، ولإكمـال رأيـه هـذا يزعـم إشـبرنجر أنَّ النحويـين العـرب صاغـوا نظامًـا معقـدًا جـدًّا، وكلُّ شـخص يعـدُّ الإعـراب صحيحًـا؛ ولذلـك اخترعـوا إبداعـات «يقصـد علامـات الإعـراب» لـم يحلـم بهـا أحـد قـط، وشـيدوا اللغـة العربيـة النقيـة Pure الموجـودة - حسـب زعمـه - في عقولهـم فحسـب[2].

وكان زويتلـر صاحـب رؤيـة خاصـة ضمـن المستشـرقين الزاعمـين أنَّ الإعـراب لـم يكـن ظاهـرة حيـة؛ يزعـم فيهـا أنَّ العربيـة المعربـة لـم تكـن لغـة يوميـة للشـعراء الذيـن كانـوا يسـتخدمونها في أشـعارهم فحسـب[3]، ويفسـر ظاهـرة الإعـراب تفسـيًرا معتمدًا على نظرية معتمـدة في مجـال الآداب الشـفهية، ويخـرج مـن تطبيـق هـذه النظريـة إلى أنَّ نظـام الإعـراب كمـا يتمثّـل في الشـعر العـربي القديـم وفي القـرآن، في ضـوء هـذه النظريـة ظاهـرة ليـس لهـا قيمـة لغويـة صريحـة، وأنَّـه كان خصيصـة غريبـة، أو هـو سـمة قديمـة في اللهجـات المحكيـة كلِّهـا، ويشـمل هـذا- حسـب زعمـه- بعـض اللهجـات القليلـة المشـكوك في وجودهـا[4]. وقـد بقيـت حـركات الإعـراب في الشـعر بخاصـة مجـرد عنصـر وظيفـي مهـم للإلقـاء الشـعري الماهـر، وهـذا - حسـب زعمـه- يرجـع إلى الأسـباب الآتيـة:

هـذه العلامـات كانـت -مـن غـيرشـك- خصيصـة وظيفيـة مهمـة، وملمحًـا أساسـيًّا للغـة الأم قديمًـا منـذ أقـدم الفـترات التكوينيـة للتقليـد الشـعر الشـعبي.

(1) Ibid,.p.19 .
(2) Ibid., p.19.
(3) Zwettler, M.1978: P. 13 .
(4) Zwettler, M.1978: P. 351 .والترجمة العربية، ص

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

هـذه الخصيصـة كانـت ملازمـة للتقاليـد الصياغيـة المتفـق عليهـا للعبـارات وأنمـاط العبـارات الـتي تؤلـف تحـت شـروط الـوزن والقافيـة للقصيـدة الشـفهية، وكانـت هـذه العلامـات جـزءًا لازمًـا للتوليـد الأسـلوبي في ذلـك الشـعر[1].

إنـكار واضـح لظاهـرة الإعـراب، أو قـل لوجـود عربيـة فصـحى منطوقـة في الحيـاة العامـة أو خـارج الشـعر؛ إذ ينظـر إلى ظاهـرة الإعـراب علـى أنَّهـا لازمـة عرضيـة لفـن الشـعر. إنَّ هـذه الآراء تتجاهـل مـا أكَّـده العلمـاء العـرب القـدامى كشـهود أوّلًا، وكـرواة ومقعّديـن للغـة متسـمة بالإعـراب ثانيًـا، وتشـك في كلِّ مـا جـاء بـه هـؤلاء حينًـا، واتهامهـم بصنـع هـذه القواعـد مـن خيالاتهـم حينًـا آخـر، وأحيانًـا أخـرى، ادعـاءات محـيرة جـدًّا، كقـول زويتلـر: إنَّ المسـلمين احتاجـوا إلى تدريـب لفهـم القـرآن، وقـد كان اكتسـاب هـذه القـدرة اللغويـة يتطلـب مـن المؤمنـين الأوائـل المـرور بعمليـة مختلفـة اختلافًـا جذريًّـا عـن العمليـة التكوينيـة الـتي كان يكتسـب بهـا أسـاطين الكلمـة الشـعراء دون منـازع، ربَّمـا لا يكـون مـن المتوقـع أو المرغـوب فيـه أن يمـر المؤمـن العـادي بذلـك التدريـب الطويـل الصعـب غـير المنظـم الـذي يمـر بـه الـراوي مـن أجـل أن يكتسـب القـدرة علـى اسـتعمال لغـة الشـعر[2].

ادعـاء غريـب، فعلـى أي أسـاس قـام بـه زويتلـر؟ ومـن أيـن أتى بالأدلـة العلميـة الـتي تجعلـه يقـرر ذلـك؟ ولـم يكـن بعـض المستشـرقين منكريـن ظاهـرة الإعـراب فقـط؛ بـل كان هنـاك عـدد مـن الباحثـين العـرب يشـاركونهم الزعـم، وسـوف نعـرض تصوراتهـم في السـطور التاليـة. كان مـن أوَّائـل مـن شـكّك في وظيفـة الإعـراب قطـرب (محمـد بـن المسـتنير) المتـوفى سـنة ٢٠٦ هـ. ويفسـر د. محمـد حماسـة رأي قطـرب بقولـه: لعلـه قـد فهـم قـول النحـاة بـأنّ الإعـراب ينبـني علـى المعـاني علـى أنَّهـا المعـاني بمدلولهـا غـير النحـوي، وقـال حماسـة ونسـتدل بمثـل مـا اسـتدل علـى أنَّ العلامـة الإعرابيـة قرينـة لفظيـة أحيانًـا يترخـص فيهـا عندمـا يتضـح

(1) Ibid., p. 145. 352 –351 .والترجمة العربية ص

(2) Ibid., p.145. 352 – 351 .الترجمة العربية ص

نظام المعنى النحوي، بحيث لا يحتاج إليها في الموقع المعين، ويستدل د. حماسة على ذلك باستعمال لهجتين أو أكثر في تركيب واحد يؤدي معنى واحدًا مع اختلاف الإعراب[١].

وفي العصر الحديث نجد د. إبراهيم أنيس من أكثر المنكرين والمتشككين في هذه الظاهرة، وهو في عرض فرضيته في الإعراب يبدأ باتهام النحاة قائلًا: «ولم يقتصر عمل أولئك الذين أسسوا قواعد الإعراب على السماع والجمع واستنباط الأصول، بل قاسوا ما لم يسمعوا على ما سمعوا، وأسرفوا في قياسهم، وابتكروا في اللغة أصولًا وقواعد؛ رغبة منهم في اطّراد ظاهرة الإعراب وانطباقه على كلِّ أسلوب، أو انطباق كلِّ أسلوب عليه، حتى تمت لهم تلك المجموعة الضخمة من أصول إعرابية دقيقة ورثوها من بعدهم»[٢].

ويستمر د. أنيس في اتهامه النحويين العرب قائلًا: «ولسنا ندري كيف خضع لأولئك النحاة فصحاء العرب وأصحاب اللسن فيهم، من أمراء وطغاة عهدناهم أئمة بين أهل البيان، كالذي حدث للحجاج حين سأل يحيى بن يعمر «أتسمعوني»؟ وشدد عليه أن يبيّن له ما يسمعه من لحن، وكيف أمكن أن ينسبوا الخطأ لبعض الفحول من شعراء»[٣]. وبعد اتهامه النحاة بهذه التُّهم، ينطلق د. أنيس في طرح فرضيته، مقررًا أنَّ العربية في كثير من صيغ أفعالها وأسمائها، وفي كثير من أصواتها، وضمائرها، وأعدادها، قد احتفظت بعناصر قديمة أكثر من شقيقاتها الساميات، ويقول:» لا يتصور أنَّ العربية وحدها تحتفظ بمثل هذا النظام الإعرابي الدقيق، وهذا جعله يتساءل: كيف نشأ الإعراب الذي نظمه النحاة؟ «ليس من المعقول أن نزعم أنَّه كان كلُّه من نسج خيالهم، وأنَّهم اخترعوه اختراعًا، أو ارتجلوا قواعده ارتجالًا، دون أساس اعتمدوا عليه، ودون سماع بعض ظواهره على الأقل من أفواه الفصحاء من العرب في صدر الإسلام»[٤].

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: لغة الشعر، ص ٢٦٣.
(٢) د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص ١٧٠.
(٣) د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص١٧٠.
(٤) السابق، ص١٨٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويواصل كلامه -وكأنَّه وجد السر المهم في تحليل ظاهرة الإعراب- زاعمًا أنَّه سوف يفسر ظاهرة الإعراب بتصور جديد له ما يدعمه من نصوص اللغة، ومن روايات قديمة، ويفسر هذا التصور تلك الظاهرة تفسيرًا- حسب زعمه- علميًّا مؤسسًا على النظريات الصوتية الحديثة، ومنسجمًا مع ما نراه في اللهجات العربية الحديثة التي تعدُّ تطورًا للهجات القديمة[1]. ويجد ضالته، أو مفتاح السر -حسب تعبيره- في ظاهرة الوقف؛ إذ يقول: «يظهر -والله أعلم- أنَّ تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعرًا أو نثرًا، فإذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات، بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون. كما يظهر أنَّ الأصل في كل الكلمات أن تنتهي بهذا السكون، وأن المتكلم لا يلجأ إلى تحريك الكلمات إلَّا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل»[2]، ويقول أنيس: «ويشبه هذا الرأي ما نادى به أحد تلاميذ سيبويه، وهو الإمام محمد بن المستنير المعروف بقطرب، المتوفى سنة ٢٠٦ هـ، إذ يقول: إنَّما أعربت العرب كلامها لأنَّ الاسم في حال الوقف يلزمه السكون، فجعلوه في الوصل محركًا حتى لا يبطئوا في الإدراج، وعاقبوا بين الحركة والسكون، وجعلوا لكلٍّ واحد أليق الأحوال به، ولم يلتزموا حركة واحدة لأنَّهم أرادوا الاتساع، فلم يضيقوا على أنفسهم، وعلى المتكلم بحظر الحركات إلَّا حركة واحدة»[3].

نلاحظ أنّ ما قدمه د. أنيس يصل إلى زعم مفاده: أنَّ الحركة الإعرابية ليس لها مدلول، ويظهر هذا من قوله: «لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة، بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض»[4]، ثم يشير إلى شيء مهم في فرضيته وهو زعمه أنَّ التقاء الساكنين ربَّما يكون سببًا في تحريك أواخر الكلمات، فيقول: «فلِمَ لا

(١) السابق، ص١٨٧.
(٢) د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص١٨٨.
(٣) الزجاجي: الإيضاح، ص ٧٠.
(٤) د. أنيس: من أسرار اللغة، ص ٢٠٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

نقـول إنَّ حركـة التخلـص مـن التقـاء السـاكنين قـد خضعـت لمثـل هـذه العوامـل الـتي لهـا أسـاس علـمي في الدراسـات الصوتيـة الحديثـة، وأنَّ النحـاة لـم يتبعوهـا في كل مظاهرهـا، بـل اكتفـوا بسـماع قـدر مـن الأمثلـة مـن مصـادر متعـددة، ثـم حاولـوا بنـاء قاعدتهـم، فسـموا التخلـص مـن التقـاء السـاكنين بالكسـر أحيانًـا، وبالضـم أحيانًـا، وبالفتـح أحيانًـا، ولكنَّهـم قصـروا أمـره علـى تلـك الكلمـات، الـتي لا يعقـل أن تنسـب لهـا الفاعليـة أو المفعوليـة ونحـو ذلـك، ثـم اعتقـدوا أنَّ تحريـك أواخـر الكلمـات ولا سـيما الأسـماء كان لمعـنى يـوحي بـه هـذا التحريـك ويشـير إليـه »[1]. فرضيـة د. أنيـس واضحـة تمامًـا مـن هـذا النـص، ومـن نـص آخـر يقـول فيـه: «نحـن إذًا نرجـح أنَّ تحريـك أواخـر كل الكلمـات لـم يكـن في أصـل نشـأته إلَّا صـورة للتخلـص مـن التقـاء السـاكنين، غـير أنَّ النحـاة حـين أعيتهـم قواعـده، وشـق عليهـم اسـتنباطها، فصلـوا بـين عناصـر الظاهـرة الواحـدة. ولعلَّهـم تأثـروا في نهجهـم هـذا بمـا رأوه حولهـم مـن لغـات كاليونانيـة مثـلًا، ففيهـا يفـرق بـين حـالات الأسـماء الـتي تسـمى (Cases)، ويرمـز لهـا في نهايـة الأسـماء برمـوز معينـة، وكأنَّمـا قـد عـزَّ علـى النحـاة ألَّا يكـون في العربيـة أيضًـا مثـل هـذه الـ (Cases)[2]».

ونعترض على هذا الزعم للسبب الآتي:

هـل تأثـر النحـاة العـرب بمـا كان في اللغـة اليونانيـة مـن إعـراب؟ وهـل هـذا ممكـن؟ والمؤكـد أنَّنـا لـو قررنـا ذلـك لـكان خطـأ، فهـل اللغـات تعـير بعضهـا ظواهـر تركيبيـة مثـل ظاهـرة الإعـراب؟ ولا يحتـاج هـذا الـرأي إلى مناقشـة، فالشـك الـذي يتخيلـه د. أنيـس شـك واهٍ وضعيـف، حـتى الزعـم القائـل: إنَّ النحـاة العـرب تأثـروا في نشـأة النحـو بالفكـر اليونـاني أصبـح غـير مقبـول، فالمستشـرق الإنجليـزي مايـكل كارتـر يقـرر أنَّ هـذا الزعـم ضعيـف، وأنَّ هـذه الفرضيـة زُعمـت بجهـل[3].

(١) د. أنيس: من أسرار اللغة، ص ٢١٤.
(٢) السابق، ص ٢١٥.
(3) Carter, M, G.1972: p. 69–71.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وربَّما يكون مقبولًا زعم فرستيخ، وهو أنَّ هناك تشابهًا بين مجتمعات اللغات العربية واللاتينية واليونانية والهيلنية، يظهر من مفاهيم اللغة المعيارية، ولحن الكلام، واللهجة واللغة العامية، وهذا الموقف اللغوي في اللغات الثلاث تميز بوجود ظاهرة الازدواجية اللغوية «لغة نموذجية ذات قيمة اجتماعية وثقافية ولغة دنيا»، واللغة النموذجية لم تكن لغة أم، وإنَّما تتعلم في المدارس[1].

وهناك نص للدكتور أنيس في كتابه: «في اللهجات العربية» نراه مهمًا لأسباب سوف أذكرها في ملحوظاتي عليه، يقول فيه: «فلم تكن لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الإعراب على الصورة التي رويت لنا في كتب النحاة، وإنَّما التزام الإعراب على تلك الصورة في اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر. وقد كان الإعراب من الظواهر اللغوية التي عني بها الخاصة من العرب في خطبهم وشعرهم، وعدّ بينهم ممَّا يفخر به الأديب ويمهر في مراعاته. أمَّا في لهجاتهم ولغة التخاطب بينهم فلا نكاد نعلم شيئًا عن قواعد إعرابهم، وعمَّا التزموه في تحريك أواخر الكلمات أو إسكانها. فالإعراب كما نعرفه لم يكن إلَّا مسألة مواضعة بين الخاصة من العرب، ثم بين النحاة من بعدهم، ولم يكن مظهرًا من مظاهر السليقة اللغوية بين عامة العرب ... فمراعاة الناحية الإعرابية كانت من صفات اللغة الأدبية»[2].

ولي على هذا النص مجموعة من الملحوظات:

أولًا: إذا كان د. أنيس قد توصل في كتابه «من أسرار اللغة» إلى أنَّ الإعراب كان وسيلة للنطق في حالة التقاء الساكنين – كما رأينا في النصوص التي نقلناها من كتابه – فلماذا لم تأت إلَّا في اللغة الأدبية؟

---

(1) Versteegh, K.1986 :P. 425.

(٢) د. أنيس: في اللهجات العربية، ص ٨٤.

ثانيًـا: يزعـم د. أنيـس- كمـا رأينـا مـن نصوصـه المقتبسـة- أنَّ النحويـين العـرب هـم الذيـن اخترعـوا هـذا الإعـراب بواسـطة ملاحظتهـم الخاطئـة للتحريـك الصـوتي بـين الكلمـات، ليؤكـدوا أنَّ الإعـراب دالٌّ علـى معـاني الفاعليـة والمفعوليـة وغيرهـا، ثـم في هـذا النـص يقـرر بوضـوح شـيئًا مخالفًـا لهـذا الـذي زعمـه سـابقًا، وينـص علـى أنَّ الإعـراب مـن الظواهـر اللغويـة الـتي عـني بهـا الخاصـة مـن العـرب في خطبهـم، وأنَّـه موجـود في لغـة القـرآن الكريـم والشـعر، أي كانـت -حسـب زعمـه- مـن صفـات اللغـة الأدبيـة. وحـتى لـو ارتضينـا ذلـك فلمـاذا إذًا الاتهامـات الـتي وجههـا إلى النحـاة العـرب؟ ثـم أليـس هـذا تناقضًـا!!!؟

ثالثًـا: حسـب زعـم د. أنيـس في هـذا النـص، الإعـراب كان يهتـم بـه خاصـة العـرب في خطبهـم وشـعرهم، وسـمة مـن سـمات اللغـة الأدبيـة. فـإذا كان هـذا زعمـه فلمـاذا هـو نفسـه يتهـم النحـاة العـرب أنهـم اخترعـوا القواعـد النحويـة؟ وأنَّهـم ربَّمـا تأثـروا بمـا هـو موجـود في اللغـة اليونانيـة؟ إنـي أرى أنَّ زعـم د. أنيـس بـه كثـير مـن نقـاط الضعـف؛ لمـا يحملـه مـن تناقضـات واتهامـات غـير مـبررة للنحـاة العـرب بالاخـتراع حينًـا، وبنقـل نظـام نحـوي مـن اليونانيـة إلى العربيـة حينًـا آخـر. وكيـف يحـدث كلُّ هـذا؟

أمَّـا ثـاني الفرضيـات المنكـرة لوجـود الإعـراب الـتي انتقدهـا بـلاو فهـي فرضيـة د. داود عبـده، الـتي وصفهـا بـلاو بأنَّهـا أكـثر الآراء تطرفًـا. يـرى فيهـا داود عبـده أنَّ علامـات الإعـراب لا تـؤدي أيـة وظيفـة مهمـة، وأنَّهـا كانـت حشـوًا، وهـذه الحـركات الإعرابيـة كانـت جزءًا لا يتجـزأ مـن الكلمـة.

وفي عـرض تصـوره يشـير د. عبـده في بدايـة طرحـه إلى اختلافـه مـع زعـم د. أنيـس، مؤكـدًا أن «حـركات أواخـر الكلمـات ليسـت للوصـل إلَّا في حـالات معينـة»[1]، ثـم يدخـل في طـرح فرضيتـه، فيقـول: «أؤكـد الفـرق بـين أمريـن مختلفـين يتعلقـان بحـركات أواخـر الكلمـات؛ الأوَّل: الخـلاف حـول كـون هـذه الحـركات جـزءًا مـن الكلمـة أو أنَّـه جيء بهـا للوصـل، والثـاني: دلالـة هـذه الحـركات علـى المعـاني»[2]، ثـم يقـول: «ومـن الواضـح أنَّ ليـس هنـاك مـا يمنـع

(١) د. داود عبده: أبحاث في اللغة العربية، ص ١٠١.
(٢) السابق، الصفحة نفسها.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أن تكـون الحركـة الـتي تنتهـي بهـا الكلمـة جـزءًا منهـا دون أن تكـون هـذه الحركـة بالضـرورة دالـة علـى معـنى »[١]، ويقـول أيضًـا: «وليـس هنـاك مـا يمنـع مـن حيـث المبـدأ أن يكـون كثـير مـن الكلمـات العربيـة منتهيًـا بحركـة، وأن تكـون هـذه الحركـة جـزءًا مـن الكلمـة غـيردالـة علـى معـنى إعـرابي، وفي الفصـحى حـركات لـم يـدع أحـد مـن النحويـين أنَّهـا حـركات إعرابيـة، كحركـة آخـر جمـع المذكـر السـالم مثـلاً، أو المثـنى، أو الأفعـال الخمسـة »[٢].

ثـم يقـرر أنَّ حـركات أواخـر الكلمـات لـم يـؤت بهـا للوصـل، هادمًـا رأي د. أنيـس، فيقـول: «فـإن كانـت مثـل هـذه الحـركات ليسـت حـركات إعرابيـة وليسـت للوصـل فمـا هـي؟ »[٣] وبعـد هـذا التسـاؤل يقـرر أنَّـه «مـن الواضـح أنَّ بعـض هـذه الحـركات جـزء مـن الكلمـة، وضمـة الـذال في كلمـة «مُنْـذُ» جـزء مـن هـذه الكلمـة كضمـة الميـم وفتحـة الفـاء في «سـوف» لا تختلـف عـن فتحـة السـين في هـذه الكلمـة مـن حيـث إنَّهمـا لا يـدلان علـى معـنى »[٤]، ليخلـص مـن كلِّ ذلـك إلى «أنَّ حـركات أواخـر الكلمـات علـى أنـواع: نـوع للوصـل كالكسـرة في آخـر الكلمـة الأولى في «ذهبـت البنـت» و« هـل انسـحب»، ونـوع هـو جـزء مـن الكلمـة كالضمـة في آخـر «مُنْـذُ» والفتحـة في آخـر «سـوفَ»، ونـوع هـو علامـة كالفتحـة في آخـر «كتَـبَ» والكسـرة في آخـر «أن»[٥]، ثـم يواصـل متسـائلاً عـن الضمـة الـتي تلحـق الـلام في « جـاء الرجـلُ»، والفتحـة الـتي تلحقهـا في «رأيـت الرجـلَ»، والكسـرة الـتي تلحقهـا في «مـررت بالرجـل»، ويذكـر أنَّ الحركـة هنـا ليسـت للوصـل، وليسـت علامـات بالمعـنى الـذي أشـرنا إليـه، متسـائلًا أهـي حـركات إعرابيـة؟ أم أنَّهـا أجـزاء مـن الكلمـات؟ ليجيـب عـن هـذا التسـاؤل بقولـه: «إنَّ هـذه الحـركات الـتي تلحـق كلمـة «الرجـل» في الجمـل السـابقة لا تـدل - في نظـري- علـى وظيفـة نحويـة، أي علـى الفاعليـة، والمفعوليـة، والإضافـة، إلـخ»[٦]. وينتهـي

(١) السابق، الصفحة نفسها.
(٢) السابق، ص ١٠٢.
(٣) السابق، ص ١١١.
(٤) السابق، ص ١١٢.
(٥) د. داود عبده: أبحاث في اللغة العربية، ص ١١٣.
(٦) السابق، ص ١١٩.

زعمه بقوله: «لو كانت حركات أواخر الكلمات دوال على معانٍ لما جاز اختلاف هذه الحركات في القراءات القرآنية على الأقل، ومثل هذا الاختلاف موجود في القراءات كما هو معروف»[1].

الخلاصة أنَّ الحركات - حسب تصور د. عبده- ليست دالة على معان، وإنَّما بعضها جزء من الكلمة، وبعضها جيء به للوصل، وبهذا الوضع يكون النحاة هم الذين جمعوا هذا التنوع، وصنفوه، وأعطوا الضمة معنى الفاعلية، وأعطوا كلَّ حالة منها معنى، وكذلك مع غيرها. وهذه الفرضية التي يزعمها د. داود عبده تفترض مجموعة من الأمور، منها:

خصَّ النحاة بعض الكلمات بثبات وضعها -وهي المبنيات- وغيَّروا بعضها الآخر -وهي المعروفة بالمعربات- بالتغيير، فلم يبقوها على حالها التي وجدوها عليها، مثل المبنيات. وهذا ما جعل د. حماسة يقول: «ولكنَّنا لا نعرف على وجه اليقين لمصلحة من تم هذا التفريق، ولا لأي غرض»[2].

ظلَّت اللغة على الوضع المفترض حتى جاء النحاة، وأنَّ الشعر العربي الذي يلتزم في قوافيه حركة مطردة -مع وضعها الإعرابي الذي وصفه النحاة- كانت الكلمات فيه تلتزم بوضعها العشوائي غير المعروف على التحديد. وكان القرآن الكريم يُقرأ كذلك بهذه الطريقة المفترضة التي تؤدي إلى هذا التخالف بين الحركات وما وصفها به النحاة من اطّراد في الفاعلية والمفعولية وغيرهما[3].

اخترع النحاة هذا النظام من القواعد عن خطأ، أو لأسباب لم يفصح عنها د. داود عبده.

يتخذ د. داود من اختلاف الحركات في القراءات القرآنية دليلًا على فرضيته .وأظن أنَّ هذا الدليل خطأ، فالقراءة القرآنية نص عربي رواه وقرأ به من بعربيته، ولهذا يتحقق

(١) السابق، الصفحة نفسه.
(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: العلامة الإعرابية، ص ٢٧٤.
(٣) السابق، ص ٢٧٤- ٢٧٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

-كما يذكر د. أحمد مختار عمر- «شرط اللغوي، وهو النقل عن العربي الثقة حتى لو كان فردًا، ويتخذ من بعض القراءات دليلًا على صحة العديد من الاستخدامات اللغوية الشائعة[1]. ويذكر أنه «لا ينكر أحدٌ أنَّ القراءات القرآنية تعدُّ المثال الحي الوحيد لكيفية نطق الفصحى قديمًا وحديثًا... وأنَّ بعض القراءات قد يوضِّح المراد من الآية ويلقي الضوء على معناها، ومنه قوله تعالى في سورة المائدة آية ٨٩:» ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾، وقد قرأ أُبيٌّ وابن مسعود وغيرهما: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»؛ فدلت القراءة على شرط التتابع، كما أنَّ اختلاف القراءة قد يؤدي إلى اختلاف الحكم الفقهي»[2].

ومن ثَمَّ أقول: إنَّ د. داود في اتخاذه القراءات القرآنية دليلًا على تباين حركات أواخر الكلمات غير موفق، فكلُّ قراءة من القراءات القرآنية الصحيحة / المتواترة تتباين مع غيرها في بعض الآيات في الحركات، لكنَّ المهم أنَّه يتبع ذلك وظائف نحوية داخل النص القرآني، ولكلِّ قراءة توجيه نحوي. وكما أوضحنا، فإنَّ اختلاف القراءة قد يؤدي إلى اختلاف الحكم الفقهي، ومن ذلك الآية ٦ من سورة المائدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾، فقراءة حفص المثبتة في نص المصحف بنصب «أرجلكم» عطفاً على الوجوه والأيدي. وبهذا تكون الأرجل داخلة في الأعضاء المغسولة، أمَّا قراءة ابن كثير، وحمزة، وأبي العلاء، وغيرهم فجاءت بكسر «أرجلكم» عطفًا على الرؤوس، فتكون الأرجل داخلة في المسح مع الرأس، وقد قال الفقهاء إنَّ القرآن قد نزل بالمسح على الرأس والرجل أوَّلًا، ثُمَّ عادت السنة إلى الغسل[3].

واضح إذًا أنَّ حركات الإعراب في القراءات القرآنية دالة، ومهمة في استخراج الأحكام الفقهية، وكلُّ هذا يقوض الفرضية التي زعمها د. داود عبده، ويفنِّد ما اتخذه حجة

(١) د. أحمد مختار عمر: دراسة لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، ص١٤١ وما بعدها.
(٢) د. أحمد مختار عمر: القراءات القرآنية، رؤية لغوية معاصرة، ص ١٢- ١٣.
(٣) السابق، ص١٣.

لتقويـض الإعـراب. فاختـلاف بعـض الصحابـة في نطـق بعـض الآيـات «اقتضـت قراءاتهـم إعرابًـا مختلفًـا عـن الإعـراب الـذي جـرت عليـه القـراءات الأخـرى، رواة القـراءات نبهـوا، وكذلـك العلمـاء الذيـن أدركـوا وضـع المصطلحـات إلى أنَّ هـؤلاء الصحابـة التزمـوا (بفطرتهـم) الأثـر الإعـرابي الـذي تقتضيـه قراءاتهـم، ممَّـا يـدل علـى أنَّ الإعـراب كان موجـودًا ومطبقًـا تطبيقًـا سـليقيًّا فطريًّـا في عصـر هـؤلاء الصحابـة»[1].

ولـم يكـن بـلاو ولا فرسـتيخ أوَّل مـن دافـع عـن وجـود الإعـراب كحقيقـة واقعـة في اللغـة العربيـة، ففـي القـرن التاسـع عشـر الميـلادي دافـع المستشـرق الفرنسـي أرنسـت رينـان عـن وجـود العربيـة المعربـة، قائـلًا: إنَّ أغلـب المستشـرقين نظـروا إلى العربيـة العاميـة كلغـة واقعيـة، في حـين أنَّ العربيـة الفصحى لـم تكـن في نظرهـم إلَّا لغـة مصطنعـة ومبتكـرة بواسـطة العلمـاء ومسـتخدميها بحالـة فرديـة. ويـرى أنَّ الذيـن زعمـوا هـذا الـرأي تأملـوا نظـام العربيـة الفصـحى علـى أنَّـه محاولـة سـيئة لإخضـاع اللغـة العربيـة لقواعـد أجنبيـة، وافترضـوا أنَّ النحويـين العـرب افتتنـوا بغـنى اللغـة اليونانيـة، وأخـذوا قواعـد نحـاة اللغـة اليونانيـة[2].

ولـم يكـن رينـان وحـده مـن المستشـرقين الذيـن دافعـوا عـن الإعـراب كحقيقـة واقعـة ضـد الزعـم المنكـر وجـوده في العربيـة، بـل هنـاك كثيـر منهـم يـرى هـذا الـرأي. وقـد رأينـا ذلـك في عرضنـا رؤى تيـودور نولدكـه، وجولدزيهـر. ومنهـم المستشـرق الألمـاني برجشتراسـر (١٨٨٦- ١٩٣٣م) (مـن أهـم مَـن كتـب في تحقيـق النصـوص، وقـد كان يـدرس في الجامعـة المصريـة)، الـذي يقـرر أنَّ «الإعـراب سـامي الأصـل، تشـترك فيـه اللغـة الأكديـة، وفي بعضـه الحبشـية، ونجـد آثـارًا في غيرهـا أيضًـا»[3]. لعـلَّ بحـث المستشـرق الألمـاني المعاصـر فالـترمولر عـن العربيـة القديمـة في نقـوش فـترة مـا قبـل الإسـلام الـذي يبحـث في النقـوش الـتي خلفتهـا قبيلـة الأنبـاط، وهـي عربيـة قطنـت في شـمال الحجـاز، يظهـر باطمئنـان وجـود العربيـة

(١) د. محمد حسن جبل، دفاع عن القرآن، ص٧٩.
(٢) Renan, A. 1858: p. 399. وأشير إلى أنَّ هذا الرأي مفاده أنَّ بعض المستشرقين رأى الفصحى مصطنعة، وأن النحاة هم من صنعها. وهذا الرأي وجدناه عند د. إبراهيم أنيس.
(٣) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، ص ١١٦.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

القديمة منذ سنة ٣١٢ قبل الميلاد، فهي «شكّلت حتى سنة ١٠٦ بعد الميلاد دولة مزدهرة، وقد خلفوا لنا في المنطقة الممتدة من شبه جزيرة سيناء في الغرب حتى حائل في الشرق، ومن دمشق في الشمال حتى مدائن صالح في الجنوب نقوشًا كثيرة يرجع العدد الأكبر منها إلى القرن الأوَّل قبل الميلاد والقرن الأوَّل بعد الميلاد، وكتبت هذه النقوش باللغة الآرامية»[١]، ثم يتكلم عن طبيعة هذه الكتابات، فيقول مولر: «وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذه الكتابات تعكس في أثناء ذلك تصريف الحالات الإعرابية، وهو W (و) حالة الرفع المختوم بضمة، وقياسًا على ذلك حالة الإضافة المختوم بـ y كسرة، غير أنَّه من المحتمل أنَّه قد أقلع في النبطية – العربية في الفترة التي يرجع إليها الكم الأساسي من النقوش عن تصريف الحالات الإعرابية»[٢].

ومن المستشرقين الأكثر حداثة أ كليف هولز (Holes, C.)

الذي يدافع عن الإعراب في العربية ويقرر أنَّ اللغة العربية الفصحى «لغة الشعر الجاهلي» تُرى كدرجة عالية من التطور في نظامها الإعرابي، وفي درجة من الغنى في اشتقاقها الصرفي، وموسومة بسمة تأليفية حاسمة. هذا الدليل النوعي الذي افترضه بعض الفيلولوجيين أصيل قديم من داخل تاريخ تطور اللغات السامية الأخرى المعروفة، ويشير هولز إلى أنَّ هذا موضع جدال[٣]. ويؤكد أنَّ السمات الثلاث التأليفية من ملامح اللغة السامية الأم التي انعكست في العربية الفصحى هي:

الصائت القصير النهائي في حالات الإعراب الذي يلحق الاسم، مثل: (الملكُ) في حالة الرفع، (والملكَ) في حالة النصب، (والملكِ) في حالة الجر.

- التنوين الذي يلحق معظم أنواع الاسم، مثل: ملكٌ، وملكًا، وملكٍ.
- الصائت القصير اللاحق الفعل الماضي جاء لتبيين صيغته.

---

(١) فالترمولر: العربية الشمالية المبكرة، ص ٩١.

(٢) السابق، ص٩٣.

(3) Holes, C.1995: p. 8.

وهـذه العلامـات «الصوائـت القصـيرة النهائيـة» لحالـة موسـومة في الاسـم، وكلُّ هـذا يسـمى عنـد النحويـين العـرب (الإعـراب)، وهـذه السـمة توجـد في لغتـين مـن اللغـات السـامية القديمـة، أحدهمـا: الأكاديـة، والأخـرى: الأوجريتيـة[1].

ويدلّل على الإعراب من ما أسماه الشاهد المباشر الموجود في البنية اللغوية لعربية ما قبل زمن الرسول ﷺ (٥٧٠ - ٦٣٢ م)، وأنه يوجد في التأليف الشفوي والشعر المروي في المادة اللغوية المبكرة التي أُرِّخ لها ببداية القرن السادس الميلادي، وبدأت تجمع وتكتب على أيدي النحويين في البصرة والكوفة في أواسط القرن الثامن الميلادي[2].

وهذا فردريك قدورة (Cadora, F.) يقرر أن القرن السابع الميلاد وُجِدَ فيه نوعان من العربية، أحدهما: النوع التأليفي المعرب، والآخر: النوع التحليلي غير المعرب كنتيجة لتقسيم لهجي مبكر، فقد تطورت بعض اللهجات بسرعة كبيرة، وبعضها لم يتطور. ويرى أن النوع الأوَّل أنتج معظم الملامح التي أصبحت في العربية الأدبية المشتركة، ومن ثَمَّ العربية الكلاسيكية[3]. وهذا ما لوحظ بعد الفتوحات الإسلامية من وجود لحن على كلِّ مستويات اللغة، صوتًا، وصرفًا، وتركيبًا- وهو ما يفسره بلاو وفرستيخ بميلاد العربية المولدة غير المعربة.

فهناك عدد كبير من المستشرقين يؤكدون- كما رأينا - وجود الإعراب كظاهرة لغوية في العربية الفصحى المنطوقة، وأنها كانت حية في الجاهلية وصدر الإسلام، وكما رأينا أدلتهم متعددة، وسوف نقف عند سمة يتخذها بلاو وبعض المستشرقين دليلًا على وجود الإعراب حيًّا في اللغة الفصحى، وهذه السمة هي التنوين.

يقرر بلاو أنَّه من دراسته بقايا التنوين في اللهجات البدوية الحديثة يجد دليلًا على أنَّها شواهد من طور أقدم لهذه اللهجات، وأن الإعراب كان موجودًا فيها بصورته

(1) Ibid., p. 41.
(2) Ibid.,p. 8.
(3) Cadora, F, J.1992: p. 9.

الكاملة. والحقيقة أنَّ الباحثين في تاريخ العربية اختلفوا حول زعم بلاو هذا، فبعضهم يؤيد كلامه مستشهدًا به، وبعضهم يرفض هذا الزعم. وقبل أن نخوض في تفاصيل أكثر، نؤكد أنَّ دراسة د. عبد العزيز مطر للهجة البدو في إقليم ساحل مريوط – التي قُدمت رسالة ماجستير في كلية دار العلوم – جامعة القاهرة– تؤكد لنا وجود ظاهرة التنوين في هذه اللهجة حديثًا، وعلى حد قول مطر: «من الظواهر النحوية البارزة في اللهجة انتهاء بعض الكلمات الخالية من أداة التعريف «ال» بحركة قصيرة بعدها نون، أي: التنوين»[1]، وقد تساءل مطر: هل الحركة القصيرة السابقة نون التنوين حركة إعراب؟ وأتى بأمثلة من هذه اللهجة البدوية الحديثة لهذا التنوين، منها قولهم: «مِنْ يومًا مارينـاك»، وقولهم عندما ينسكب سائل أو يسقط طعام على الأرض: «رِزقٍ تبدَّد زيـد»[2]، و«فلين ابن عمًّا لي، أو ابن خالاً لي، أو جارًا لي»[3].

ويصل د. مطر إلى أنَّ الحركة التي تسبق التنوين ليست حركة إعراب؛ لأنَّها – حسب زعمه – «لا تتفق وما وضعه النحاة من قواعد، فلو كانت حركة إعراب لقيل فيها على الترتيب: ابن عمٍ، وابن خالٍ، جارٌ.... هي إذًا ليست حركة إعراب، بل الاسم المنون قد اتخذ حركة واحدة مطردة قبل النون .... هذه الحركة فتحة فيما عدا مثالًا واحدًا حرِّك بالكسر»[4].

نلاحظ هنا من المادة التي أوردها د. مطر من لهجة البدو في ساحل مريوط أنَّ الفتحة هي الحركة السابقة للتنوين في أغلب الأمثلة التي ذكرها، وهذا يتفق مع ما ذكره بلاو[5]. أمَّا لماذا كانت الفتحة؟ فالجواب عند د. مطر، يقول: إنَّ الذي يحدد هذه الحركة أحد عاملين:

- طبيعة الصوت، وإيثاره حركة معينة.
- انسجام الحركة مع ما يكتنفها من أصوات.

(١) د. عبد العزيز مطر: لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط، ص٢٣٣.
(٢) السابق، ص٢٣٣.
(٣) السابق، ص٢٣٥.
(٤) د. مطر: لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط، ص ٢٣٥.
(٥) د. مطر: لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط، ص٢٣٦.

ويستشهد بما ذكره أ. إبراهيم مصطفي من أنَّ الفتحة حركة خفيفة مستحبة عند العرب، يحبون أن يشكِّل بها آخر الكلمات في الوصل ودرج الكلام[1].

يظهر من تصورد. مطر أنَّ التنوين موجود في لهجات البدو الحديثة بكثرة، وأنَّه ليست له دلالة إعرابية، وهذا متفق مع ما ذكره بلاو -إلى حد كبير- لكن د. مطر - بطبيعة دراسته - لم يذكر لنا مرجع وجود التنوين في هذه اللهجة، على عكس بلاو الذي يحاول جاهدًا أن يؤكد أنَّ التنوين موروث لغوي من العربية القديمة؛ ليؤكد بواسطة ذلك وجود الإعراب ظاهرة لغوية في العربية القديمة، وهو ما جعل الباحثين يختلفون في المسألة، ويتوزعون بين مؤيد ومخالف. فذهب كليف هولز أنَّ هناك أثرًا واحدًا من الأنظمة الأساسية للإعراب في العربية القديمة ما زال موجودًا في بعض لهجات البدو الحديثة، وهو التنوين، وأفرد لذلك بحثًا في كتابه: العربية الحديثة، عنونه بقوله: « دليل من لهجات البدو الحديثة » ويمكن - حسب زعمه - أن نقول على العموم:

يوجد التنوين في اللهجات البدوية الحديثة لا الحضرية، بمعنى أنَّ الذين يستعملونه ما زالوا يعيشون بطريقة الرعي في حياتهم.

يمكن أن نعدّ هذه اللهجات الدرجة العليا من الاحتفاظ به في وسط وشرق شبه الجزيرة العربية.

حدوث التنوين أكثر في اللغة المصوغة (Formulatic Language) ومنها الشعر الشعبي، والقصص الملحمي، والأمثال.

يكون التنوين في الكلام غير الرسمي دائمًا اختياريًّا (Optional).

(١) الأستاذ إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، ص٧٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

لا تعادل بين التنوين كما في اللهجات البدوية الحديثة والتنوين الموجود في اللغة العربية الفصحى، كما أنَّ التنوين في اللهجات البدوية الحديثة يختلف من لهجة إلى أخرى.

التنوين في اللهجات البدوية الحديثة غير مطرد (ين) و (ان) في مقابل (ون) و(ان) و(ين)، بمعنى اختلافه عما هو محدد في نظام الإعراب في اللغة العربية الفصحى.

ليخلص من هذه الملاحظات إلى أنَّ التنوين في لهجات البدو الحديثة منحدر مباشرة من نظام إعرابي كامل في اللغة الفصحى التي من الواضح أنَّها استعملت في العربية المحكية في زمان ظهور الإسلام، وبعده بعدة قرون[1]. وهذا رأي يقترب - إلى حد ما - من رأي بلاو. أمَّا زويتلر وأوينز، فقد كانا مختلفين مع ما زعمه بلاو؛ فالمستشرق الأمريكي زويتلر يرى أنَّ فحص الأمثلة التي أعطاها بلاو للتنوين من اللهجات الحديثة يبيّن - حسب زعم زويتلر - الآتي:

- أمثلة هذا التنوين قد أخذت من الأشعار والأقوال البدوية غير اليومية، كالقصص، والأمثال؛ ويبدو وجوده مقصورًا عليها في الغالب، وهي غالبًا تراكيب ظرفية(Adverbial)، أو مسكوكات (Fossilized).
- معظم هذا التنوين من نوع اللاحقة (ًا) التي تكافئ تنوين النصب في العربية، بغض النظر عن الوظيفة النحوية.
- استعماله العرضي دائمًا اختياري[2].

ويزعم زويتلر(Zwettler, M.) أنَّه في ضوء هذه الحقائق، فإنَّ الأمر يكون مستغربًا أن يخطر على بال أحد أن يقترح أنَّ أصول هذا التنوين اللهجي تعود إلى نظام إعرابي ثلاثي الحركات.[3].

(1) Holes, C.1995: p. 14.
(2) Zwettler, M. 1978: p. 22. 308 والترجمة العربية ص.
(3) Ibid.,p. 122. 309 والترجمة العربية ص.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويعـارض المستشـرق أويـنز (Owens, J.) (مـن أكـثر المستشـرقين الحاليـين إنتاجًـا في تاريـخ اللغـة العربيـة، والـتراث النحـوي العـربي) زعـم بـلاو في هـذه القضيـة، ويـرى -بعـد أن حلـل الأمثلـة الـتي جـاء بهـا- أنَّ هـذه الاسـتعمالات للتنويـن مـا هـي إلَّا بقايـا مـن شيء قديـم، ومـن الصعـب الاسـتنتاج مـن الأمثلـة المعزولـة أنَّهـا بقايـا مـن نظـام إعـرابي، إضافـة إلى أنَّ هـذه اللاحقـة الاسـمية (تًـا) أو (بٍ) منتشـرة لهجيًّـا أكـثر ممـا هـو مفـترض، ففـي العربيـة الإسـبانية يوجـد(اً) حسـب زعـم كورينـتي، وفي اللهجـات العربيـة السـودانية (اً)، وفي لهجـات شـرق السـعودية، واليمـن؛ فهـذه اللاحقـة متشـابهة تركيبيًّـا للاحقـة «التنويـن» في العربيـة الفصـحى، لكـنَّ معظـم الدراسـات مختلفـة في كونهـا علامـة أو تنوينًـا[1].

ويـرى أويـنز أنَّ ظاهـرة التنويـن في اللهجـات الحديثـة لهـا سـمات مختلفـة، وتاريخهـا اللغـوي متبايـن، وتتعلـق اختلافاتـه قديمًـا وحديثًـا، لفظًـا ومعـنى، بأسـباب، منهـا:

أولًا: إنَّ التتابع من الصائت + النون في عملية التنوين، هو وحدة صرفية مفردة تبدو وتختفي كوحدة Unit.

ثانيًا: الصائت قيمة واحدة بمفرده «كسرة، ضمة، فتحة» وفقًا للهجة ما، وغير قابل للاستبدال، كما هو الحال في النظام الإعرابي.

ثالثًا: التنويـن دائمًـا اختيـاري، ويسـتعمل كلاحقـة للأسـماء فحسـب، ولا نسـتطيع أن نقـول إنَّـه يفيـد تنكيـر الاسـم «كمـا في العربيـة الفصـحى»؛ لأنَّ التنكـير يبيَّن في كلِّ اللهجـات مـن فقـدان أداة التعريـف.

رابعًـا: وظيفـة التنويـن الأولى تبـدو في إفـادة علاقـة وصفيـة بـين الاسـم + النكـرة + الوصـف، ويبـدو هـذا الاسـتعمال متماسـكًا في كلِّ اللهجـات العربيـة الإسـبانية، الـتي وصفهـا كورينـتي، والعربيـة النيجيريـة لبعـض النيجيريـين، الذيـن يتكلمـون لهجـة عربيـة في شـمال

(1) Owens, J.1998: p. 216.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

نيجيريـا- حسـب زعـم أويـنز-، حيـث يلحـق التنويـن الاسـم فحسـب، في حـين يلحـق في اللهجـات الحديثـة لنجـد الاسـم والصفـة[1].

ورغـم وجاهـة نظـر كلٍّ مـن الباحثـين زويتلـر وأويـنز إلَّا أنَّ بـلاو يحـاول أن يلفـت النظـر إلى أنَّ التنويـن في اللهجـات الحديثـة البدويـة سـلوك لغـوي يتشـابه مـن حيـث الوظيفـة مـع العربيـة القديمـة. والمعـروف أنَّ البـدو أكـثر احتفاظًـا بالقديـم؛ لكونهـم منعزلـين. والباحـث يعيـد التسـاؤل مـرة أخـرى، لأسـباب عـدة، منهـا:

التنوين في اللهجات البدوية الحديثة أكثر مما يوجد في اللهجات الحضرية.

يسـود في دراسـة اللغـات الآن البحـث في الظواهـر اللغويـة، وبخاصـة الظواهـر القديمـة، كالتنويـن، وهـو بحـث مهـم ومثـير.

لمـاذا لا يثـير التشـابه علـى مسـتوى النطـق فحسـب، بـين التنويـن في الفصـحى والتنويـن في اللهجـات البدويـة الحديثـة تسـاؤلًا لـه مغـزى لغـوي بصـورة مـا؟

إنَّ تسـاؤل بـلاو شـرعي في هـذه القضيـة، ويتناسـب مـع فرضيتـه القائلـة: إنَّ هنـاك عربيـة قديمـة معربـة كانـت محكيـة حـتى بعـد ظهـور الإسـلام، وبخاصـة عنـد البـدو، وبـدأت عقـب الفتوحـات لغـة جديـدة متحللـة مـن ظواهـر لغويـة قديمـة، وليـس كلّ الظواهـر، ومـن هنـا يـأتي التسـاؤل مفهومًـا مـن السـياق الخـاص بفرضيتـه الـتي نراهـا أكـثر تماسـكًا مـن غيرهـا مـن الفرضيـات؛ لكونهـا متماثلـة في كثـير مـن جنباتهـا ومزاعمهـا مـع مـا رواه العلمـاء العـرب. وسـوف نوضـح ذلـك في مكانـه مـن هـذا البحـث.

وإذا كان بـلاو يـرى في الأمثلـة المعطـاة مـن اللهجـات البدويـة الحديثـة دليـلًا علـى وجـود الإعـراب قديمًـا، أليـس لـه الحـق في ذلـك؟ إنَّ هـذه الظاهـرة مثـيرة بالفعـل، والمثـير أيضًـا عـدم الموضوعيـة عنـد كثـير مـن الباحثـين في قضيـة الإعـراب، فليـس غريبًـا أنَّ تتفـق اللهجـات

(1) Owens, J.1998., p. 216.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الحديثة جميعًا في التجرد من علامات الإعراب، «فقد اعترى أصوات العربية وقواعدها في اللهجات المحكية كثيرٌ من صنوف التغير والانحراف، وخضعت لقانون من قوانين التطور الصوتي»[1]. وليس اتفاق اللهجات الحديثة في إسقاط الإعراب أمرًا غريبًا، لكن مع ذلك ففي بعض اللهجات، بل في معظمها آثار للإعراب، تتمثل في[2] الإعراب بالحروف، كما جاء في «أخوك» و«أبوك» و«يمشون»، والتنوين – أيضًا – لماذا لا يكون أثرًا مادام قد وجد في لهجات البدو الحديثة الأكثر محافظة، وكذلك لأنَّه ليس الظاهرة الوحيدة الموروثة من العربية القديمة، بل هناك كثير من الظواهر غيره.

يفترض كثير من الباحثين أنَّ الإعراب وقواعده على درجة عالية من الدقة، بما لا يعقل معه أنَّها كانت موجودة أصلًا، وبخاصة عند العرب الأميين آنذاك، وهؤلاء حقيقة ينسون أو يتناسون ما هو موجود في اللغات الأخرى، فهناك لغات كثيرة معربة لم يسقط منها الإعراب إلَّا حديثًا كاللغة الآيسلندية، ثم إنَّ في اللغات الإلصاقية كالتركية والكورية «ما يصعب حصره من الظواهر اللغوية التي إذا قيس بها الإعراب كان أخف منها وطأة وأيسر سبيلًا، ففي تلك اللغات يتم تركيب البنى والتراكيب بإلصاق عدد من الصيغ الصرفية بشكل يبدو معقدًا للدارسين، وإن كان مثل هذا التعقيد أمرًا يغيب عن بال الناطقين بتلك اللغات، ففي أستراليا نحو ٢٠٠ لغة، معظم أهلها الناطقين بها من القبائل البدائية المختلفة، وأنظمة تلك اللغات معقدة جدًّا، ولم يجد أبناؤها صعوبة في نطقها والحديث بها»[3]. فهل هؤلاء البدائيون في أستراليا أكثر ذكاءً من عرب الجاهلية حتى لا ينطقوا بظاهرة كالإعراب؟ فهم أميُّون، ولا يستطيعون النطق بالإعراب بدرجة عالية من الدقة.

إنَّ زعم بعض المستشرقين وغيرهم في هذا الأمر يبتعد عن الواقع الحاصل في العالم كلِّه، صحيح أنَّ النحاة كثيرًا ما كانوا صارمين في قواعدهم، وفي كثير من أعمالهم ابتعدوا عن الواقع اللغوي بتفضيلهم لهجة على أخرى، وأسلوبًا على آخر، لكن هل كانوا كذابين

(١) د. سمير استيتية، المشكلات اللغوية في الوظائف والمصطلح والازدواجية، ص١٣٠.
(٢) السابق، ص١٣١.
(٣) د. سمير استيتية، المشكلات اللغوية في الوظائف والمصطلح والازدواجية، ص١٣٣– ١٣٤.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وملفقين؟ ووضعوا قواعد لغة ليست موجودة، أو لغة من خيالهم؟ إنَّنا إذا قلنا ذلك نكون غير موضوعيين. وعليه، نقرر أنَّ تصور نولدكه، وفك، وفيشر، وبلاو، وفرستيخ، كان الأكثر قبولًا لدي، لواقعية طرحهم؛ لأنهم في الحقيقة لغويون متعمقون في الفكر اللغوي، وفهمهم لطبيعة اللغة، وكان بعدهم عن التخمينات دليلًا على عمقهم العلمي، ومرجعيتهم اللسانيات التاريخية، بل إنَّ أحدهم وهو فرستيخ ينطلق في فرضيته من تفسيرات العلماء العرب القدامى، فقد وضع كلامهم موضع تقدير واحترام دون تشكيك وريبة.

وبعد أن ناقشنا الإعراب ومزاعم كل فريق من الباحثين الرافضين والمؤيدين لوجود الإعراب كظاهرة أصيلة في العربية، أناقش الردود العلمية بين بلاو- وزويتلر المتعلقة بتصور كلٍّ منهما للفصحى.

مناقشة رد بلاو على زويتلر

يتساءل بلاو في نقده لتصور زويتلر: لماذا صاغ الشعراء العرب قصائدهم بدون أي انعكاس للعربية المولدة عليها؟ ونحن قد عرضنا تصور زويتلر للعربية الفصحى التي يراها لغة فنية صنعها الشعراء، وفي هذه الرؤية الإعراب ظاهرة مهمة في صناعة الإيقاع الشعري، والشعراء ورواتهم البدو هم الوحيدون الذين ظلوا محافظين على تقليد الشعر الشفهي هذا الذي تولدت منه العربية، فكما سبق عرضنا لرأي زويتلر القائل: إنَّ اللغة العربية الفصحى - حسب تعبيره- إن صح لنا أن نطلق عليها هذا الاسم «يقصد إطلاق اسم لغة عليها»، لا تزيد عن كونها لازمة عرضية لفن الشعر، والوسيط المميز للأداء الشعري، ولا يمكن تمييزها عن القصيدة نفسها، ولا عزلها عنها. وحسب زويتلر، فقد أسبغ القرآن الاعتراف بهذا الوسيط (اللغة)، وجعل من هذه اللغة الشعرية شكلًا لغويًّا متاحًا في استعماله لغير الشعراء[1]

(1) Zwettler, M.1978:P.166. 391 والترجمة العربية ص.

ولي على تصور زويتلر مجموعة من الملاحظات سوف أطرحها أثناء مناقشتي تصوره، فإنَّ ما يذكره زويتلر قد يخالف -أحيانًا- المنطق، فإنَّنا إذا أخذنا بقوله فلابدَّ أن نلغي كلَّ ما ذكر في التراث العربي عن الإعراب، وعن الصياغة التأليفية لما يسمى باللغة العربية الفصحى، فالنحاة على أحسن وجه - إن كان هذا الزعم صحيحًا- لم يفهموا الظواهر اللغوية، وربَّما كانوا كذابين أو ملفقين، اخترعوا تراثًا ضخمًا مبنيًّا على الأكاذيب والافتراء، لكن الأمر غير ذلك، فمن الأمور التي تقف أمام تصور زويتلر هذا مجموعة من العقبات التي يجب ألَّا يغفل عنها الذين يتمسكون بهذا التصور، ومنها الآتي:

إذا كان القرآن الكريم نزل على صورة اللغة المستعملة في الشعر، «وهي ليست لغة حسب زويتلر، وإنَّما وسيط أو لازمة عرضية»، فلماذا لم يستعمل الظواهر العروضية الموجودة في الشعر، وهي حسب زعمه لازمة عروضية، فأين العروض في القرآن؟ فالقرآن الكريم بقراءاته المتعددة جاء الإعراب فيه على صور متعددة، فقد تختلف العلامة الإعرابية من قراءة إلى أخرى.

ثاني العقبات التي تواجه هذه الفرضية من الناحية اللغوية، هي أنَّ العلماء العرب القدماء قد سجلوا ظواهر لغوية متعددة في كتاباتهم، بعضها ما زال موجودًا في بعض اللهجات العربية، وإن تطور بشكل أو بآخر- وهذا ما سوف نراه في الفصل الأخير من هذا البحث- بمعنى أنَّهم ليسوا أغبياء أو كذابين، ومن ثَمَّ لا يجب إغفال ما ذكروه عند التعرض للقضايا اللغوية الخاصة بتاريخ العربية، وهذا ما يقرره فرستيخ.

ثالث العقبات ليس من المعقول أن نطبق نظرية مّا طبقت على صيغ شعرية في سياق ثقافي مختلف، «سواء كان الشعر الملحمي لهوميروس أم الشعر اليوغسلافي الشعبي»، على الشعر العربي الجاهلي، فأظن أنَّ عقبات جمة تقف أمام هذا التصور.

وهذا التصور كان عرضة لكثير من النقد، ومنهم بلاو حينما ذكر شيئًا مهمًّا، وهو أنَّ الشعراء العرب ما دام صاغوا شعرهم بهذه الصيغ العروضية، ولغتهم اليومية كانت مختلفة تمامًا عن هذه الصيغ الشعرية، فلماذا لم يطبقوا هذه الصيغ العروضية على لغتهم اليومية؟ أليس هذا سؤالًا مهمًّا كان يجب على زويتلر الإجابة عنه.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ومـن العلـل الـتي سـاقها زويتلـر للبرهنـة علـى أنَّ الإعـراب لـم يكـن أصيـلًا عنـد البـدو الإقـواء، «فقـد كان الخطأ العـروضي المسـمى بالإقـواء ... يعـد كأنَّـه نتيجـة لعـدم القـدرة على التعامـل مـع اللغـة الشـعرية الـتي تتصـف بقـدر عـالٍ مـن التأليفيـة المعربـة»[1]، ويعتمـد في ذلـك علـى قـول ابـن سـلام: «الإقـواء، وهـو في شـعر الأعـراب كثـير، وهـو فيمـن دون الفحـول مـن الشـعراء أكـثر... والبـدوي لا يأبـه لـه»[2]، ممَّـا جعلـه يسـتخلص من هـذه الروايـات الآتي:

- الإقواء كان شائعًا في أشعار الأعراب.
- كان الإقواء أكثر شيوعًا بين الشعراء المغمورين منه عند الشعراء الفحول.
- يجب على الشعراء المحدثين أن يتجنبوه؛ لأنَّهم يعرفون أنَّه خطأ.
- كان البدوي عمومًا لا يبالي أن يقع فيه؛ لذلك يمكن التسامح معه بقدر أكبر[3].
- ليخرج من هذا إلى ما أسماه «بعض الحقائق»، وهي:
- أنَّ أفضـل الشـعراء القدمـاء لـم يكونـوا يجيـدون الخصائـص التأليفيـة للغـة الشـعر إجـادة كافيـة تمكنهـم مـن إجـادة اسـتعمال الإعـراب الصحيـح في القافيـة بطريقـة مطـردة.
- يجـب أن يعـد الشـعراء المولـدون – وهـو مـا يعـني أيضًـا أنَّهـم مثقفـون ويعرفـون القـراءة– مفرطـين إذا مـا وقعـوا في الإقـواء، ذلـك أنَّهـم قـد دُربـوا لغويًّـا وبلاغيًّـا.

قاعـدة تجنـب الإقـواء لا يمكـن أن تنطبـق علـى الشـاعر البـدوي عمومًـا؛ لأنَّـه لـم يكـن يقصـد أن يعتـني في قصيدتـه بإنهـاء كلمـات القافيـة بحـركات إعـراب مطـردة وصحيحـة[4].

(١) زويتلر: العربية، ص٣٦٩.
(٢) السابق، ص٣٦٩.
(٣) السابق، ص ٣٦٩–٣٧٠.
(٤) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ص٥٨.

يحـاول زويتلـر عـن طريـق إيـراد هـذه النقـاط أن يصـل إلى أنَّ الإعـراب لـم يكـن إلَّا سـمة مـن سـمات الشـعر فحسـب، لينفي تفـوق البـدو كـرواة للعربيـة المُعرَبـة؛ لأنَّ الشـعراء الكبار أنفسـهم كانـوا يخطئـون في صياغـة شـعرهم، ومـن أمثلـة ذلـك الإقـواء الـذي وقعـوا فيـه. والحقيقـة أنَّ الإقـواء يدخـل في إطـار الضـرورة الشـعرية، والضـرورة لغـة خاصـة بالشـاعر، يجـوز لـه اسـتعمالها وإن كان فيهـا مخالفـة للقيـاس وللأصـول الـتي وضعهـا النحـاة، وقـد دفـع النحـاة وعلمـاء العربيـة عامـة إلى إفـراد الشـعر بلغـة خاصـة أنَّهـم لمـا جمعـوا اللغـة وجـدوا لديهـم مـادة كبـيرة مـن الشـعر خالفـت أقيسـتهم وقواعدهـم؛ لذلـك عـدوا كلَّ مـا جـاء في الشـعر مـن قواعـد خارجـة عـن قواعدهـم رخصـة يجـوز للشـاعر اسـتعمالها، وعلَّلـوا ذلـك بـأنَّ للشـعر أسـلوبًا خاصًّـا بـه ليـس للنـثر[1].

وقـد وقـع خـلاف في حقيقـة الإقـواء، أهـو ضـرورة، أم خطـأ نحـوي، أم خطـأ عـروضي، أم غـيرذلـك؟ فذهـب الفـيروز أبـادي إلى وصفـه دون إبـداء حكـم، فقـال: « وأقـوى الشـعر، خالـف قوافيـه، برفـع بيـت وجـر آخـر، وقلـت قصيـدة لهـم بـلا إقـواء، أمَّـا الإقـواء بالنصـب فقليـل »[2]، وهنـاك مـن جعلـه لحنًـا نحويًـا، ومـن هـؤلاء د. رمضـان عبـد التـواب، وتجلـى ذلـك في قولـه: «ويمكننـا أن نعـد مـن اللحـن كذلـك مـا يسـمى لـدى العروضيـين بالإقـواء، والإقـواء في رأي اللغويـين المحدثـين ليـس في الحقيقـة مـن الخطـأ في الموسـيقي كمـا يريـد أصحـاب العـروض أن يحملونـا علـى هـذا الفهـم، بـل هـو في الواقـع خطـأ نحـوي »[3]. ويـرى د. كمـال بشـر أنَّ ظاهـرة الإقـواء ليسـت خطـأ، وهـذا ظاهـر في قولـه: «ليسـت مـن بـاب الخطـأ كمـا يظـن بعـض النـاس، إنَّهـا في رأينـا تـجيء علـى وفـاق قاعـدة جزئيـة تختلـف مـع القاعـدة الـتي سـموها «قاعـدة عامـة»، أوتـجيء علـى وفـاق لهجـة مـن اللهجـات أوتـجيء علـى وفـاق مسـتوى لغـوي معـين، وهـذا كلـه – في نظرنـا – صحيـح في بابـه »[4].

(١) د. خديجة الحديثي: دراسات في كتاب سيبويه، ص ٩٤– ٩٥.
(٢) الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مادة: قوي.
(٣) د. رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، ص٩١.
(٤) د. كمال بشر: دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، ص ١١٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويشـيرد. حماسـة إلى أنَّ هنـاك نمـاذج مـن تلـك الـتي حكـم عليهـا النحـاة في الشـعر بأنهـا ضـرورة، وأثبـت مـا يناظرهـا في الاسـتعمال مـن القـراءات القرآنيـة[1]، قائلاً: «هـل لنـا بعـد ذلـك أن نعـدّ هـذه الاسـتعمالات الـتي لهـا نظائـر في القـراءات القرآنيـة ضـرورة؟ وهـل لنـا أن نخطـئ هـذه القـراءات كمـا فعـل بعـض النحـاة، أو نقـول إنَّهـا أيضـاً ضـرورة؟»[2]. ليخلـص مـن ذلـك إلى أنَّ مـا جـاء في الشـعر ممَّـا عـدَّه النحـاة ضـرورة ليـس إلَّا خصائـص لهجيـة تسـربت إلى اللغـة الأدبيـة المشـتركة الـتي تغذيهـا- حسـب زعمـه- جميـع اللهجـات. وينتهـي إلى رفـض حكـم النحـاة بالضـرورة لأمريـن، هما:

- **أحدهما:** أنَّ هـذا الاسـتعمال قـد يكـون مـن خصائـص لهجـة معينـة، لكنَّـه تسـرب إلى اللغـة الأدبيـة المشـتركة، وقبلتـه، وصـار جـزءًا مـن تكوينهـا العـام.
- **والآخـر:** أنَّ هـذا الاسـتعمال مـن خصائـص لهجـة معينـة، ولـم تقبلـه اللغـة المشـتركة، فتفـرَّد بـه الشـاعر[3].

وأرى أنَّ القضيـة تأخـذ شـكلًا آخـر، وهـو أن العربيـة الـتي قعَّدهـا النحـاة كانـت عربيـة علـى سـجية هـؤلاء العـرب وسـليقتهم، ولـم يكـن لهـا تقعيـد. وبالفعـل يصـح مـا ذكـره د. حماسـة ود. بشـر، ومفـاده: أنَّ هـذه الضـرورة الشـعرية ليسـت سـوى نمـاذج تخالـف القاعـدة الـتي قعَّدوهـا، وهـم قـد قعَّـدوا علـى مـا سـلكته أغلـب المـادة اللغويـة، ومـن هنـا جـاءت نمـاذج عديـدة تخالـف هـذه القواعـد. وهنـا نسـتأنس بـرأي المستشـرق الألمـاني فيشـر الـذي قسَّـم العربيـة إلى عربيـة مـا قبـل الكلاسـيكية، والعربيـة الكلاسـيكية، وعربيـة مـا بعـد الكلاسـيكية، والفصحى النموذجيـة الحديثـة. الفـترة الأولى، وهـي مـا قبـل الكلاسـيكية، نصوصهـا لـم تكـن وقعـت بعـد تحـت تأثيـر معيـاري للنحـو المـدرسي، ومـن ثَـمَّ تقـدم لغتهـا تنوّعًـا أكـبر، سـواء في بنـاء الصيـغ والنحـو، أم في المجـال الصـوتي[4].

---

(١) انظر السابق، ص ص٣٢١-٣٢٦.

(٢) السابق، ص٣٢٧.

(٣) السـابق، ص٣٢٨، وانظـر أيضًـا: مقـال د. محمـد حماسـة: حركـة القافيـة بـين الاطـراد الموسـيقي وسـلامة الإعـراب، ص ص٨٩- ٩٣.

(٤) فولـف يتريـش فيشـر: العربيـة القديمـة في روايـة إسـلامية، ضمـن: دراسـات في العربيـة، ترجمـة د. سـعيد بحـيري، ص١٠٩.

ما يهمنا في هذا الكلام أنَّ هذه المادة التي جاءت قبل أن يُقعَّد النحو قدمت تنوُّعًا في بناء الصيغ، والنحو، والأصوات؛ وهذا واضح في كتاب سيبويه وكتاب معاني القرآن للفراء. ولمَّا قعد النحاة هذه المادة اللغوية الكبيرة لاستخراج قواعد لتعليم العربية الصحيحة للأجيال الجديدة، ولغير العرب، ووقفوا أمام كثير من المواد التي تخالف قواعدهم، فرموا إياها مرة بالضرورة، ومرة بالقلة، أو الشذوذ.

ومن ثَمَّ لابدَّ أن يُفهم الإقواء وغيره من الضرورات داخل السياق اللغوي العربي، والاسترشاد بأقوال العرب القدماء، وفي ضوء كلِّ ذلك نفهم أنَّ الإقواء وغيره من الضرورات، وكذلك بعض القراءات القرآنية التي تطاول عليها بعض النحاة، إنما هي ظواهر وتنوعات لعربية جاءت على ألسن فصحاء، وجاءت على وجه من وجوه العربية، قد يكون قليلًا، لكنَّه جاء من عربي بلهجة من لهجات العرب.

ومن هذا كلِّه نرفض زعم زويتلر وتقريره أنَّ الإقواء دليل على ضعف الشعراء في تملكهم الصنعة العروضية للشعر، وفوق ذلك، فإنَّ زويتلر في البرهنة على صحة ما يزعم يجمع آراء متفرقة لمستشرقين لم يزعموا زعمه، محاولًا أن يجد أية فكرة أشار إليها باحث ما تقترب من تصوره، ومن تلك الأمثلة ما يستشهد به زويتلر من آراء لكورينتي للرد على بلاو، على الرغم من أنَّ كورينتي يرى أنَّ هناك تزامنًا ما بين اللهجات المعربة وغير المعربة قبل الإسلام؛ بمعنى وجود ازدواجية لغوية عند العرب قبل الإسلام؛ وهذا بعيد عن تصور زويتلر، ومن ذلك قوله: «ويبدو أنَّ كورينتي نفسه قد أحسَّ بوجود بعض القرابة والعلاقة المتبادلة بين العربية والشعر العربي القديم، ذلك أنَّه كثيرًا ما يجد نفسه مدفوعًا إلى تفسير الحمل الوظيفي المهم لعلامات الإعراب في الشعر القديم بالاحتجاج -مثلًا- بـ «الخصيصة التقليدية للذوق الجمالي عند العرب، والخلفية البلاغية لمثل هذه الأنماط الأدبية..... إنَّ الشعر يعتمد على نظام الإعراب اعتمادًا كبيرًا، وذلك أنَّه يتبع الأنماط القديمة اتباعًا دقيقًا؛ ولهذا السبب نفسه، فإنَّه لا يمثّل الوضع اللغوي الفعلي تمثيلًا صادقًا، وهو بعيد جدًا عن الأشكال المحكية، وعن بنية اللغة في تلك الفترة، كما أنَّه سطحي، وغير لافت للنظر»[1].

(١) زويتلر: العربية ص٣٥٢- ٣٥٣.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

فهو هنا يأخذ كلام كورينتي مدعيًا قرب فهم كورينتي من زعمه هو، بالرغم من أنَّ كلَّ ما زعمه كورينتي في هذا البحث «١٩٧١» حسب قوله هو: «لقد حاولت في مقال كتبته سلفًا عن الحمل الوظيفي للإعراب أن أقلِّص الفارق الزمني والتركيبي بين العربية القديمة ذات الطابع التوليدي والعربية الوسيطة ذات الطابع التحليلي، وأشرت في هذا الصدد إلى مناطق شمال الحجاز، وسوريا، وجنوب العراق، على أنَّها المناطق الأساسية والأولى التي شهدت سقوط علامات الإعراب قليلة الحمل الوظيفي، لتأذن لظهور العربية الوسيطة، وحلولها التحليلية ذات الحمل الوظيفي العالي. هذه الظاهرة بدأت موجة واسعة من المد الطبيعي للتطور إلى جنوب الحجاز، وتهامة، واليمن، وباقي شبه الجزيرة العربية، إلى درجة أن ينتهي الإعراب كليَّة من اللهجات العربية بحلول القرن التاسع الميلادي، بدون أي تدخل من لغات الأمصار»[١].

واضح أنَّ كورينتي يرى رؤية متكاملة تختلف تمامًا عما يزعمه زويتلر، وبالرغم من ذلك، يحاول زويتلر أن يلتمس فيما يزعمه كورينتي ما يؤكد به تصوره، وهيهات هيهات لزويتلر من ذلك. ثم وهو الأهم، فإنَّ تصور زويتلر هذا نابع من نظرية أدبية تسمى بالنظرية الشفاهية / أو نظرية الصيغ الشفاهية (Oral–Formulaic Theory)[٢]، طبقت

(1) Corriente, F.1975: P. 2122-.

(٢) تعود هذه النظرية بشكل رئيس إلى التحليلات التي قام بها ميلمان باري، وألبرت ب. لورد، حيث طبق باري أولًا فكرة القالب الصياغي على شعر هوميروس، ثم توصل إلى الاستنتاج المقبول اليوم بشكل عام، ومفاده: أنَّ هوميروس كان شاعرًا شفويًا، وقد التفت باري من أجل تعزيز رؤيته إلى تقليد حي للشعر الملحمي الشفوي؛ أعني التقليد الذي حافظ عليه، وانهمك فيه مغنون يوغسلافيون أميون، وقد ارتجى أن تكشف رؤى جديدة تطبق في النظم. وأوضح باري بمساعدة لورد أنَّ الشعر المنظوم شفويًا مميز بشكل واضح عن الشعر المكتوب. فحسب هذه النظرية، الشاعر الذي يعرف القراءة والكتابة –وفي كلِّ عصر وثقافة– كان له وقت لكي يحكم ويهذب أفكاره قبل أن يدونها في شكلها المحدد، وحسب هذه النظرية أيضًا، لغة الشاعر مصطنعة، كما أنَّها معجم شعري متخصص، يرتفع عن فوارق اللهجة، وهي واضحة لكلِّ الناس، وهذا المعجم الشعري مُقام على أساس قوالب صياغية موروثة من الماضي، وأقرتها المتطلبات الوزنية. انظر حول ذلك: جيمز مونرو النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، ترجمة د. فضل العماري، ص٢٦– ٣٠، ود. حسن البنا عز الدين: النظرية الشفاهية

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

على آداب شفاهية بعينها؛ وهذا المجال أظنه بعيدًا عن مجال تاريخ اللغة العربية. إنَّني أرى أنَّ زويتلر ليس مؤهلًا بهذه النظرية البعيدة عن هذا المجال لتقديم مزاعم وفرضيات، أقل ما توصف أنَّها واهية تمامًا. انظر إلى ما يقوله زويتلر حينما يزعم أنَّ الإعراب كان نتيجة الدُّربة على رواية الشعر الجاهلي (الشفوي حسب كلامه) في مراحل تدريب الشاعر، حتى يصبح شاعرًا محترفًا[1]، في الوقت الذي يعرف الباحثون أنَّ امتلاك العلامات الإعرابية يتطلب تصورًا لدورها الإعرابي، ولا يمكن أن يأتي هذا التصور من مجرد الدربة[2] والحفظ كما يدعي زويتلر. وها هو باحث عربي يقدم دراسة نقدية لهذه النظرية، ليقرر قائلًا: «إنَّ البحث العلمي الغربي الذي نشأت فيه هذه النظرية قد رفضها رفضًا حاسمًا، بل استنكرها استنكارًا، وكان المتعاطفون معهم حذرين»[3].

ثم يعدد د. العماري أفكارًا ترفض النظرية رفضًا تامًّا، منها:

اكتشاف نقوش عربية في قرية الفاو، مدينة كندة، وظهور اسم حجر جد امرئ القيس في إحدى الحفريات، فإذا كان الشعراء هم الصفوة المثقفة ذهنيًّا في قبائلهم، وإذا كانت الكتابة معروفة بين عرب الجاهلية، فإنَّه من الطبيعي أن نفترض أنَّ الشعراء العرب أضافوا ذلك الفن إلى إنجازاتهم، ووظفوه جزئيًّا -على الأقل- في نظم أشعارهم وحفظها.

أوضحت بيتسون أنَّ التقليد العربي عرف دورين: دور الشاعر، ودور الراوية، في حين أنَّ التقليد اليوغسلافي قام به رجل واحد، هو «مغني الحكايات».

حتى لو سلمنا بوجود وفرة من القوالب الصياغية في الشعر العربي، فإنَّ ذلك ليس برهانًا قاطعًا -بأية حال من الأحوال- على شفوية الشعر العربي المتقدم «... إذ إنَّ الشعر الأنجلوسكسوني، هو من النوع غير الشفوي، أي كتبه كاتب، مملوء بالقوالب

وموقع الأدب العربي منها، مقدمة لترجمته كتاب أونج: الشفاهية والكتابية.

(1) Zwettler, M.1978: P. 156.

(٢) د. فضل العماري: الأسس الموضوعية لدراسة الشعر الجاهلي، ص١٦٦.

(٣) السابق، ص١٦٦.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الصياغيـة كذلـك»[1].

وينقـل د. العمـاريّ تفصيـل رفـض المستشـرق الألمـاني شـولر (Schoeler, G.) الـذي يـرى أنَّ هـذه النظريـة خاطئـة تمـام الخطأ، للأسـباب التاليـة:

لقـد أقيمـت هـذه الأطروحـة -مثـل مثيلاتهـا مـن الأطروحـات الـتي قـام بهـا أتبـاع بـاري لـورد، ممـن طبقـوا هـذه النظريـة علـى نصـوص متباينـة مـن العصـور القديمـة، ومـن القرون الوسـطى- علـى مقدمـات اسـتدلالية خاطئـة.

هـذه الأطروحـة أخفقـت إخفاقًـا ذريعًـا في فهـم تفـرد القصيـدة في الشـعر العـربي الجاهلـي، ولا يمكـن أن يفسـر مجيء القصائـد إلينـا بأسـماء مؤلفـين -في حـين ظلـت الملاحـم اليونانيـة وغيرهـا مجهولـة المؤلفـين- تفسـيرًا مقنعًـا بذلـك.

القصائـد العربيـة المتقدمـة العظيمـة لـم تكـن مرتجلـة إلَّا في حـالات اسـتثنائية، في كلتـا الفترتـين القديمـة والمتأخـرة، وعلـى الأصـح، فإنَّهـا كانـت نتيجـة عمـل بطـيء متأمـل فيـه[2].

وكمـا هـو واضـح مـن أقـوال الباحثـين في الغـرب، ومـن موقـف المستشـرق الألمـاني شـولر بشـكل خـاص، فـإنَّ نظريـة الروايـة الشـفوية للشـعر الجاهلي (نظريـة زويتلـر ومـن معـه) «خاطئـة تمـام الخطـأ»؛ لأنَّهـا لـم تبـال بالنظـر في كينونـة هـذا الشـعر، وهـذه اللغـة الـتي صيـغ بهـا، بـل أخـذت نظريـات مـن ميـداني علـم الاجتمـاع، والـتراث الشـعبي، وأخضعـت القصيـدة العربيـة لتلـك الأقـوال. وكمـا يقـول د. العمـاري: فـإنَّ «هـذه النظريـة سـتخمد كمـا خمـدت نظريـة الانتحـال، وسـيبقى الشـعر الجاهلـي مجـالًا للدراسـات النقديـة الفنيـة»[3].

ومـن هـذا العـرض، ومـن هـذه التحليـلات العلميـة لنظريـة زويتلـر، نـرى أنَّهـا غـير مقبولـة في الدراسـات النقديـة والفنيـة، وهـو المتخصـص فيهـا، فمـن أيـن لـه شـرعية البحـث في تاريـخ

(١) د. فضل العماري: نظرية الرواية الشفوية، ص٢٥- ٢٧.
(٢) السابق، ص٣١- ٣٢.
(٣) د. فضل العماري: نظرية الرواية الشفوية، ص٣٢.

اللغـة العربيـة وهـو غـير المتخصـص فيـه!!!؟، وكذلـك فـإنَّ أسـس نظريتـه -حسـب تعبـير شـولر- خاطئـة تمـام الخطـأ. إنَّ مـا ميـزفـك وفيشـر وبـلاو وفرسـتيخ أنَّ أدواتهـم البحثيـة لغويـة خالصـة، والأسـس الفكريـة والعلميـة القائمـة عليهـا مزاعمهـم قائمـة في الغالـب على طبيعـة اللغـة، ومرجعيتهـم لغويـة خالصـة، ويدركـون تطـورات العربيـة، ومـا ذكـره النحـاة والعلمـاء العـرب، وتشـهد بذلـك أبحاثهـم العديـدة في هـذا المجـال.

ويتضـح مـا أكدتـه هنـا مـن مناقشـة كلٍّ منهمـا لرؤيـة وانسـبرو في العربيـة الفصـحى، ورؤيتـه قائمـة على أنَّ دراسـته أكـدت البرهنـة على عكـس افتراضـات العلمـاء المسـلمين، فالعربيـة الفصـحى لـم تكـن أبـدًا متطابقـة مـع أيـة لهجـة عربيـة واحـدة[1]، ويـرى أنَّ الحـل في تفسـير اللغـة العربيـة الفصـحى ديـني، وليـس فيلولوجيـا، ويـأتي بالأدلـة الـتي تـروق لـه، وتؤكـد رؤيتـه، ومنهـا -كمـا ذكرنـا سـابقًا- «أنَّ هنـاك أسـبابًا دينيـة لرفـض لغـة اليهـود والنصـارى»[2]، ثـم يطلـق نظريتـه القائمـة على أنَّ العربيـة الفصـحى تصـور على أنَّهـا صيغـة قديمـة للغـة السـامية، وأنَّ الإعـراب أسـاسي في تأثـيره الفعـال في عمليـة التواصـل. وهـذا في رأي وانسـبرو غـير مثبـت، وغـير مـبرر[3].

وأرى أنَّ هـذا التصـور بـه عيـوب كثـيرة، لعـلَّ أبرزهـا مـا ذكـره بـلاو في ردِّه على وانسـبر بقولـه: «إنَّ النـص القـرآني أصبـح مقدَّسًـا مبكـرًا جـدًّا، وبسـرعة شـديدة»[4]، فقـد تطـاول وانسـبرو على النـص القـرآني مؤيـدًا وجهـة نظـر فولـرز الـتي مفادهـا: أنَّ القـرآن نـزل بعاميـة مكـة غـير المعربـة، ثـم كُتـب بالفصـحى فيمـا بعـد. ويـرد عليـه بـلاو فيقـول: «لـو أنَّ النـص القـرآني عُـدِّل وفقًـا لقواعـد اللغـة العربيـة الكلاسـيكية في نهايـة القـرن الثامـن الميـلادي لطابـق كلُّـه قواعـد الفصـحى، فكمـا نعـرف لـم يكـن هـذا هـو الحـال»[5]. ويذكـر بـلاو كذلـك أنَّ الانحرافـات الخاصـة بالكتابـة في القـرآن مقارنـة بالنطـق الفصيـح، وأنَّ هنـاك كثـيرًا مـن الأمثلـة الـتي لا

(1) Wansbrough, J.1977: p. 87.
(2) Wansbrough, J.1977: p. 105.
(3) Ibid.,p. 109 .
(4) Blau., J.1981: p. 217.
(5) Blau., J.1981: p. 217.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

توجد للألف علامة في الكتابة القرآنية، وهذا يؤكد في رأيه رفض أي تعديل على النص القرآني، ولو في علامات الكتابة، فالنص القرآني أصبح مقدسًا من بداية النزول[1].

وتطرق بلاو إلى الشك في الإعراب، وذكر أنَّ الملامح القديمة للعربية الكلاسيكية / الفصحى -كما يشار في أصواتها وكجزء من بنيتها الصرفية- تنتمي إلى كلام منطقة منعزلة، وعندما نقارنها باللغات السامية نجد أنها ملامح قديمة موجودة في صياغة اللغة الشعرية المشتركة في العصر الجاهلي، التي هي -تقريبًا- معكوسة في القرآن[2].

تتضح من ردود بلاو على وانسبرو رفضه رؤيته، إضافة إلى فهم بلاو للتاريخ الثقافي واللغوي العربي بشكل مميز، ووعيه بعدم إمكانية تغيير لغة القرآن، التي يدعيها فولرز، ووانسبرو، وفهم بلاو طبيعة الإعراب على أنَّه ظاهرة لغوية سامية قديمة. ويشير فرستيخ إلى أنَّ وانسبرو يرى أن المعيار الكلاسيكي (النحو العربي) أُسِّس في وقت متأخر في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وهو بذلك يرفض كتب النحو العربي، ومادته المستقاة من المرحلة المبكرة جدًّا من تاريخ الإسلام، فالنحويون العرب حاولوا صياغة قواعد لغوية لهم، من كلٍّ من لغة البدو ولغة الشعر والقرآن. وفي رأي فرستيخ أنَّ الازدواجية اللغوية لم توجد قبل الإسلام، ولكنَّ التقابل بين المستويين اللغويين (الفصيح والعامي) حدث مع ظهور الاختلافات الجديدة في اللغة العربية ككلٍّ، التي تميزت بانحراف أساسي وجوهري عن قواعد العربية المستعملة في الجاهلية؛ ومن هنا فصاعدًا، فإنَّ التاريخ اللغوي للعرب في أي مكان صوَّر التقابل ما بين المستوى العالي والمستوى الهابط، مع التباين الاجتماعي والوظائف الثقافية[3].

رد مقنع أرتضيه؛ لِبعده عن الشك والتخمين بدون مبرر، والبحث الهادف إلى النظر العلمي فحسب، بأيديولوجية علمية هدفها الحقيقة، والحقيقة فحسب، وهذا جانب منير

(1) Ibid., p. 218.
(2) Ibid.,p. 218 .
(3) Versteegh, K.1984: P. 5–6.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

في تصـوّر كلٍّ مـن هـذا الفريـق. ومـن مناقشـة تصـوّر كل منهمـا (بـلاو وفرسـتيخ)، وردودهمـا على الفرضيـات الأخرى، تتبّين سـمات تصـوّر كلٍّ منهمـا. وأعتقـد أنَّ أكـثر سـماتهما: تعمقهما في تاريـخ العربيـة ومراحلها، والتاريـخ الثقافي للعـرب، والابتعـاد عن الشـك في المصـادر العربية، والتزامهما بالمنهـج العلـمي. وهـذا التصـور لتاريـخ العربيـة عنـد هذيـن المستشـرقين لـه أسـاس عنـد مستشـرقين سـابقين درسـوا تاريـخ العربيـة بالمنهـج نفسـه، وخلصـوا إلى تصـوّر قريـب مـن تصورهمـا، وإن كانـت دراسـات بـلاو وفرسـتيخ في الحقيقـة نحـت منـحىً متعمقًـا أكـثر في تاريـخ العربيـة، يتوافـق والمسـتجدات العلميـة في هـذا المجـال.

إنَّ التصـوّر القائـم على أنَّ العربيـة بسـماتها قبـل الإسـلام عربيـة متسـمة بسـمات معينـة كلغـة سـامية، اكتسـبت الإعـراب وغـيره مـن اللغـة السـامية الأم – كبعـض اللغـات السـامية كالبابليـة والأوجريتيـة – وأنَّ العربيـة القديمـة ليسـت لغـة لهجـة معينـة، وإنَّمـا هـي لغـة الشـعر الجاهلـي، ولغـة القـرآن فيمـا بعـد، وأنَّ اللهجـات العربيـة مـن هـذا النـوع العـربي القديـم المتسـم بالسـمة التأليفيـة، وإن كان هنـاك بعـض الاختـلاف، لكنَّـه اختـلاف لا يخـرج اللهجـات عـن كونهـا نمطًـا تأليفيًّـا مثلهـا مثـل لغـة الشـعر الجاهلـي؛ نجـده عنـد مستشـرقين سـبقوا بـلاو وفرسـتيخ، منهـم: نولدكـه، وفيشـر، وفِـك؛ والأخـير كان في كتابـه «العربيـة» الأكـثر زعمًـا لهـذه الآراء، والأكـثر شـهرة في هـذا المجـال.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

فالمستشرق الألماني نولدكه قرر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي أنَّ العرب كانوا يتكلمون لهجة تتشابه كثيرًا مع العربية الفصحى، وكانت تستخدم العلامات الإعرابية، لكن بدون إضافة تنوين[١]، وأنَّ الرعاة البدو في الجبال القريبة من مكة كانوا يتخاطبون في منازعاتهم الصغيرة وخصوماتهم الشخصية بهذه اللغة الشعرية، وكذلك رؤساء تغلب وبكر يخاطبون ملك الحيرة في أشعارهم -التي لا شكَّ في صحتها- ويفتخرون بها، ويطلبون العطاء بها.

ويؤكد نولدكه أنَّنا إذا كنا لا نجد في الشعر الجاهلي العربي- على قدر سعته - اختلافًا لغويًّا شديدًا -إذا صح كلُّ هذا- فيكون من النادر أن يظن أنَّ كلَّ هؤلاء العرب الذين هم في معظمهم أميون، كما أنَّهم غيورون على قبائلهم، قد اجتهدوا في أن يعبروا عن آرائهم وأحاسيسهم بلغة أجنبية أو مصنوعة كليَّة[٢]؛ بمعنى أنهم نظموا شعرهم بلغتهم. ويشير أيضًا إلى أنَّ أعلم علماء النحو العربي يجعل من أوَّل شخص قادم من البادية بإبله - ذلك البدوي الذي لم يتعلم، الذي لا يحفظ عشرين آية كاملة من القرآن، ولا يعرف شيئًا من مفاهيم النحو النظرية -حكمًا فاصلًا في قضايا النحو، فهؤلاء العلماء المدققون لا يعرفون إلَّا اللغة الكلاسيكية الوحيدة التي كان البدو يتكلمونها.[٣]

تطورت هذه الفرضية في التفاصيل؛ فمن خلال ما قام به المستشرق يوهان فِك أكدَّ أنَّ العربية الفصحى احتفظت بالإعراب، وهو سمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية باستثناء البابلية القديمة قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي، ويستشهد لذلك بأشعار عرب البادية قبل الإسلام «الشعر الجاهلي»، حيث نري علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان[٤]. ويقرر أنَّ مواقع كلام القرآن الكريم

(١) تيودور نولدكه: اللغات السامية، ص٧٣.
(٢) السابق، ص٧٥- ٧٦.
(٣) تيودور نولدكه: اللغات السامية، ص ٧٦- ٧٧.
(٤) فِك: العربية، ص٣٤- ٣٥.

الاختياريـة لا تـترك أثـرًا لشـك فيـه[1]، وينتهـي إلى أن التطـور في العربيـة بـدأ مـع الفتـح الإسـلامي، حينمـا انتقلـت العربيـة بعـد وفـاة الرسـول ﷺ إلى خـارج حدودهـا آنـذاك، إلى مواطـن لغويـة أجنبيـة[2].

وأشـيرهنا إلى أنَّ مـا يميـز هـذه الفرضيـة هـو موضوعيتهـا، وأنَّهـا جـاءت في سـياق تاريـخي، كانـت قـد اشـتهرت فيـه فرضيـة فولـرز التشـكيكية في لغـة القـرآن القائلـة: إنَّـه نـزل بلهجـة مكـة العاميـة، وبـدون إعـراب، ثـمُ فُصِّـح، وجـاءت هـذه الفرضيـة أيضًـا في وقـت انتشـار وذيـوع نظريـة الانتحـال في الشـعر الجاهلـي علـى يـد مارجليـوث ود. طـه حسـين، في هـذا السـياق، وجدنـا إنـكارًا كاملًا لوجـود الإعـراب كحقيقـة واقعيـة في العربيـة، ولـم يكـن علـى يـد المستشـرقين فحسـب؛ بـل وجدنـا ذلـك مزعومًـا مـن د. إبراهيـم أنيـس وغيـره. أقـول إنَّ كتـاب العربيـة لفِـك جـاء في وقـت مهـم، وهـو في خمسـينيات القـرن العشـرين، وإنَّـه ليؤكـد أيضًـا أنَّ هنـاك عـددًا مـن المستشـرقين كان هدفهـم العلـم، وهـدف العلـم الحقيقـة.

وجـد بـلاو هـذا التصـوّر عنـد فِـك، ومـن دراسـاته وأبحاثـه المتعـددة في تاريـخ العربيـة تأكـد لـه صحـة بعضهـا، واختلافـه مـع فِـك في بعضهـا الآخـر، ليصـل بـلاو إلى فرضيـة متكاملـة مفادهـا: أنَّ عربيـة قديمـة سـادت في العصـر الجاهلـي وتكلـم بهـا العـرب، وأنهـا متسـمة بالسـمات التأليفيـة، أي: إنَّهـا تسـتعمل الوحـدات الصرفيـة المتصلـة أكثر، وكذلـك علامـات الإعـراب الـتي جعلـت ترتيـب الجملـة حـرًا. ويذكـر بـلاو أنَّ العربيـة القديمـة تمثَّلـت في الصناعـة الشـعرية، وقـد مثَّلـت نوعًـا قديمًـا أكـثر مـن اللغـات السـامية، كالكنعانيـة، والآراميـة، بالرغـم مـن أنَّهـا ظهـرت في مرحلـة تاريخيـة قوامهـا مئـات السـنين بعـد هـذه اللغـات، فقـد حافظـت علـى العلامـات الإعرابيـة، وكلِّ الأصـوات الـتي مـن المفـترض أن توصـف بأنَّهـا مظهـر مـن مظاهـر اللغـة السـامية الأم[3].

(١) السابق، ص ٣٥.
(٢) فِك: العربية، ص ٣٧.
(3) Blau, J.1986: p. 35–36.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويرى أنَّ لغة جديدة بدأت في الظهور مع التحول العام الذي تكوَّن مبكرًا منذ مئات السنين، حيث الصيغ الأقدم للأكادية، والكنعانية، والآرامية، لتتطور إلى مراحل لغوية أخرى يراها بلاو تتشابه مع العربية المولدة أكثر من العربية القديمة؛ لذا لن يندهش أي فرد من وجود اللغة العربية المولدة. في المقابل، فإنَّ استمرار العربية القديمة غير متوقع؛ لكونها - دون شك - لهجة منعزلة خارجة عن المحيط[1]. هذه اللغة الجديدة يصفها بأنَّها لغة تحليلية، تحللت من الإعراب، ومن سمات كثيرة تتسم بها العربية القديمة، ويرى أنَّ الفتوحات الإسلامية الكبرى - حسب زعمه - غيَّرت البناء التأليفي للغة القديمة بشكل كامل، فقد اتصل العرب بالشعوب الأخرى، وكان من نتائج ذلك الاتصال هذه اللغة الجديدة.

مصادر بلاو وأدلته آتية في المقام الأوّل من تاريخ اللغات السامية، ثم من تحليلاته العديدة لمراحل العربية، ووعيه التام بتحليلات المستشرقين للظواهر اللغوية في تلك اللغات؛ وهذا واضح في رده على كورينتي حين زعم أنَّ الحمل الوظيفي لعلامات الإعراب قليل في العربية، فردَّ عليه بلاو بقوله: إنَّ لغات عدة -منها الروسية، وغيرها- يأتي فيها الإعراب زائدًا، إضافة إلى أنَّ تحليلاته العديدة لعربية اليهود القديمة، وعربية النصارى القديمة -أي: لمواد لغوية قديمة- وكذلك عرضه تاريخ الازدواجية اللغوية في العالم العربي، كلُّ هذا كان مصدر مزاعمه وآرائه هذه.

أمَّا تصوّر فرستيخ الذي دافع عن الفرضية نفسها، فإنَّ مصادر حججه آتية من مصادر يختلف بعضها عن بلاو، فهو يعتمد على كلام النحويين العرب كمرجعية لأقواله، ومن ذلك أنه يقرر وجود لغة عربية واحدة قبل الفتوحات مؤكد ما ذهب إليه من شهادة النحويين العرب. وفي تصوّره أنَّنا لو أخذنا كتابات النحويين بجدية لوجب أن نحترم ونقبل صدق ما نسبوه إلى البدو، فقد استخدم النحويون مصطلح «البدو» ليس للإشارة إلى رواتهم في المدن فحسب، وإنَّما للإشارة إلى القبائل المتنقلة التي ينطق أفرادها اللغة

(1) Ibid.,p. 36.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

العربيـة النقيـة[1]، إضافـة إلى أنَّـه يتابـع ابـن خلـدون في تصـوَّره للواقـع اللغـوي العـربي القديـم.

وهـو في تمسـكه بهـذه الفرضيـة يتابـع فِـك في زعمـه أنَّ التغـيَّر مـن العربيـة القديمـة إلى العربيـة المولـدة يجـب شـرحه ببيـان تأثـير اللحـن في سـكان المناطـق الـتي فُتحـت، ويؤكـد رأي بـلاو الزاعـم أنَّ تغـيرات اللغـة العربيـة كانـت نتيجـة الفتوحـات[2].

وتصـور فرسـتيخ مؤيـد لفرضيـة بـلاو، وفِـك ونولدكـه، وفيشـر، كمرجعيـة علميـة، وأنَّ اللغـة العربيـة الشـعرية – القرآنيـة، ولغـة الحيـاة اليوميـة في صـدر الإسـلام شـكّلا معًـا أسـاس اللغـة العربيـة القديمـة[3].

وهكـذا دافـع كلٌّ منهـم عـن هـذه الفرضيـة بمرجعيـات علميـة مختلفـة، وكانـت النتيجـة واحـدة، وهـي أنَّ لغـة عربيـة قديمـة اسـتمرت حـتى صـدر الإسـلام كلغـة أم، تسـتخدم في الحيـاة اليوميـة وفي الأدب، حـتى الفتوحـات الإسـلامية.

(1) Versteegh, K. 1984: p. 3.
(2) Ibid., p.4.
(3) Ibid., p. 5.

الفصل الرابع

النظريات التشكيكية وأثرها في تناول العربية الفصحى

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يرتبط البحث في تاريخ العربية والعربية الفصحى، وقضايا أخرى، بالمناهج الاستشراقية، وبخاصة المنهج القائم على الشك الذي ساد عند عدد كبير من المستشرقين، وطُبق بسلبياته وإيجابياته على الشعر الجاهلي، وكذلك على السيرة النبوية، وتاريخ العربية. وأذكر أنَّ هناك كثيرًا من المستشرقين رفضوا المقولات التشكيكية الاستشراقية المطبقة على التراث العربي، ومن هؤلاء المستشرق الهولندي كيس فرستيخ، الذي رفض التشكيك في المصادر الإسلامية التي أرَّخت للنحو العربي، وذكر أنَّ هذه المصادر مهمة في التأريخ للنحو العربي، وكذلك في التأريخ للغة العربية[1].

وذكر فرستيخ أيضًا أنَّ المستشرقين المهتمين بالمرحلة المبكرة من تاريخ الإسلام يشككون في المصادر العربية الإسلامية، ويرى فرستيخ- أن الإسناد من عادات الثقافة الإسلامية، وينتهي إلى أنَّ المصادر الإسلامية دائمًا عندما تشير إلى كلام معين قِيل سابقًا تذكره بإيراد سلسلة الرواة، ويشير فرستيخ إلى أنَّ ما قام به جولدزيهر من تحليلات للحديث الشريف، وتصويره عملية الإسناد بطريقة تبدو كأنها مشبوهة حكم غير منصف؛ ذلك أنَّ منهج التوثيق عند العلماء المسلمين غالبًا ما يساء فهمه؛ فالعرب عندما يستعملون صيغًا مثل: «حدثني»، و« أخبرني» إلخ، فإنهم لا يتذكرون رواية غير رسمية، لكنَّهم يشيرون إلى طريقة رسمية لنقل الكلام، بمصطلحات مقننة مميزة؛ وهذا موجود في الحديث، وأيضًا في كتب الطبقات. ويقرر فرستيخ أنَّنا عندما نجد في كتاب سيبويه: حدثني يونس عن عيسى بن عمر، فليس هذا التعبير غامضًا وإنَّما معناه نسبة الرواية إلى مصادرها[2].

والحقيقة أنَّ التشكيك الذي يرفضه فرستيخ وُجد منذ فترة مبكرة من تاريخ الاستشراق، فالمستشرق رافي طلمون حينما يبحث في جذور الفكر التشكيكي عند المستشرق شاخت يقول: إنَّ بعض محتويات نظرية شاخت (Schacht) ليست أكثر من

(1) Versteegh, K.1983: p. 140.
(2) Versteegh, K.1983: p. 1.

تطـور أفـكار مارسـها عـدد كبـير مـن المستشـرقين، أمثـال: جولدزيهـر، وكيتـاني (Caetani) ومرجليـوث، وغيرهـم[١].

واضـح أنَّ الشـك مُمـارس مـن بعـض المستشـرقين في تحليلاتهـم لموضوعـات متعـددة في الـتراث العـربي، وكان قـد بـدأ ريـادة هـذا النـوع مـن التشـكك المستشـرق اليهـودي المجـري جولدزيهـر[٢]، حيـث يقـول: «ليـس هنـاك نـص موحـد للقـرآن، ومـن هنـا نسـتطيع أن نلمـح في صياغتـه المختلفـة أولى مراحـل التفسـير، والنـص المتلقَّـى بالقبـول (القـراءة المشـهورة)، هـو لذاتـه غـير موحـد في جزئياتـه، يرجـع إلى الكتابـة الـتي تمـت بعنايـة الخليفـة الثالـث عثمـان دفعًـا للخطـر الماثـل مـن روايـة الـكلام الله في مختلـف الدوائـر على صـورة متغايـرة في فـروض العبـادة على نسـق غـير متفـق، فهـي إذًا رغبـة في التوحيـد ذات حـظ مـن القبـول»[٣]، وفي موضـع آخـر يقـول: « ويمكننـا أن نسـتخلص مـن التجـارب في هـذه المرحلـة، أنَّـه فيمـا يتعلـق بإقامـة النـص المقـدس في الإسـلام الأول، كانـت تسـود حريـة مطـردة إلى حـد الحريـة الفرديـة، كأنَّمـا كان سـواءً لـدى النـاس أن يـرووا النـص على وجـه لا يتفـق بالكليـة مـع صورتـه الأصليـة»[٤]، وقـد ذكرنـا آنفًـا أنَّ جولدزيهـر يحيـل «نشـأة قسـم كبـير مـن هـذه الاختلافـات إلى خصوصيـة الخـط العـربي الـذي يقـدم هيكلـه المرسـوم مقاديـر صوتيـة مختلفـة، تبعًـا لاختـلاف النقـاط الموضوعـة فـوق هـذا الهيـكل أو تحتـه، وعـدد تلـك النقـاط»[٥]، وفي الحقيقـة « لـم يكـن الخـط العـربي سـببًا في اختـلاف القـراءات، بـل كان مسـاعدًا على اسـتيعاب القـراءات الصحيحـة بحالتـه الـتي كان عليهـا عنـد كتابـة المصاحـف العثمانيـة، مـن

(1) Talmon, R. 1987: p. 37.

(٢) جولدزيهر(١٨٥٠- ١٩٢١) مستشـرق مجـري، تعلـم اللغـات السـامية، وكانـت لـه مسـاهمات في التأليـف في تاريـخ النحـو العـربي، وفي التفسـير، والعقيـدة الإسـلامية، وكانـت لـه مناظـرات في أبحاثـه مع المستشـرق الفرنسـي رينـان حـول أصالـة النحـو العـربي، وفي موضـوع الأسـاطير عنـد السـاميين، انظـر حـول هـذا ترجمـة يوهـان فِـك لـه، انظـر فِـك: الدراسـات العربيـة في أوروبـا حـتى القـرن العشـرين، ص ٣٦٥- ٣٧١.

(٣) جولدزيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ص٦.

(٤) السابق، ص ٤٨.

(٥) السابق، ص٨.

إهمال النقط والشكل... فليست العبرة بالخط، وإلَّا لاعتمدت قراءات يسمح الخط بها ...وكقراءة ابن شنبوذ وغيره»[1].

(١) انظر تعليق د. النجار على كلام جولدزيهر في ترجمته لكتاب جولدزيهر السابق، ص٨.

ورؤية جولدزيهر ترى الخط العربي من الأسباب التي أدت إلى اختلاف القراءات، وقد أيد هذه الرؤية بعض المستشرقين، منهم آرثر جفري، انظر: مقدمة تحقيق كتاب المصاحف لابن أبي داود، ص٧، وبروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج١، ص ١٤٠، ورددها بعض الباحثين العرب، منهم د. علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، ص ١١٩، ود. جواد عليّ: لهجة القرآن الكريم، ص ٢٨٩، إلَّا أنَّ هناك من رفض هذه الرؤية، ومنهم -حسب التسلسل التاريخي- د. عبدالحليم النجار، وعلق عليها أثناء ترجمته لكتاب جولدزيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، انظر: ص ٨ من الترجمة، وأفرد د. عبدالوهاب حمودة في كتابه: القراءات واللهجات، الفصل العاشر (ص ص ١٨٢ - ٢١٣) لهذه القضية، وفيها يقرر أنَّ رؤية جولدزيهر خطأ من أساسها؛ ذلك أنَّ القراءات رويت، وتداولت، وشاعت القراءة بها قبل تدوين المصاحف، «ثم حين دوّنت المصاحف لم يكن النقط عُرف ولا الشكل اخترع، فظهرت حركة القراءات قبل النقط والضبط.. فكانت قراءتهم للكلمة على حسب ما يروون وينقلون، لا على حسب ما يقرءون في المصاحف»، انظر د. حمودة في كتابه الآنف الذكر، ص١٨٣. أمَّا د. عبد الفتاح شلبي فقد أفرد كتابًا للرد على رؤية جولدزيهر هذه أسماه: رسم المصحف والاحتجاج به، وفيه يقرر أنَّ قول جولدزيهر هذا هو«الضلال بن السبهلل» انظر ص١٩، ويأتي بأدلة تقوض هذه الرؤية، منها قوله: «ألم ترو الروايات وتتداول قبل تدوين المصاحف؟ ثم ألم ترهم كيف كانوا يتحرون ويتثبتون؟ أو لم يكن القرآن محفوظًا في الصدور قبل جمع القرآن؟ ...إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط « ص ٢٣، ويضيف دليلًا ثانيًا هو «أنَّ هؤلاء أجروا القرآن الكريم مجرى ما وقع فيه التصحيف من كلام العرب شعرًا أو نثرًا... فماذا ترى أن يكون موقفهم بجانب كتاب الله الكريم والمصحفين فيه؟ وهم المدققون في روايته، وكانوا القوامين عليه ومن حفظته»، ص ٢٣، ٢٥، ويضيف دليلًا ثالثًا يقرر فيه أنَّه «لو كانت القراءة تابعة للرسم -كما يقول جولدزيهر- لصحت كلُّ قراءة يحتملها رسم المصحف، ولكنَّ الأمر على غير ذلك... فالأصل أنَّ الرسم تابع للرواية والنقل، وأنَّ القراءة منقولة من أفواه الرجال الحفظة»، انظر ص ٢٧ وأفرد د. عبدالصبور شاهين في كتابه: تاريخ القرآن صفحات من ص ٢٠٩- ٢١٦ ليقرر أنَّ الرسم لا ينشئ القراءة، لكنَّه يحكم عليها، وقد حدث هذا على عهد عثمان حين كتب المصحف الإمام، وأحرق ما عداه من الصحف، وقد كانت تشتمل على كثير من الحروف المخالفة لرسمه، وبقي منها ما وافق رسمه، مع صحة روايته، وسلامة لغته، وينتهي إلى أنَّ الرسم المصحفي كان يؤدي إلى احتمالات في القراءة لم تثبت بطريق الرواية وهي وجوه مكذوبة، لما تقرر من أنَّ القراءة سنة متبعة، انظر ص٢١٠-٢١١.

وبتحليل مماثل يقرر د. غانم الحمد في كتابه: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية أنَّ رؤية جولدزيهر مرفوضة بسبب:=

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وواضـح أنَّ مـن أخطـاء جولدزيهـر أنَّـه يحمـل القـراءة مـا لـم تحتملـه، ويحـرص علـى التشـكيك في القـراءات، وإثبـات أنهـا مـن محـض الـرأي لا النقـل[1]، كمـا أنَّـه يقـرر أمـورًا فيهـا كثـير مـن الخطـأ وعـدم الدقـة، مـن ذلـك قولـه: «فـلا يوجـد كتـاب تشـريعي، اعترفـت بـه طائفـة دينيـة اعترافًـا عقديًـا، علـى أنَّـه نـص مـنزل أو مـوحى بـه، يقـدم نصـه في أقـدم عصـور تداولـه مثـل هـذه الصـورة مـن الاضطـراب وعـدم الثبـات، كمـا نجـد في نـص القـرآن»[2]. إنَّ هـذا الزعـم ينـم عـن جهـل كبـير؛ ذلـك أنَّ جولدزيهـر لـم يـر كتـب الديانـات السـابقة في نصوصهـا الأصليـة، يقـول: «وإن كان يبُـدي شـبهًا كبـيرًا بـرأي التلمـود في نـزول التـوراة بلغـات كثـيرة في وقـت واحـد، فإنـه يبـدو عديـم الصلـة بهـذا الـرأي». وقـد علـق د. النجـار علـى رأي جولدزيهـر بقولـه: «إنَّ الإنجيـل اختلفـت نصوصـه اختلافًـا أساسـيًا باختـلاف رواتـه مـن الحواريـين، كمـا تأكـد ضيـاع كثـير منـه ومـن التـوراة»[3].

ثـم يقـول: «معـنى الاضطـراب وعـدم الثبـات في النـص هـو وروده علـى صـور مختلفـة أو متضاربـة، لا يعـرف الصحيـح الثابـت منهـا. أمَّـا ورود النـص علـى صـور كلِّهـا صحيـح النسـبة

=المنهـج الـذي رسـمه الرسـول ﷺ لتعلـم القـرآن وقراءتـه هـو التلقـي مشـافهة، فـكان يتلـو مـا يـنزل عليـه مـن القـرآن علـى النـاس.

كان تعـدد وجـوه القـراءة معروفًـا في حيـاة النبـي ﷺ، ومـا تعـدد تلـك الوجـوه إلَّا الترجمـة العمليـة للرخصـة الـتي حـضَّ الله بهـا الأئمـة.

مصاحـف الأئمـة الـتي كتبـت بأمـر عثمـان علـى القـراءة العامـة في المدينـة، وحـين أرسـلت إلى الأمصـار الإسـلامية ثَبُـت أهـل كلِّ مصـر علـى مـا تلقـوه مـن قـراءات عـن الصحابـة الذيـن نزلـوا بينهـم ممـا وافـق خـط المصحـف. ليخلـص إلى أنَّ القـرآن الكريـم لـم ينقـل في الصحـف والكتـب فحسـب، وإنَّمـا ظاهـر نقـل الكتـب والصحـف حفـظ الحفـاظ، والتلقـي بالمشـافهة، والعـرض والسـماع، انظـر ص٧٢٠- ٧٢٢، وقـد خلـط جولدزيهـر في المنهـج الـذي اتبعـه في =عـرض القـراءات، فهـو يخلـط بـين قـراءات صحيحـة وأخـرى شـاذة، بـل هـي ليسـت قـراءات، وهـو مـا يكشـف عـن منهـج غريـب عـن طبيعـة الموضـوع، الـذي يعتمـد في أساسـه علـى الروايـة بالسـند، والمشـافهة في التلقـي، انظـر كتـاب د. الحمـد، ص ٧٢٤.

(١) د. حمودة: القراءات واللهجات، ص ١٨٤.

(٢) جولدزيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٤.

(٣) السابق، هامش ص ٤.

إلى مصدره، متواتر الرواية عنه، فليس في ذلك شيء من الاضطراب وعدم الثبات. وقراءات القرآن المعتمدة -مهما اختلفت في النص الواحد- متواترة كلُّها، مقطوع بصحة نسبتها إلى المصدر الأصلي»[1]. وما يجب تأكيده هنا أنَّ العلماء القدماء قد وضعوا أصولاً لمعرفة الصحيح الثابت من القراءات، تمثّل أصولًا ثلاثة، هي: أن ينقل عن الثقات إلى النبي ﷺ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعًا، ويكون موافقًا لخط المصحف[2]. وقد ذكر الفراء أنَّ «اتباع المصحف إذا وجدت له وجهًا من كلام العرب، وقراءة القراء أحبُّ إليّ من خلافه»[3]. فكيف لجولدزيهر أن يرفض كلَّ ذلك ويتشكك فيه؟

هذه الطعون التي وجِّهت إلى القراءات القرآنية قريبة الشبه بالطعون التي قدمت في مجال الفقه، فالمستشرق الألماني شاخت (Schacht, J.) (١٩٠٢- ١٩٦٩م) في دراسته المتعددة عن الفقه الإسلامي وأصوله يصف علماء المسلمين كافة لحقب عديدة من القرون الثلاثة الأولى بأنَّهم كانوا كذابين وملفقين غير أمناء ويقرر أنَّ من الصعوبة اعتبار حديث ما من الأحاديث الفقهية صحيح النسبة إلى النبي ﷺ، فلا يوجد حديث فقهي واحد صحيح، وكلُّ الأحاديث وضعت في القرنين الثاني والثالث، وأنَّ أكبر جزء من أسانيد الأحاديث اعتباطي[4]. هكذا يزعم شاخت، والحقيقة أنَّه كما يقول د. الأعظمي إن شاخت انتخب مادة علمية من كتب الفقه والحديث لا تصلح لدراسة الأسانيد؛ فمن يرد أن يعرف عقائد فرقة ما فعليه أن يرجع إلى الكتب المتخصصة في ذلك الغرض، أمَّا إذا رجع إلى كتب الأدب والقصص والروايات فلن يحصل على بغيته، بل يخرج بأفكار مشوشة. وكما يقول د. الأعظمي: إنَّ «الأمر الذي لا يرقى إليه الشك أنَّه كان من وظيفة المحدثين الاعتناء بالأسانيد، والمتون، والفروق بين مختلف الروايات- إن وجد-، أمَّا

(١) السابق، هامش ص ٤.
(٢) انظر عرضًا علميًا مفصلاً في بحث د. عبد الرحمن الحاج صالح: أصول تصحيح القراءة عند مؤلفي كتب القراءات، ص ١١٣- ١١٤.
(٣) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ٢٩٣.
(٤) انظر عرضًا مفصلاً في بحث د. محمد مصطفى الأعظمي: المستشرق شاخت والسنة النبوية، ص ١٠٤.

الفقهاء فكان همهم استنباط المسائل الفقهية؛ لذلك كثيرًا ما كان الفقيه يكتفي بأدنى إشارة إلى الحديث»[1].

أي شك وأي عبث هذا الذي يردده هؤلاء المتشككون! على أية حال، إنَّ ما نريده من هذه الاستشهادات هو أنَّ هذه النماذج المتشككة ليست بعيدة عن هؤلاء الذين زعموا عدم وجود الإعراب، وأنَّ النحاة قد وضعوا قواعد العربية الفصحى من خيالاتهم، وكذلك ليس بعيدًا عن الذين يزعمون أنَّ الرواة الذين اعتمد عليهم اللغويون والنحويون القدماء كانوا كذابين.

وسأناقش في الصفحات التالية ثلاث قضايا مهمة، تمثّل أنواعًا من الشكوك الدائرة حول العربية، وهي:

أولًا: الشك في لغة القرآن.

ثانيًا: الشك في رواة اللغة الذين اعتمد عليهم النحويون العرب.

ثالثًا: أصحاب نظريات الشك في الشعر الجاهلي، وأخطاؤهم في تاريخ العربية.

(١) السابق، ص ١٠٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أولًا: الشك في لغة القرآن

نشر المستشرق فولرز كتابه: اللغة العامية واللغة الأدبية في الجزيرة العربية قديمًا سنة (١٩٠٦) زاعمًا فيه أنَّ الرسول ﷺ كان يتلو القرآن في أوَّل الأمر بلهجة مكة؛ وهذه اللهجة في تصوره كانت تخلو من كثير من الخصائص التي نعدها من العربية، ومنها تحقيق الهمز، وبعض الصيغ الفعلية والاسمية، وفوق ذلك كلِّه الإعراب. ويذكر عن الإعراب أنَّه: «لم يكن في زمن النبي ﷺ خصيصة يلتزم متكلمو العربية جميعًا باستخدامها، وهو لم ينشأ عن الاستعمال اللغوي المشترك، بل ربَّما كان خصيصة مقصورة على بعض القبائل، أمَّا العرب الآخرون فقد كانوا يعدُّونه مجرد خصيصة تميز الخطاب العالي وحسب. ولكي نكون دقيقين، فإنَّه ربَّما كان مقصورًا على الشعر الذي يعتمد على الوزن بصورة حاسمة»[١]. ويرى أنَّ نص القرآن الكريم قد دوَّن في الأصل بإحدى اللهجات المحلية التي كانت سائدة في الحجاز، ولم يكن فيها تلك النهايات المسماة بالإعراب، ثم تحوَّل نص القرآن إلى الشكل الأدبي للغة العربية فيما بعد، كما هو عليه الآن[٢]. وشكَّك فولرز في أن يكون لأي حركة من حركات الإعراب تلك الوظيفة التي قرنت بها بدرجة كبيرة من الثقة في العربية الفصحى التي تطورت في العصور اللاحقة.[٣]

ويأتي من بعده باول كاله ليقرر أنَّه لا يشك في أنَّ اللغة التي كان يتكلَّمها البدو ولغة الشعر الجاهلي كانتا متماثلتين. أمَّا لغة النبي ﷺ وأصحابه فهي ليست كلغة البدو ولغة الشعر الجاهلي، زاعمًا أنَّه استنتج ذلك من نص للفراء لم يكن معروفًا من قبل، ومن عدد من الأقوال التي تنسب إلى المسلمين الأوَّائل تتضمن الحض على استعمال الإعراب استعمالًا دقيقًا في قراءة القرآن[٤]. وأنَّ لغة النبي ﷺ التي يتكلَّمها هي لغة

(١) انظر توضيحات أكثر في مايكل زويتلر: ص ٢٩٨- ٣٠٠. والأصل 118 -117 .P.

(٢) د. رمضان عبد التواب: العربية الفصحى والقرآن الكريم، ص٦٧.

(٣) مايكل زويتلر: العربية، ص ٢٩٩، والأصل P.117.

(٤) السابق، الترجمة العربية، ص٣٢٢، والأصل 129 .P

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

المواطن المثقف في مكة، والنص القرآني الخالي من الضبط بالشكل قبل عمليات نقط وتشكيل الكتابة العربية يعكس بوضوح اللغة العربية التي كانت تتكلم في مكة. غير أنَّ العرب كانوا قد تعودوا على أن يعدوا اللغة البدوية نموذجًا للنطق الصحيح، فبهذه اللغة نُظم الشعر العربي الجاهلي[1].

ويواصل كاله تشككه زاعمًا أنَّ كتب القراءات بوجه عام لم تذكر شيئًا عن النشاط المبكر للقراء، فقد ضاعت أو أهملت عمداً تلك الكتب التي ذكرت شيئًا عن هذا النشاط، فيما عدا خبرًا عثرت عليه مؤخرًا، ويمكن أن يرى بواسطته ذلك التطور[2].

وجد كاله نصًّا للفراء عثرفيه على هدفه، يقول د رمضان عبد التواب إنه وجده في مجموعة مخطوطة بمكتبة تشستربتي رقم ٧٠٥وفيه يقول الفراء: «وقد رأينا أهل القراءة الذين يعرفون الكتاب والسنة من أهل الفصاحة اجتمعوا على أنَّه نزل بأفصح اللغات، فاعترض في ذلك أقوام ممن ينظر في الأشعار وأيام العرب، فقالوا: إنَّما فضل القرآن من فضله، لما أوجب الله من تعظيم القرآن، فإذا صرنا إلى الفصاحة وجدناها في أهل البوادي. واختلفوا في ذلك، فقال أهل الكوفة: الفصاحة في أسد لقرب جوارهم منهم، وقال أهل البصرة: الفصاحة في عليا تميم وسفلى قيس من عُكل وعُقيل. وقال أهل المدينة: الفصاحة في غطفان لأنَّهم جيرانهم، وقال أهل مكة: الفصاحة في كنانة بن سعد بن بكر وثقيف.

فأحببنا أن نردهم بالآثار والقياس والاعتبار إلى تفضيل لغة قريش على سائر اللغات. قال: وسمع عمر بن الخطاب رجلًا يقرأ: عتى حين، يريد «حتى حين» فقال: من أقرأك هذا؟ قال: عبد الله بن مسعود، قال: فكتب إلى عبد الله: إنَّ القرآن نزل بلغة قريش، ولم ينزل بلغة هذيل فأقرئه الناس بلغة قريش، ولا تقرئنهم بلغة هذيل. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إنَّ إعراب القرآن لأحب إليّ من حفظ بعض حروفه، وقال ابن

(١) د. رمضان عبد التواب: العربية الفصحى والقرآن الكريم، ص٦٨.
(٢) د. رمضان عبد التواب: العربية الفصحى والقرآن الكريم، ص٦٨.

مسعود -رضي الله عنه-: جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات وأعربوه، فإنه عربيٌّ والله يحب أن يعرب»[1].

يرى كاله أنَّ معنى كلمة (إعراب) حسب استعمال أبي بكر الصديق يعني ضبط أواخر الكلمات العربية طبقًا لقواعد اللغة العربية الفصحى[2]. وإنيّ لأتعجب من فهم كاله لهذا النص للأسباب التالية:

أولًا: هذا النص الذي يعتمد عليه كاله يؤكد ما ذكره العلماء العرب من فصاحة أهل البدو، واعتمادهم على كلامهم -أي: كلام البدو- في تقعيدهم النحو العربي.

ثانيًا: قول الفراء: «فإذا صرنا إلى الفصاحة وجدناها في أهل البوادي» قول مؤكد لدى العلماء العرب القدامى؛ وهذا لا ينفي فصاحة القرآن الكريم، كما يذكر السيوطي أنَّ البيهقي روى في شعب الإيمان عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، ما أفصحك! فما رأينا الذي هو أعرب منك، قال: حق لي، فإنَّما أنزل القرآن عليَّ بلسان عربي مبين»[3]. فالنبي ﷺ كان قد تربى في بني سعد حيث الفصاحة، كما أنَّه نزل عليه القرآن من الله بلسان عربي مبين؛ ولو أنَّ هذا ما لا يعتقده كاله، لكنَّ القرآن كنص عربي يشهد له اللغويون بالفصاحة.

ثالثًا: استشهاد كاله بقول الصديق (رضى الله عنه): «إنَّ إعراب القرآن لأحب إليّ من حفظ بعض حروفه» ليصل إلى مبتغاه وهو أنَّ القرآن كان يقرأ بدون إعراب. والحقيقة أنَّ زعم كاله ليؤكد عدم فهمه معاني الإعراب في العربية قبل الاصطلاح النحوي. فمعلوم أنَّ في أيام الصديق لم يكن هناك علم للنحو، ولم تكن تستعمل كلمة «إعراب» بالمعنى النحوي العلمي الذي جاء فيما بعد في القرن الثاني الهجري، وكان معاني كلمة «الإعراب»

(١) د. رمضان عبد التواب: العربية الفصحى والقرآن الكريم، ص٦٨، وفصول في فقه اللغة للدكتور رمضان عبد التواب ٣٧٩-٣٨٠.
(٢) السابق، ص٦٩.
(٣) السيوطي: المزهر، ج١، ص٢٠٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

قديمًا التحسين والإجادة، يقال: أعربت الشيء إذا حسَّنته وأجدته، ومن معانيها أيضًا الإبانة والإفصاح، والنشاط وطيب النفس، وفساد في جسم أو عضو[1].

ولم يكن أبو بكر- رضي الله عنه- أوَّل من استعمل هذه الكلمة بهذا المعنى، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من قرأ القرآن بإعراب فله أجر شهيد»[2]، وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه»[3]. وربَّما يكون أوضح قول يبيّن الدلالة المقصودة هنا هو قول عائشة- رضي الله عنها-: «ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلَّا بيتًا واحدًا».

«تفاءل بما تهوى يكن، فلقلما يُقال لشيء: كان إلَّا تحقق»[4].

وهذا نصٌّ صريح لا يحتاج إلى تفسير؛ فالمراد بالإعراب هنا هو الأداء الدقيق كما تقتضيه لغة الفصحاء. إذًا الإعراب في الأصل هو الإيضاح والبيان[5]؛ ولذا نحن نؤيد رأي د. رمضان عبد التواب الذي رأى فيه أنَّ كاله «مخطئ خطأ فاحشًا في استنتاجه ذلك؛ لأنَّ الإعراب بمعناه الاصطلاحي - وهو اختلاف حركات أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها- أمر لم يكن معروفًا في أيام أبي بكر وابن مسعود -رضي الله عنهما-. ومعنى كلمة «إعراب القرآن» في هذه الأحاديث- إن لم تكن موضوعة- هو الوضوح والبيان، وعدم الغمغمة في قراءة القرآن الكريم»[6].

أمَّا فولرز فإنَّ ادعاءه هذا قد رفضه أغلب المستشرقين، ومنهم زويتلر الذي يرى الفصحى شكلًا أبدعه الشعراء، وبالرغم من رؤيته هذه، يقول زويتلر إنَّه لا يتفق مع

(١) ابن فارس: مقاييس اللغة، ج ٤، مادة عرب.
(٢) ابن أبي حمزة عبد الله بن سعد الأندلسي: بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها، عن د. فخر الدين قباوة: مصطلح الإعراب في معانيه المختلفة، ص ١٤٨.
(٣) د. قباوة: مصطلح الإعراب في معانيه المختلفة، ص١٤٨.
(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٥٥٦.
(٥) انظر عرضًا مفصلاً في مقال د. قباوة: مصطلح الإعراب في معانيه المختلفة، ص ١٤٨ وما بعدها.
(٦) د. رمضان عبد التواب: العربية الفصحى والقرآن الكريم، ص٧٠.

فولرز في استنتاجه الذي خلص إليه، وهو أنَّ القرآن كان يتلى في أوَّل الأمر بلهجة تخلو من الإعراب، وتتصف من جوانب بأنَّها عامية، وأنَّه قد عُدِّل فيما بعد بما يتفق مع تراكيب وصيغ عربية الشعر[١]. ويشير زويتلر إلى أنَ الحجج التي جاء بها المستشرقون جاير، ونولدكه، وبلاشير، ورابين، وغيرهم، قد قوضت بصورة تكاد تكون نهائية هذا الوجه من نظرية فولرز، ولم تنجح دراسات باول كاله في إنقاذ فرضية فولرز الأساسية[٢].

ورفض رابين زعم كاله، وذلك بافتراضه وجود لغة عربية مستخدمة في الشعر متميزة عن اللغات المحكية، وهذا ما فشلت فيه فرضية فولرز- كاله[٣]. ويقرر زويتلر أيضًا أنَّ القراءة التعبدية لأية آية قرآنية أو لتلاوتها لا يمكن أن تكون مختلفة اختلافًا جذريًّا عن القراءة الأصلية للنبي ﷺ بعد أن ينطقها، حتى قراءة الذين حفظوا القرآن وسمح لهم بإقرائه[٤]. وكان فِك قد صرح أنَّه: «لم يقم عند محمد ومعشره فرقٌ مهم بين لغة القرآن ولغة العرب، أي قبائل البدو، ولا يمنع ذلك أنَّه كانت هناك فروق بين لهجة مكة ولهجات البادية، وبين هذه الأخيرة بعضها مع بعض، فها هي ذي قواعد رسم المصحف تدل على أنَّ مكة قد تحررت من تحقيق الهمز، كما أنَّ لغة القرآن تختلف اختلافًا غير يسير عن لغة الشعراء»[٥].

والآن أقف عند نقطة مهمة تؤكد أن فولرز لم يفهم الإعراب، فهو متفق في هذا مع المستشرق فتسشتاين على أنَّ لغة القرآن تحاكي كلام البدو، أي: تتحول إلى اللهجة البدوية. ولمّا ترجم زويتلر نص فولرز إلى الإنجليزية ذكر أنَّه قد حدث (To bedouiniye)

(١) مايكل زويتلر: العربية، ص٣٠٠، والأصل P.118.
(٢) السابق، ص ٣٠٠- ٣٠١، والأصل P.118.
(٣) رابين: نشأة اللغة العربية الفصحى، ص ٢٩٦- ٢٩٩.
(4) Zwettler, M. 1978: p. 130. 300 والترجمة العربية ص
(٥) انظر فِك: العربية، ص٣٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

حسب تعبير زويتلر[1]،(وقد ترجم هذا التعبير د. حمزة المزيني بـ :«أن تؤعرب »)[2]؛ ظنًا من زويتلر أنَّ كلمة إعراب آتية من كلمة «الأعراب» التي تطلق على أهل البادية. وأظن أنَّ ما تجمعه المعاجم العربية لمعاني الإعراب، والاستعمالات التي ذكرناها آنفًا لتؤكد بُعد فولرز عن الصواب.

وإذا كان فولرز وكاله يزعمان أنَّ النص القرآني الخالي من الضبط والحركات (قديمًا)، يدل على عدم وجود الإعراب في القرآن أصلًا، فهذا الزعم غير صحيح؛ لأنَّ رسم المصحف الخالي من الإعجام والحركات يرمز إلى الإعراب بالحروف، وهو نوع من الإعراب قد قال به بعض النحويين، يدخل في الأسماء الخمسة، والمثنى، وجمع المذكر السالم وغيرها، ففي القرآن الكريم كثير من هذا مثل: «أبوهم» و«أباهم» و«أبيهم» و«المؤمنون» و«المؤمنين» وغير ذلك.

يضاف إلى ذلك أنَّ خط المصحف الشريف يحتوي على علامة إعراب المنصوب المنون، مثل: «رسولًا»، و«عليمًا»، و«حكيمًا»، وغير ذلك. وكتابة القرآن الكريم -بلا أدنى شك- تمت بهذه الصورة قبل العصر الذي قامت فيه مدارس البصرة والكوفة وغيرهما من مدارس النحو، أي: قبل اكتشاف القواعد التي تخضع لها العربية[3].

ويذكر المستشرق يوهان فِك دليلًا ندركه جميعًا، وهو الترتيب الحر للجملة بسبب الاعتماد على الإعراب، فمواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثرًا لشك فيه.. انظر مثلاً: آية ٢٨ من سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[4]. ويعدد الأمثلة في ذلك ليؤكد أنَّ ترتيب الجملة في القرآن الكريم يؤكد وجود الإعراب فيه أصلًا.

---

(1) Zwettler, M. 1978: p. 117.

(٢) مايكل زويتلر: العربية، ص ٢٩٩، والأصل p. 117

(٣) د. رمضان عبد التواب: العربية الفصحى والقرآن الكريم، ص٧٠- ٧١.

(٤) فِك: العربية، ص٣٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أمَّـا بـلاو فيخلـص إلى أنَّ العربيـة القديمـة (المعربـة) هـي الـتي كان يتكلمهـا النـبي ﷺ، ويذكـر أنَّ خلـو القـرآن مـن خصائـص اللهجـات العربيـة المولـدة، ومـن التصحيحـات الخاطئة/الزائفـة (Pseudo – Correct Elements) يكشـف عـن وضـع لغـوي لا يمكـن أن تكون فيه الفوارق بين اللغة الأدبية واللغة المحكية كبيرة[1]، ويقرر كذلك أنَّ نص القرآن المجرد من الصوائت/المعتمد على هيكل الصوامت ((Consonants Skeleton) يؤكد وجود الإعراب، إضافة إلى أنَّ حالات الشذوذ (Deviations Demonstrates) لهذا النص المجرد تبيَّن من ناحية ثانية أنَّه لم يتعرض لأي تغيير[2]، ولم يخضع للتغيير من أجل أن ينسجم مع العربية الفصحى؛ بسبب أنَّ هذا النص القرآني المكتوب المجرد من الحركات/المعتمد على الصوامت أخذ مكانة مقدسة منذ وقت مبكر جدًّا، ويستشهد لذلك بحالة الهمزة حين احتيج إلى إضافة رمز الهمزة بدلًا من تغيير النص، إضافة إلى المحافظة على بعض حالات الانحراف أو الشذوذ عن العربية النموذجية فيه -حسب زعمه-[3].

وتبدو الأدلة والبراهين التي ساقها بلاو أكثر واقعية وأكثر عقلانية من غيرها تؤكد لنا أنَّها أكثر واقعية وأكثر عقلانية من غيرها، لأن النص القرآني بالفعل كان مقدسًا منذ نزوله، كما أنَّ هناك من الأدلة التي تؤكد على ذلك؛ فلو كان قد تحوَّل إلى الفصحى عند نزوله فلماذا لا توجد تعديلات لرسم الهمزة مثلًا، فرسم القرآن يؤرخ للكتابة العربية، وشاهد على ما كانت عليه وقت نزول القرآن.

وهناك من المستشرقين[4] من يتطاول على لغة القرآن، متخذًا من وجود بعض الآيات التي خالفت القاعدة النحوية -حسب ادعائهم- حجة للطعن في لغة القرآن، ومن

(1) Blau, J. 1977: p. 15. 206 والترجمة العربية ص.

(2) Ibid., p. 15. 205 والترجمة العربية ص.

(3) Blau, J. 1977: p. 15. 207 والترجمة العربية ص.

(٤) انظر عرضًا مفصلاً لهذا الموضوع في بحث د. يوسف العيساوي: رد البهتان عن إعراب آيات القرآن الكريم، ص ١٥٠- ١٥٧، وانظر عرضًا مفصلًا حول المستشرقين ولغة القرآن في بحث Zammit, M, R. ٢٠٠٢: p. 34، وكذلك ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص ٢٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

هـؤلاء المستشـرق جـون بورتـون(Burton,J.) الـذي كتـب بحثًا لـه بعنـوان: (Linguistic Errors in the Qur'an) = أخطـاء لغويـة في القـرآن، ذكـر فيـه بعـض الآيـات الـتي يـرى أنهـا تسـند مـا يـرمي إليـه، منهـا الآيـة ١٦٢مـن سـورة النسـاء: «لَكِنِ الرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْـمِ مِنْهُـمْ وَالْمُؤْمِنُـونَ يُؤْمِنُـونَ بِمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـا أُنْـزِلَ مِـنْ قَبْلِـكَ وَالْمُقِيمِـينَ الصَّـلاةَ وَالْمُؤْتُـونَ الـزَّكَاةَ»، والآية ٦٢ مـن سـورة طـه: «قَالُـوا إِنْ هَـذَانِ لَسَـاحِرَانِ»، وغيرهمـا مـن الآيـات. ويناقـش هـذه القضيـة عارضًـا آراء المفسـرين والنحـاة في ذلـك، وأظـن أنَّ عنـوان بحثـه دال علـى رؤيتـه[1]. والحقيقـة أنَّ هـذا الموضـوع ليـس جديـدًا، بـل قديـم، ومما يؤكـد ذلـك قـول ابـن قتيبـة: «وقـد اعـترض كتـاب الله بالطعـن ملحـدون، ولغـوا فيـه، وهجـروا، واتبعـوا مـا تشـابه منـه ابتغـاء الفتنـة وابتغـاء تأويلـه بأفهـام كليلـة، وأبصـار عليلـة، ونظـر مدخـول، فحرفـوا الـكلام عـن مواضعـه، وعدلـوه عـن سـبله، ثـم قضـوا عليـه بالتناقـض، والاسـتحالة، واللحـن، وفسـاد النظـم، والاختـلاف»[2]. يضـاف إلى ذلـك أن ابـن قتيبـة أفـرد بابًـا للـرد علـى هـؤلاء في كتابـه: تأويـل مشـكل القـرآن، وعنونـه بـ «بـاب مـا ادعـى علـى القـرآن مـن اللحـن»[3].

وأريـد أن أذكـر شـيئًا أشـرت إليـه قبـلُ بصـورة مختصـرة داخـل هـذا البحـث، حينمـا عرضـت لوجهـة نظـر المستشـرق الألمـاني فيشـر الـذي يقسـم العربيـة إلى ثلاثـة أقسـام: مـا قبـل الفصـحى، والفصـحى المقعـدة مـن قبـل النحـاة، وعربيـة مـا بعـد الفصـحى. ومـراده بعربيـة مـا قبـل التقعيـد (أو حسـب تعبـير فيشـر مـا قبـل الفصـحى) كانـت متنوعـة؛ ولهـذا نجـد نصوصًـا لفصحـاء فيهـا كثـير مـن المخالفـات الخارجـة عـن القواعـد الـتي قُعِّـدت في عصـر تـالٍ، ومـن ذلـك: شـواهد مـا الحجازيـة، ومـا التميميـة، والانحرافـات – أو قـل التنوعـات – الـتي وجـدت عنـد شـعراء كبـار مثـل الفـرزدق. فهـذه التنوعـات كانـت مسـجلة، تشـهد لمـا نزعـم، ويؤكـد ذلـك هجـاء بعـض الشـعراء للنحـاة جـراء تقعيداتهـم الـتي جـاءت بقواعـد ربَّمـا غـير راصـدة لهـذه التنوعـات الموجـودة في الشـعر العـربي القديـم، وغـير ذلـك مـن النصـوص الـتي قالهـا عـرب فصحـاء.

---

(1) Burton, J. 1988: p. 181.

(٢) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص ٢٢.

(٣) السابق، ص٢٢.

ألـم تكـن هـذه الاختلافـات آتيـة مـن فصحـاء عـرب؟ ألـم يقـل ابـن جـني في الفصـل الـذي كتبـه تحـت عنـوان: «اختـلاف اللغـات وكلُّهـا حجـة»: «فالناطـق علـى قيـاس لغـة مـن لغـات العـرب مصيـب غـير مخطـئ»[1]، وكذلـك يقـول أبـو حيـان: «كلُّ مـا كان لغـة لقبيلـة قيـس عليـه»[2].

وقـد كان النحـاة مختلفـين في تلقـي الروايـة وجمعهـا، فمنهـم مـن حصـر الروايـة اللغويـة علـى قبائـل بعينهـا، وهـذا منسـوب إلى البصريـين، أمَّـا الكوفيـون فكانـوا أكـثر توسـعًا في الروايـة؛ ولـذا كان مدحهـم مـن بعـض الباحثـين المحدثـين، منهـم الدكتـور أحمـد علـم الديـن الجنـدي؛ فقـد وصفهـم بقولـه: «والحـق أن الكوفيـين أشـد احترامًـا لمـا ورد عـن لهجـات القبائـل، فلـم يهملـوا شـيئًا؛ ولهـذا كان رجـال الكوفـة لمَّاحـين لطبيعـة اللغـة وفهمهـا فهمًـا صحيحًـا؛ لأن كل لهجـة تمثّـل حقـلًا لغويًّـا لا يصـح إهـداره أو الحيـف عليـه»[3].

وهـذا المـدح الـذي قدَّمـه د. الجنـدي نابـع مـن رؤيتـه الـتي يذهـب فيهـا إلى أنَّ القبائـل الـتي اعتمـد عليهـا النحـاة في أخـذ اللغـة عنهـا «قـل مـن كـثر، وغيـض مـن فيـض، وهـي لا تمثـل العربيـة تمثيـلًا كامـلًا، وإلَّا فأيـن هـي مـن العـرب المنتشـرة في أرجـاء الجزيـرة العربيـة»[4].

والـذي أميـل إليـه أنَّ تلـك الآيـات الـتي لـم تسـتوعبها القواعـد الـتي قعدهـا النحويـون هـي في لغتهـم، وكانـت معربـة، وكانـت تنوعـات معربـة، وأظـن أنَّنـا بفهمنـا هـذا الـذي تؤيـده النصـوص القديمـة نحـل قضايـا كثـيرة وردت في مناقشـات النحـاة قديمًـا، بالرغـم مـن أنَّ النـص القـرآني المقـدس لـه خصوصياتـه اللغويـة الـتي يجـب أن نعيهـا ونقدرهـا التقديـر الواجـب.

وسأشـرع الآن في مناقشـة موضـوع الشـك في رواة اللغـة؛ لكونـه مرتبطًـا بتصـورات المستشـرقين والباحثـين في تاريـخ العربيـة.

(١) ابن جني: الخصائص، ج ٢، ص ١٢.
(٢) السيوطي: المزهر، ج ١، ص٢٥٨.
(٣) د. أحمد علم الدين الجندي: اللهجات العربية في التراث، ق١، ص١٨٦.
(٤) السابق، ق١ ص١٨١.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ثانيًا: الشك في رواة اللغة

مـن أوائـل المستشـرقين الذيـن شـككوا في روايـة اللغـة عنـد العـرب قديمًـا المستشـرق الألمـاني شبيتالر(مستشـرق ألمـاني يهتـم بالدراسـات اللغويـة العربيـة) في تعليقـه علـى كتـاب فِـك «العربيـة»، وفيـه يقـرر أنَّـه لا يثـق بصـدق الأخبـار الـتي تـروى عـن البـدو، وأنَّ الأخبـار العربيـة الـتي يعتمـد عليهـا فِـك لا يمكـن أن تؤخـذ علـى معناهـا الحقيقـي[1]. ويواصـل الإنجليـزي رابـين تشـككه في الـرواة القدمـاء، ويرجـع اهتمـام العـرب بالـرواة البـدو إلى أنَّ «الأفضليـة اللغويـة البـدوي كانـت نتيجـة طبيعيـة للنظريـة الـتي تعـزو كلَّ شيء غـير صحيـح إلى تأثـير اللغـات الأجنبيـة مـن كلام غـير العـرب. وقـد كان هـذا طرفًـا مـن المثاليـة العامـة للمجتمـع المسـلم، الـتي تشـبه الميـل الشـديد إلى المثاليـة في المجتمعـات الـتي تمدنـت بعـد مرحلـة بدائيـة، وكان هـذا الأمـر مستسـاغًا إلى -حـد مـا- بسـبب ثـراء كلام الأعـراب وقدرتـه البلاغيـة السـليقية»[2].

ويشـير رابـين إلى أنَّ الاهتمـام باسـتعمال البـدو للغـة يجـب أن نتلقـاه بتحفـظ وارتيـاب، «والمؤسسـون للمـدارس النحويـة كانـوا رواة ممتهنـين؛ إذ كان الـراوي هـو الـذي ينقـل الاسـتعمال العـربي الأدبي مـن جيـل إلى جيـل. وعلمـاء اللغـة القدمـاء، كالخليـل ويونـس، قـد اسـتقوا معلوماتهـم مـن الـرواة؛ إذ لـم يكونـوا قـد بـدأوا سـيرتهم رواة، كمـا هـو الراجـح تمامًـا»[3]، كمـا يشـير إلى أنَّ «المشـهور عـن هـؤلاء البـدو أنَّ تزويدهـم محاوريهـم بالأخبـار والمعلومـات الـتي يرغبـون فيهـا كان مشـروطًا بالعطـاء الملائـم. ولا يوثـق بالطبـع -علـى وجـه الخصـوص- بالمـواد الـتي تخـص لهجـات غـير لهجاتهـم»[4]، وهـذا يسـير وفـق رؤيتـه الـتي تبـدو واضحـة مـن تفسـيره لقـول أبي داود -صاحـب السـنن- عندمـا «ينقـل الأحاديـث بنـاء

(١) شبيتالر: تعليقات على كتاب فِك، ص٦- ٧.
(٢) رابين: اللهجات العربية القديمة، ترجمة د. عبد الكريم مجاهد، ص٦١.
(٣) السابق، ص٧٢.
(٤) السابق، ص.٥٢.

على ما قرره الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- من أنَّ القرآن ما زال يتضمن بعض السمات اللهجية، «ولكنَّ العرب ستقيمها بألسنتها، أو ستعربها بألسنتها». هل يمكننا أن نفهم من كلمة «العرب» أعراب نجد، حراس لغة الشعر وبقية السمات اللهجية للحجازية المحلية؟ ويخلص إلى نتيجة مؤداها: أنَّ العرب تعرب القرآن الكريم في نطاق معين من خلال تأثير النحاة في اختيار القراءات المتنوعة». (١)

ويتضح تمامًا أنَّ رابين قد جانبه الصواب في قوله هذا؛ لأنَّ القراءة الصحيحة للقرآن الكريم تعتبر للعربي واجبًا دينيًا عدا كونها مفروضة لغويًّا، حيث إنَّ اللحن في القرآن الكريم قد يتسبب في فهم معنى غير مقصود أو مرفوض (٢).

ويمارس الشك نفسه المستشرقُ زويتلر، ويقرر أنَّنا يجب أن ننظر بتحفظ وحذر شديدين إلى الروايات المنسوبة إلى بدو القائمة على الإقرار بالصحة النحوية، والقدرات اللغوية للبدو(٣). وهذا أيضًا يتوافق مع تصور زويتلر للعربية الفصحى، وذلك ما ناقشناه سابقًا.

أمَّا أجيوس فقد خصَّص بحثًا لهذه القضية بعنوان «المصادر الموثوق بها لاستنباط العربية الصحيحة في القرون الأولى للإسلام»، يرى فيه أنَّ اللحن لم يكن ظاهرة خاصة، وإنَّما ظهر في القرن الأوَّل الهجري- السابع الميلادي، وظهر كذلك أيام الرسول ﷺ في لغة المستعربين. ويشير اللحن- حسب زعمه- إلى طريقة خاصة في الكلام، سواء أكانت لهجية أم شخصية(٤). ويذكر أنَّ المبرد (ت ٢٨٥ هـ / ٨٩٣م) في كتابه «الكامل» يقوي الشكوك لديه فيما يسمى بكلام البدو الصحيح، مؤكدًا أنَّ المبرد ناقش بقوة مفهوم عربية البدو الصحيحة مقللًا منها. ولاحظ أنَّ بعض الروايات اللغوية تجعل من نوادر

(١) السابق، ص ٧٣.
(٢) انظر تعليق د. عبد الكريم مجاهد- مترجم كتاب رابين السابق- على هذا في هامش رقم ٢ من ص ٧٣.
(3) Zwettler, M. 1978: p.15 364 والترجمة العربية ص.
(4) Agius, D, A. 1988: p. 192.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

البدو التي يرويها الرواة غير جديرة بالثقة[١]. فضلاً عن ذلك نجده يعدد الأسباب التي تجعل كلام الرواة غير موثوق به، ومنها - حسب زعمه - المال[٢]. ويذكر أجيوس أنَّ الباحثين المحدثين يرفضون روايات الرواة لكونها مشكوكًا في صحتها[٣]، وربَّما كانت هذه الروايات مبالغًا فيها في التاريخ الإسلامي القديم، ويؤيد من يزعم أنَّ تقدير البدو - عمومًا - كانوا جزءًا من أسطورة[٤].

وربَّما كان وانسبرو أكثر شكًّا حينما رأى أنَّ تفسيرات اللغويين العرب لشعر عدي بن زيد، والنابغة الجعدي، والفرزدق - التي ترى بعض أبيات شعرهم ملحونًا - تقوم على قصص مشكوك في صحتها، وربَّما يؤدي ذلك - حسب زعمه - إلى إلقاء بعض الشكوك في الوصف القائم آنذاك على العربية الفصحى.[٥] وهذا يتلاءم مع رؤية وانسبرو للعربية الفصحى، إذ هي عنده لغة صنعها النحاة بتأثير ديني، كما رأينا ذلك سابقًا.

فهذه الشكوك أظهرت أن هناك من يرى أن بعض الرواة كذابون، وآخرون يرونهم كلَّهم كذابين، ويذهب فريق ثالث إلى أنَّ الرواة ضمن منظومة كذابين، أي الرواة والنحاة وغيرهم ممن قام على عملية تقعيد العربية قديمًا. فهل هؤلاء -وبخاصة الفريق الأخير- لهم حق في شكهم هذا؟

أمَّا المستشرق بلاو فقد كان له تصور قريب من تصور بعض العلماء العرب القدماء عن الرواة؛ إذ يرى أن نشكك في الروايات التي تنص على أنَّ أي بدوي يمكن أن يكون خبيرًا في دقائق العربية[٦]، ويضيف أن أهل الحضر كانوا يجدون كثيرًا من الصعاب العويصة إذا أرادوا استعمال العربية، وهذا بخلاف البدو، فقد كانوا - حتى البدوي العادي منهم - يتكلمون اللهجات العربية التأليفية المتسمة بالإعراب، والقريبة من العربية الفصحى،

(1) Ibid., p.194.
(2) Ibid., p.194.
(3) Ibid., p.194.
(4) Ibid., p.195.
(5) Wansbrough, J. 1977: p. 109 .
(6) Blau, J.1963: p. 46.

فيستطيعون تكلّمَ العربية بقدر كبير من السهولة، وكانوا أقل عرضة للوقوع في الخطأ مقارنة بأهل الحضر؛ لذلك كان يسهل على الراوي البدوي أن يروي الشعر العربي الجاهلي. ويؤكد بلاو أن من السهل علينا في ظل هذه الظروف فهم ظهور القصص التي تمتدح القدرات اللغوية للبدو[1].

ورغم إقرار بلاو بكون البدوي مختلفًا في لغته عن الحضري، وأنَّ البدو كانوا يتكلمون لهجات قريبة من الفصحى، لكنَّه يقرر أنَّه ينبغي الشك في الروايات كلِّها التي تفيد أنَّ البدو كانوا لا يتكلمون إلَّا العربية الصحيحة[2].

هذه الخلاصة تتفق -إلى حد كبير- مع آراء العرب القدماء، فهم يقررون أنَّ البدو كانوا يتكلمون عربية معربة، إلَّا أنَّ كثيرًا منهم يتشكك في رواياتهم، من هؤلاء المبرد، فقد أفرد بابًا في كتابه الكامل أسماه «باب من تكاذيب الأعراب» [3]، روى فيه عددًا من أكاذيب الأعراب، ومن ذلك قوله: « حدثني أبو عمر الجرمي، قال سألت أبا عبيدة عن قول الراجز:

أهدموا بيتك لا أبا لكا وأنا أمشي الدَّألى حوالكا

فقلت: لمن هذا الشعر؟ فقال: يقوله الضب للحسل أيام كانت الأشياء تتكلم. الدالى: مشيُ كمشي الذئب» [4] فانظر هنا إلى ما ينسبه الرواة من شعر إلى الضب، باعتبار أنَّهم كانوا متخيلين أنَّ الأشياء كانت تتكلم. ومنه ما يرويه المبرد عن الأصمعي أنه قال: « قلت لأعرابي كنت أعرفه بالكذب: أصدقت قط؟ قال: لولا أنّي أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا. وتحدثوا من غير وجه أنَّ عمرو بن معد يكرب كان معروفًا بالكذب. وقيل لخلف الأحمر – وكان شديد التعصب لليمن –: أكان عمرو بن معد يكرب يكذب؟ فقال: كان يكذب في المقال، ويصدق في الفعال»[5].

(1) Ibid., p. 47– 48.
(2) Ibid., p. 47.

(٣) المبرد: الكامل، ج ٢، ص ١٤٧.
(٤) السابق، ج٢، ص ١٤٧.
(٥) السابق، ج٢، ص ١٥٤– ١٥٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وانظر إلى ما يرويه عن الخليل بن أحمد أنَّه قال: «إنَّ النحارير[1] ربَّما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت»[2]. ويعلق ابن فارس على هذه الرواية تعليقًا ذا دلالة في هذا المضمار، فيقول: «فليتحر آخذ اللغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة، والثقة، والصدق، والعدالة؛ فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا»[3].

وأظن أنَّ ما ذكره ابن فارس بقوله: «فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا» ليؤكد أنَّ أمر الرواية كان قد وصل إلى درجة سيئة، فضلًا عن أنَّ شهادة الخليل بن أحمد لها أكثر دلالة، ذلك أنَّه يصرح بأنَّ بعض الرواة أرادوا اللبس والتعنيت.

وقال الجاحظ: «ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعارًا من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر..... ولولا أن أكون عيابًا ثمَّ للعلماء خاصة لصورت لك في هذا الكتاب ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة»[4]. فالجاحظ يتحرز عن قول العيب، والتجريح، لكنَّ كلامه يدل على مرارة يشعر بها تجاه ذلك.

وقد خلص د. محمد عيد في تحليله موقف النحاة من الرواة والشعراء والإعراب إلى النتائج الآتية:

بعض الرواة حدث منه الخطأ، وبعضهم كان غير ثقة، وغير مأمون.

الجهد الذي بذله الرواة بدا لبعض الدارسين في مظهر ناصع البياض؛ فنظروا إليهم بعين الحب والاحترام الخالصين، ودفعهم ذلك -بالطبع- إلى حسن الدفاع عن تلك الأخطاء، وتلمس العذر لها.

---

(١) النحرير هو: الحاذق الماهر العاقل المجرب، وجمعه: نحارير.
(٢) ابن فارس: الصاحبي، ص ٤٨.
(٣) ابن فارس: الصاحبي، ص ٤٨.
(٤) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٤، ص٢٤.

ويضيف محمد عيد أن المنافسة والعصبية بين البصرة والكوفة أسهمت بشكل واضح في توثيق الرواة وتضعيفهم[١]، وأن هناك أسبابًا كثيرة لما فعله بعض الرواة من الزيادة التي زادوها، ومنها: فساد المروءة، وكون الشعر شيئًا مهمًا آنذاك يُتكسب منه، كما أنَّ هناك أمورًا تخص التنافس بين القبائل للفخر بأسلافهم، والكذب لأمور سياسية. فقد كانت السياسة وراء نحل بعض الشعراء وأهل الحكم ما لم يقولوه؛ بقصد التشكيك في قيمتهم أو تأييد تلك القيمة[٢]. وقد كان النحاة بحاجة ملحة إلى النصوص التي تستند قواعدهم، من قبل النحاة للنصوص، وترتب عليها -أحيانًا- ادعاء الشعر ونسبته إلى غير أصحابه. يضاف إلى ذلك أنَّه قد راج عند النحاة الغريبُ، سواء ما يتعلق بالألفاظ أم ما يتعلق بالتراكيب والإعراب؛ وكلُّ هذا تسبب في وضع روايات لغوية أو مواد لغوية منتحلة.

وهل وقف النحاة أمام هذه الظاهرة آخذين ومعتمدين على هؤلاء الذين ليس لديهم مصداقية؟ نقول: لا، فقد وصل النحاة عند ظهور هذه المشكلة إلى ضرورة اشتراط: « أنَّ يكون ناقل اللغة عدلًا، رجلًا كان أو امرأة، حرًّا كان أو عبدًا، كما يشترط في نقل الحديث؛ لأنَّ بها معرفة تفسيره وتأويله، فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله »[٣]، وقد أدى اشتراط عدالة ناقل اللغة إلى تحليل الرواة بعد تحليل القبائل، كما نتج عن تحليل القبائل رفض النصوص المنسوبة إلى بعضها. وأثمر تحليل الرواة رفض بعض النصوص التي حملوها، وبعض الظواهر التي تكلموا عنها؛ لأنَّ راويها اتصف بغير العدالة، أو لم يعرف بها، ومن هنا رفض النحويون النصوص التي يرويها فاسق[٤].

وقد تأثر النحويون بالضوابط السلوكية للرواية التي وضعها علماء الحديث وبدأوا يعملون بها عند تعاملهم مع رواية اللغة التي أصبحت فنًا متميزًا في النصف الأوَّل من

(١) د. محمد عيد: الرواية والاستشهاد باللغة، ص ٣١.
(٢) د. محمد عيد: الرواية والاستشهاد باللغة، ص٤٦- ٥٦.
(٣) ابن الأنباري: لمع الأدلة، ص ٨٥.
(٤) د. عليّ أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص٥٦- ٥٧.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

القرن الثاني على أيدي رجال متخصصين أمثال أبي عمرو بن العلاء، والمفضل الضبي، وخلف الأحمر، وغيرهم. لكنَّ ضوابط الرواية - كما يذكر د. محمد عيد - ظهرت واضحة عند علماء القرن الثالث الهجري ومن تلاهم، وجاءت بصورة خاصة متمثلة في: سوق الإسناد بينهم وبين الرواة الأوائل في القرن الثاني بطريقة متصلة أو منقطعة، فيصل الإسناد إلى أبي عمرو، أو الأصمعي، أو أبي عبيدة مثلًا، ثم يساق بعد ذلك النص عن هؤلاء منسوبًا إلى صاحبه بالإسناد إليه، وإن تقدم به الزمن. فهو إذًا «إسناد متصل إلى هؤلاء العلماء الرواد[1]، ومن ثَمَّ، فإنَّ ضبط نصوص اللغة عن طريق الإسناد الموثق قد فرض نفسه بصورة واضحة على علماء القرن الثالث، وجاء علماء القرن الرابع الهجري وما تلاه ليدرسوا طرق ضبط الرواية، ووضعت لها القواعد والأسس، وعُدَّ ذلك جانبًا مهمًّا من أصول النحو وأدلة الرواية. وتناولت هذه الدراسة أمورًا ثلاثة:

- تعديل الرواة وتجريحهم.
- طرق الإسناد.
- طرق الأخذ والتحمل[2].

وكان من أهم الكتب في ذلك كتاب أبي الطيب اللغوي: مراتب النحويين، فهو - حسب ما يزعم د. محمد عيد - يصدق عليه بحق معنى «الجرح والتعديل». فقد تناول العلماء الذين ترجم لهم «بالتوثيق أو التضعيف»، ومن ذلك قوله: عن حماد: «وحماد الراوية مع ذلك عند البصريين غير ثقة ولا مأمون»، في حين يقول عن أبي عمرو الشيباني: «ومن أعلم الكوفيين باللغة، وأحفظهم وأكثرهم أخذًا عن ثقات الأعراب أبو عمرو الشيباني»[3].

(١) د. محمد عيد: الرواية والاستشهاد باللغة، ص٨٤.
(٢) السابق، ص٨٥.
(٣) د. محمد عيد: الرواية والاستشهاد باللغة، ص٨٦.

ولأهمية الرواية نجد السيوطي في مزهره قد أفرد فصولًا في الجزء الأوَّل لمعرفة ما روي من اللغة ولم يصح ولم يثبت، وفصل معرفة المصنوع، وفصل معرفة الضعيف والمنكر والمتروك من اللغات. وفي الجزء الثاني من المزهر يفرد فصلًا عن آداب اللغوي، وفصلًا عمن سئل من علماء العربية عن شيء فقال لا أدري، وفصلًا عن التحري في الرواية، وفصولًا تتصل بالرواية اللغوية وضبطها. ومن اهتمامات النحويين العرب كذلك تقسيمهم نقل الرواية إلى تواتر وآحاد. «فأمَّا التواتر فلغة القرآن، وما تواتر من السنة، وكلام العرب، وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم»[١].

«وأمَّا الآحاد فما تفرد بنقله بعض أهل اللغة، ولم يوجد فيه شرط التواتر، وهو دليل مأخوذ به، والأكثرون على أنَّه يفيد الظن»[٢]. «وشرط التواتر أن يبلغ عدد ناقليه عددًا لا يجوز على مثلهم الاتفاق على الكذب»[٣]. «وشرط الآحاد أن يكون ناقله عدلاً، رجلاً كان أو امرأة، حرًّا كان أو عبدًا، كما يشترط في نقل الحديث، لأنَّ باللغة معرفة تفسيره، وتأويله، فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله، فإن كان ناقل اللغة فاسقًا لم يقبل نقله، ويقبل نقل العدل الواحد، وأهل الأهواء إلَّا أن يكونوا ممَّن يتدين بالكذب»[٤].

فأمر الرواية قد ضبطه النحويون ضبطًا شديدًا، وتأثروا ـــ فيما يُعتقد ـ بقواعد رواية الحديث لضبط رواية اللغة، وهنا نردد ما ذكره الشيخ أمين الخولي، ونصه على أن «النقد للرواية قد أورده القدماء، وأفاضوا فيه، مع دقة وضبط في الإيراد، ثم تولوا الإجابة عنه بمثل هذه الإفاضة الدقيقة لضابطة»[٥]. ويستنكر الخولي ما يحدث في العصر الحديث من نقد الرواية قديمًا ونقد القدماء، فيقول: «وبعد كلِّ هذا من عمل

(١) السيوطي: الاقتراح، ص٨٥.
(٢) السابق، ص٨٥.
(٣) السابق، ص٨٥.
(٤) السابق، ص٨٦.
(٥) أمين الخولي: من هدي القرآن، مشكلات حياتنا اللغوية، ص٢٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الأقدمين تجد اللغويين اليوم لا يقيمون وزنًا لهذه الثقة»[1]، فقد ضبطوا الرواية إلى حدٍّ كبير، وبالرغم من أنَّ الرواة وجُد بينهم الكذاب أو المنتحل إلَّا أنَّ هؤلاء الكذابين لم يكونوا الغالبية، وكانوا معروفين، وقد ذكر العلماء ذلك، ومن أجل ذلك أقاموا ضبطًا لرواية اللغة، وقاموا بالتجريح والتعديل في الراوي وسنده. وممَّا يؤكد أنَّ الرواة لم يكن منهم إلَّا عدد بسيط يتسم بالكذب والانتحال، أن ابن جني عقد بابًا في كتابه الخصائص، وعنونه بقوله: «باب في صدق النقلة وثقة الرواة والحملة»[2]، رفض فيه المبالغة في الإسفاف وسبب العلماء، فقال: «فأمَّا إسفاف من لا علم له، وقول من لا مُسكة به: إنَّ الأصمعي كان يزيد في كلام العرب، ويفعل كذا، ويقول كذا، فكلام معفو عنه، غير معبوء به، ولا منقوم من مثله ... هذا إلى ما يعرف عن عقل الكسائي وعفته، وظلفه، ونزاهته، حتى إنَّ الرشيد كان يجُلسه ومحمد بن الحسن على كرسيين بحضرته، ويأمرهما ألَّا ينزعجا لنهضته»[3]، ثُمَّ يقول بعد ذلك: «فإن قلت: فإنَّا نجد علماء هذا الشأن من البلدين والمتحلين به في المصرين كثيرًا ما يهجن بعضهم بعضًا، ولا يترك له في ذلك سماء ولا أرضًا. قيل له: هذا أوَّل دليل على كرم هذا الأمر، ونزاهة هذا العلم، ألَّا ترى أنَّه إذا سبقت إلى أحدهم ظنة، أو توجهت نحوه شبهة، سُبَّ بها، وبرئ إلى الله منه لمكانها.. فلولا أنَّ هذا العلم في نفوس أهله، والمتفيئين بظله كريم الطرفين، جدد السمتين، لما تسابوا بالهُجنة فيه، ولا تنابزوا بالألقاب في تحصين فروجه ونواحيه، ليطووا ثوبه على أعدل غروره ومطاويه»[4].

وهذا رد من ابن جني وكأنَّه يعيش بيننا الآن ليرد على من يشكك في رواة اللغة عن العرب. والخلاصة: أنَّنا نرفض أن يصل الشك إلى حد التشكيك في عمل النحويين واللغويين العرب القدماء. إنَّ ما هو مقبول بعد هذه المناقشة، وبعد عرض القضية

(١) السابق، ص٢٥.
(٢) ابن جني: الخصائص، ج ٣، ص٣٠٩.
(٣) السابق، ج ٣، ص٣٠٩.
(٤) ابن جني: الخصائص، ج ٣، ص٣١٢- ٣١٣.

برمتهـا أن نتشـكك في بعـض الـرواة، وفي بعـض الروايـات، كمـا تشـكك وصـرح العلمـاء العـرب القـدامى، لكـنِ أن يصـل بنـا الشـك إلى رفـض مـا ذكـره العـرب القدمـاء روايـة وتحليـلًا لغويًّـا، حـتى نصـل بالشـك إلى حـد الزعـم أنَّ النحويـين العـرب قـد صنعـوا قواعدهـم مـن خيالاتهـم، أو الزعـم أنَّ البـدو لـم يكونـوا متكلمـين عربيـة فصيحـة، وأنَّ ذلـك كلُّـه أسـاطير رواهـا العـرب القدمـاء؛ فهـذا مرفـوض. ونخلـص إلى أنَّ رأي مهـم لبـلاو في هـذا السـياق، وهـو تأكيـده أنَّ هنـاك مخالفـات مـن الـرواة، لكـنَّ البـدو كانـوا يتكلمـون عربيـة معربـة قريبـة مـن عربيـة الشـعر والقـرآن الكريـم، وهـذا مـا زعمـه العلمـاء العـرب القـدامى.

وقـد كان لأصحـاب الدراسـات الخاصـة بالشـك في الشـعر الجاهلـي شـكوك عديـدة، كان لهـا أثـر في تصـور العربيـة الفصـحى، وهـذا مـا سـنعرضه في الصفحـات التاليـة.

ثالثًا: أصحاب الشك في الشعر الجاهلي، وأخطاؤهم في تاريخ اللغة العربية

يرتبـط هـذا المبحـث بالمبحثـين السـابقين؛ لأنَّـه يحلـل شـكًّا مـن نـوع آخـر، فقـد تابـع مرجليـوث وطـه حسـين وغيرهمـا ممَّـن تمسـك بنظريـة الانتحـال في العصـر الحديـث خطـوات غيرهـم مـن العاملـين في ميـدان الاستشـراق، وممـن ينتهجـون منهـج الشـك؛ ذلـك أنَّ «مرجليـوث إنَّمـا كان يتنـاول رأي فولـرز في كتابـه (لغـة الشـعب ولغـة الكتابـة في الجزيـرة العربيـة قديمًـا)، عندمـا قـال: إنَّ اللغـة العربيـة كانـت خاليـة مـن الإعـراب، وأنَّ العلمـاء العـرب هـم الذيـن وضعـوا تلـك الحـركات الإعرابيـة، فأعربـوا القـرآن. وقـد أثـارت هـذه القضيـة جـدلًا واسـعًا في الأوسـاط الاستشـراقية، خاصـة في أوج عصـر الاستشـراق. لقـد أخـذ مارجيلـوث النتيجـة الـتي توصـل إليهـا فولـرز، وبـدلًا مـن تطبيقهـا علـى القـرآن طبقهـا هـو علـى الشـعر الجاهلـي، والنتيجـة في النهايـة واحـدة، إنـكار الشـعر الجاهلـي كمـا أنكـر فولـرز عربيـة القـرآن»[1].

(١) د. فضل العماري: الشعر المنحول، قضايا ونصوص، ص٧٦.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويتضح هذا من تصور مرجليوث للغة الشعر القديم، حيث يزعم أنَّ هذه القصائد نظمت بلغة القرآن، على اعتبار- كما يزعم مرجليوث - أنَّ فرض الإسلام على قبائل شبه الجزيرة العربية » قد وحد لغتهم؛ لأنَّه زودهم بنموذج لسلامة اللغة لا نزاع فيه وهو القرآن ... لكن من الصعب أن نتصور وجود لغة مشتركة قبل مجيء الإسلام بهذا العامل الموحد، لغة تختلف عن لغات النقوش، وانتشرت في كلِّ أرجاء شبه الجزيرة العربية »[1]. شك واضح في وجود العربية الفصحى /اللغة المشتركة قبل الإسلام؛ وهذا نابع من إنكاره وجود شعر جاهلي. ولارتباط إنكار الشعر الجاهلي بقضية العربية الفصحى في الجاهلية يفرض علينا أن نعرض هذه الفرضية التي أثارت المفكرين في الغرب والشرق.

(ا) جوهر فرضية مرجليوث - طه حسين في الشعر الجاهلي

شغل موضوع صحة الشعر الجاهلي الباحثين الأوربيين منذ سنة ١٨٦١ م، وكتب فيه كثير من المستشرقين من أمثال: جولدزيهر، ونولدكه، وبروناليش، ومرجليوث، وفلهلم ألفرت، وبلاشير، وكان العرب القدماء قد اهتموا بهذه القضية، وعلى رأسهم ابن سلام الجمحي. ويزعم د. عبد الرحمن بدوي أنَّ البحث في هذه القضية قد خطا خطوة جبارة بمقال ديفيد صمويل مرجليوث في عدد يوليو سنة ١٩٢٥م من «مجلة الجمعية الآسيوية الملكية »، استغل فيه نتائج النقوش الحميرية والعربية الجنوبية، وركز على الدوافع الدينية خصوصًا في انتحال الشعر الجاهلي، والتغيير في روايته زيادة، أو نقصًا، أو تحريفًا[2].

يدعي المستشرق البريطاني مرجليوث (Margoliouth, D,S.) (١٨٥٨- ١٩٤٠ م) في مقاله المسمى بأصول الشعر العربي أنَّ الشعر الجاهلي نُظم في العصور الإسلامية، ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء الجاهلية[3]. وقد أسّس تصوره هذا على نوعين من

(١) مرجليوث: نشأة الشعر العربي، ترجمة د. بدوي، ص ١١٨.
(٢) د. عبد الرحمن بدوي: تصدير كتاب دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص ١٢.
(٣) يذكر د. ناصر الدين الأسد أنَّ شك مرجليوث في الشعر الجاهلي قد عبر عنه في هذا البحث، وفي كتابه: محمد وظهور الإسلام قد عبر عن شكه في الشعر الجاهلي، انظر تفاصيل أكثر في كتاب د. الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، هامش ص ٣٥٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الأدلة: أدلة خارجية، وأدلة داخلية؛ أمَّا الأدلة الخارجية في ظنه فآتية من القرآن؛ إذ إنَّ فيه سورة واحدة باسم الشعراء، وهذا يشير إلى وجودهم. وكان النبي ﷺ ينفي عن نفسه هذه الصفة التي كان خصومه ينعتونه بها، لكنَّه كان يجيبهم بأنَّ القرآن «جاء بالحق»، ووردت في سوره ثلاثة ألفاظ، هي: «كاهن، ومجنون، وشاعر». ويزعم مرجليوث أنَّ سياق الآية يدل على أنَّ هذه الكلمات الثلاث في معنى واحد، أي: مترادفة. «ولمَّا كان الذين وصفوه بأنَّه شاعر يقولون عنه: إنَّه ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (الطور:٣٠)، فيمكن أن نستنتج من هذا أنَّه كان من عادة الشعراء التنبؤ بالمستقبل. وفي موضع آخر يؤكد أنَّ لغته ليست لغة شاعر بل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة: ٤٠ -٤١)، وأنَّ الله لم يعلّمه الشعر ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس:٦٩). ومن هذا ينبغي أن نستنتج أنَّ الشعر كان كلامًا غامضًا غير مبين[1]. ويزعم أنَّه «يمكن إذن أن يكون ما يشهد عليه القرآن هو أنَّه قبل ظهوره كان بين العرب بعض الكهان المعروفين بأنَّهم شعراء، ومن المحتمل أنَّ لغتهم كانت غامضة»[2].

وتطرق للحديث عن الرواة من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين، فذكر حمادًا، وخلفًا الأحمر، وأبا عمرو بن العلاء، والأصمعي، وأبا عمرو الشيباني، وابن إسحاق صاحب السيرة، والمبرد، ليجمع كلَّ ما يروق له من إشارات تشيع الشك، وتأتي على هواه؛ ليؤكد كلُّ ذلك شكه في الشعر الجاهلي، فالرواة أنفسهم - حسب زعمه- متشككون في بعضهم، يقول مرجليوث إنَّ: «رأي هؤلاء الرواة الكبار بعضهم في بعض لم يكن حسنًا أبدًا. فابن الأعرابي كان سيئ الرأي في الأصمعي وأبي عبيدة على السواء، ومن المحتمل أنَّهما بادلاه هذا الرأي، وظنا فيه ظنه فيهما»[3].

(١) مرجليوث: نشأة الشعر العربي، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ضمن كتابه: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص٨٧- ٨٨.
(٢) السابق، ص٩١.
(٣) مرجليوث: نشأة الشعر العربي، ترجمة د عبد الرحمن بدوي ضمن كتابه: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص١٠٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وبعد هذه الأدلة التي يسميها مرجليوث أدلة خارجية ينطلق إلى الأدلة الداخلية، ومنها أن هذا الشعر المسمى بالشعر الجاهلي لا يوجد فيه ما يؤكد أنَّه جاهلي، فهؤلاء «الشعراء لم يكونوا ألسنة أحوال الوثنية؛ لقد كانوا مسلمين في كلِّ شيء إلَّا في كونهم لم يُسموا مسلمين»[١]، وهذا على عكس معظم النقوش العربية المسجلة في الجاهلية التي تذكر الآلهة، وأمورًا متعلقة بعبادتهم. فجو الشرك الذي نجده في النقوش غير موجود في هذه القصائد الجاهلية[٢]، وفوق ذلك، فإنَّ «عبيد بن الأبرص وهو يوخ والد امرئ القيس يشير إلى يوم القيامة، ويستخدم تعبيرًا يتضمن معرفة بقانون المواريث في الإسلام»[٣].

ثم ينتقل إلى دليل آخر من الأدلة الداخلية، وهو اللغة، وهو ما يهمنا أكثر؛ إذ يقرر أنَّ قصائد الشعر الجاهلي نظمت بلغة القرآن، «وإن عثرنا هاهنا وهاهناك على كلمة أو شكل يقال: إنَّه ينتسب إلى قبيلة بعينها أو منطقة من المناطق، فإنَّ افتراضنا أنَّ فرض الإسلام على قبائل شبه الجزيرة العربية قد وحد لغتهم، لأنَّه زودهم بنموذج لسلامة اللغة لا نزاع فيه، وهو القرآن»[٤].

ويأتي بنظائر لهذا النموذج، وهو أنَّ الرومان فعلوا الشيء نفسه في إيطاليا، وبلاد الغال (فرنسا)، أو إسبانيا، زاعمًا أنَّ «من الصعب أن نتصور وجود لغة مشتركة قبل مجيء الإسلام بهذا العامل الموحد، لغة تختلف عن لغات النقوش، وانتشرت في كلِّ أرجاء شبه الجزيرة العربية، فلابد أنَّه كانت بين القبائل المختلفة -أو على الأقل، مجموعات القبائل- اختلافات واضحة في النحو والألفاظ»[٥].

---

(١) السابق، ص١٠٩.
(٢) السابق، ص١١٠.
(٣) السابق، ص١١٥.
(٤) السابق، ص١١٨.
(٥) مرجليوث: نشأة الشعر العربي، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ضمن كتابه: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص١١٨- ١١٩.

أمَّا الدليل الثاني من الأدلة الداخلية عنده، فهو أنَّ هذه اللغة الفصحى القرآنية لم تكن لغة جنوب الجزيرة العربية، ومع ذلك جمع الرواة لهم شعرًا بهذه اللغة، لينتهي إلى أن «وجود أفكار إسلامية في أعمال واضحة الوثنية، هو دليل واضح على أنَّها زائفة منحولة، كذلك فإنَّ استعمال اللهجة التي جعلها القرآن كلاسيكية، يدعو إلى ارتياب شديد»[1].

والدليل الثالث من الأدلة الداخلية -حسب زعم مرجليوث- هو محتوى القصائد، يزعم أنَّه «إذا كانت القصائد تبدأ عادة بالغزل لأنَّ القرآن يقول: إنَّ الشعراء يهيمون في كلِّ واد، وإذا كانوا يمضون بعد ذلك إلى وصف أسعارهم وركائبهم؛ لأنَّ القرآن يقول: إنَّ «الشعراء يتبعهم الغاوون»؛ وهذا يعني قطعًا أنَّ الشعراء هم أيضًا غاوون. وإذا كانوا يتنقلون بعد ذلك إلى الإطناب في وصف أفعالهم وإنجازاتهم -وغالبًا يتنافى مع الأخلاق- لأنَّ القرآن يقرر أنَّهم «يقولون ما لا يفعلون»، فإنَّنا نستطيع - على الأقل- أن نقتفي إلى المنبع هذا الرتوب الذي دعا بعض النقاد إلى القول: بأنَّ كلَّ ما يهم في القصائد كان هو اللغة؛ لأنَّها جميعًا تكرر نفس المعاني»[2].

ليخلص من كلِّ هذا إلى تأكيد نفيه الشعر الجاهلي، فيقول: «فهل نستطيع أن نصدق أن البدوي غير المتحضر كان عنده شعر على النحو المتضلع الذي ينسبه إليه الرواة والإخباريون المسلمون؟ وبالجملة فإنَّ الاحتمال الأرجح - فيما يبدو- هو افتراض أنَّ الشعر والنثر المسجوع مستمدان كلاهما -في الغالب- من القرآن، وأنَّ المحاولات الأدبية التي سبقت القرآن أقل، وليست أكثر حظًّا من الفن»[3]. وهكذا عرض مرجليوث فرضيته مؤكدًا نفي الشعر الجاهلي.

(١) السابق، ص١٢١.
(٢) السابق، ص١٢٢.
(٣) ا مرجليوث: نشأة الشعر العربي، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ضمن كتابه: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص١٢٧.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أمَّـا د. طـه حسـين فـإنَّ فرضيتـه قائمـة في جوهرهـا علـى الرؤيـة نفسـها الـتي زعمهـا مرجليـوث، وقـد نشـرها سـنة ١٩٢٦ م في كتابـه (في الشـعر الجاهلـي). وقـد أنكـر الشـعر الجاهلـي كمـا فعـل مرجليـوث، وسـاق أغلـب الأدلـة الـتي سـاقها مرجليـوث، وأضـاف أشـياء ربَّمـا أكـثر مناسـبة للسـياق الثقـافي العـربي الـذي يحتـاج إلى حجـاج يتوافـق مـع الثقافـة العربيـة الإسلاميـة؛ ورغـم كلِّ هـذا كان هـذا الكتـاب صدمـة أحدثـت دويًّـا في أذهـان المفكريـن العـرب، وجـاءت علـى نتيجـة ذلـك ردود كثـيرة، سـوف تتضـح فيمـا بعـد.

لقـد خلـص طـه حسـين في نهايـة الفصـل الرابـع مـن كتابـه (في الشـعر الجاهلـي) والمعنـون بـ:(الشـعر الجاهلـي واللغـة) إلى أنَّ الشـعر الجاهلـي «لا يمثّـل اللغـة الجاهليـة، ولا يمكـن أن يكـون صحيحًـا؛ ذلـك لأنَّنـا نجـد بـين هـؤلاء الشـعراء الذيـن يضيفـون إليهـم شـيئًا كثـيرًا مـن الشـعر الجاهلـي قومًـا ينتسـبون إلى عـرب اليمـن، إلى هـذه القحطانيـة العاربـة الـتي كانـت تتكلـم لغـة غـير لغـة القـرآن، الـتي كان يقـول عنهـا أبـو عمـرو بـن العـلاء، إنَّ لغتهـا مخالفـة للغـة العـرب، الـتي أثبـت البحـث الحديـث أنَّ لهـا لغـة أخـرى غـير اللغـة العربيـة»[1]. وفي الفصـل الخامـس المعنـون بـ:(الشـعر الجاهلـي واللهجـات)، يشـير د. طـه حسـين إلى أنَّ «الـرواة مجمعـون علـى أنَّ قبائـل عدنـان لـم تكـن متحـدة اللغـة، ولا متفقـة اللهجـة قبـل أن يظهـر الإسـلام، فيقـارب بـين اللغـات المختلفـة، ويزيـل كثـيرًا مـن تبايـن لهجاتهـا، وكان مـن المعقـول أن تختلـف لغـات العـرب العدنانيـة وتتبايـن لهجاتهـا قبـل ظهـور الإسـلام، ولاسـيما إذا صحـت النظريـة الـتي أشـرنا إليهـا آنفًـا، وهـي العزلـة العربيـة، وثبـت أنَّ العـرب كانـوا متقاطعـين متنابذيـن، وأنَّـه لـم يكـن بينهـم مـن أسـباب المواصـلات الماديـة والمعنويـة مـا يمكـن مـن توحيـد اللهجـات»[2].

وينتهـي مـن هـذا إلى القـول إلى أنـه إذا صـح هـذا كلُّـه «كان مـن المعقـول جـدًا أن تكـون لكلِّ قبيلـة مـن هـذه القبائـل لغتهـا، ولهجتهـا، ومذهبهـا في الـكلام، وأن يظهـر اختـلاف اللغـات،

(١) د. طه حسين: في الشعر الجاهلي، ص ٦٨.
(٢) د. طه حسين: في الشعر الجاهلي، ص٦٩- ٧٠.

وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل، الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة، ولهجات متقاربة، ولكنَّنا لا نرى شيئًا من ذلك في الشعر العربي الجاهلي»[1].

وإذا كان مرجليوث قد زعم بوضوح دون تردد إنكار الشعر الجاهلي متحججًا بأدلة متعددة، ومنها أن لغة القرآن هي التي وحدت لغات العرب، واتخذت لغة مشتركة لكلِّ العرب بعد الإسلام، فإنَّ طه حسين يسوق الزعم نفسه بشرح مختلف، حيث يذكر أنَّ القبائل بعد الإسلام قد اتخذت للأدب لغة غير لغتها، وتقيدت في الأدب بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شعرت في لغتها الخاصة، «أي إنَّ الإسلام قد فرض على العرب جميعًا لغة عامة واحدة، هي لغة قريش، فليس غريبًا أن تتقيد هذه القبائل بهذه اللغة الجديدة، في شعرها، ونثرها، وفي أدبها بوجه عام»[2]، ويرى أنَّ لغة قريش سادت قبيل الإسلام، حين عظم شأن قريش، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية[3]. ليخلص من بحثه إلى النتيجة التالية التي نصَّ عليها بقوله «وإذًا، فنحن ندور: نثبت لغة امرئ القيس التي نشك فيها بشعر امرئ القيس الذي نشك فيه»[4].

والحقيقة أنَّ هذه الفرضية برمتها مرجليوثية، جاءت في سياق ثقافي أوروبي، ساد فيه الشك في الإسلام وثقافته، وسادت هذه الفرضية عند بعض الباحثين من أمثال د. طه حسين. ولكن من التعسف أن نذكر أنَّ كلَّ المستشرقين اعتنق هذه الفرضية، لأن كثيرًا منهم قد رد على هذه الفرضية، ورفضها. وسأعرض ذلك بشيء من التفصيل في الصفحات التالية.

كان من أوائل من أثار مسألة صحة الشعر الجاهلي تيودر نولدكه، وبعده فيلهام ألفرت، وكلٌّ منهما مقتنع «أنَّ قسمًا كبيرًا من الشعر قد وصل إلينا موضوعًا، أو

(١) السابق، ص٧٠.
(٢) د. طه حسين: في الشعر الجاهلي، ص٧٢.
(٣) السابق، ص٧٤.
(٤) السابق، ص١٦١.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

حـتى منتحـلًا، وبأنَّـه مـن الممكـن في بضـع حـالات إنشـاء النظـام الأصلـي للأجـزاء بوسـائل فيلولوجيـة، واسـتبعاد مـا هـو منتحـل، وإرجـاع الشـكل القديـم علـى وجـه الإجمـال»[1]. وكان نولدكـه قـد أشـار بموضوعيـة شـديدة إلى أنَّهـم (أي المستشـرقين) لا يسـتطيعون التوغـل في «الحكـم الدقيـق علـى القصائـد إلى الحـد الـذي يسـتطيعه النقـاد العـرب، بـل سـيكون حالنـا أقـل ممَّـا يسـتطيعه فرنسـي، أو إنجليـزي، مـن الحكـم الصـادق علـى الشـعر الألمانـي مثـلًا؛ ذلك لأنَّـه يحتـاج إلى معرفـة بدقائـق اللغـة (العربيـة) والاسـتعمال الشـعري، لا يسـتطيع اكتسـابها أي أجنـبي. ومـا أبعدنـا عـن إدراك أدق الفـروق في الاسـتعمال اللغـوي العـربي القديـم»[2].

ويقـرر أيضًـا أنَّـه مهمـا يكـن مـن شـدة التغيـرات الـتي أصابـت الشـعر الجاهلـي، «ومهمـا تعرضـت لـه روايتـه مـن اضطـراب، فإنَّـه تفـوح مـن هـذه الشـذرات روح منعشـة تـدل علـى أنَّ قـوة الشـعر العـربي البـدوي وجمالـه لـم يضيعـا، وكمـا أن «أناشـيد هوميـروس، بالرغـم مـن كـلِّ مـا أصابهـا مـن تغيـرات، وبرغـم كل غمـوض في معانيهـا لا يـزال يـرف منهـا ربيـع الإنسـانية الوضـاء»[3]، وأنَّنـا نتلقـى مـن القصائـد العربيـة القديمـة مـا «هـو صـورة حيـة للعـرب القدمـاء بفضائلهـم وعيوبهـم، بعظمتهـم ومحدوديتهـم»[4].

أمَّـا المستشـرق الألمـاني ألفـرت (Ahlwardt, W.) (١٨٢٨– ١٩٠٩ م) فيدافـع عـن صحـة الشـعر الجاهلـي، ويسـتند لذلـك بدليـل مهـم، وهـو أنَّ العـرب «اقتصـروا قـدر المسـتطاع علـى أقـدم عصـر، فليـس السـبب في ذلـك أنَّ لسـان الشـعراء قـد خـرس مـع مـجيء العصـر الجديـد، بـل علـى العكـس، في وسـعنا بالأحـرى أن نبـيّن أنَّ القـرن الأوَّل (مـن الإسـلام) غـني بالشـعراء الذيـن اقتفـوا آثـار السـابقين، وأنتجـوا أعمـالًا أكـبر حجمًـا، وعـددًا، وذات أهميـة رفيعـة. إنَّمـا السـبب يقـوم بالأحـرى في كـون الـثروة اللغويـة كمـا حفظـت في الأمثـال وفي شـعر

(١) إيفالد فاجنر: أسس الشعر العربي الكلاسيكي، ص ٤١ – ٤٢.
(٢) نولدكـه: مـن تاريـخ ونقـد الشـعر العـربي القديـم، ضمـن: دراسـات المستشـرقين حـول صحـة الشـعر الجاهلـي، ص ٢٠.
(٣) السابق، ص٣٩.
(٤) السابق، ص ٤٠.

العصر القديم، سليمة صافية، لم تزيفها تأثيرات أجنبية»[1]. ويشير ألفرت أيضًا إلى أنَّه «لم يكن من بين القرشيين شاعر مشهور، فلم يكن في وسعهم إذًا أن يدعوا دعوى السيادة في ميدان الشعر، وما كان يرضى أحد بالتسليم لهم بهذا»[2].

ويخلص المستشرق الألماني برونيلش .(Braunlich, E) (١٨٩٢- ١٩٤٢م) إلى أنَّه «ينبغي علينا ألَّا نستسلم للشك المفرط فيما يتعلق بالمادة الشعرية التي رواها اللغويون، ولا للإفراط في الثقة العمياء فيما يتعلق بقدحهم بعضهم في بعض»[3]. ويزعم أيضًا أنَّه لو كانت: «كلُّ الأشعار الجاهلية -وربَّما كلُّ الأشعار السابقة على العصر الأموي- منحولة، وأنَّها صنعت على الأبكر في العصر الأموي، فإنَّه لن يكون مفهومًا لماذا فضل علماء اللغة الذين ازدهروا في نفس العصر، باعتبار اللغة أداة مساعدة لتفسير القرآن، نقول: لماذا فضلوا أخذ شواهدهم من الشعر الجاهلي على أخذها من الشعر الأموي؛ لأنَّه لن تكون لغة الشعر الجاهلي أقرب إلى القرآن من لغة الشعر الأموي»[4]. فمن الواضح أنَّه يرفض الشك في الشعر الجاهلي، بل يؤكد صحته استنادًا إلى دليل قوي، وهو اعتماد العرب القدماء عليه في تفسير القرآن الكريم، كما أنَّ العرب فضَّلوه أيضًا كشواهد لغوية ونحوية في تقعيدهم القواعد النحوية العربية.

ويرفض إشبرنجر الشك في الشعر الجاهلي، معتمدًا على دليل مهم يتمثل في عملية الإسناد؛ إذ يقول: «صدق ابن قتيبة حين قال -وقد أورده في كتاب الكمال في أسماء الرجال- :»ليس لأمة من الأمم إسناد كإسنادهم، يعني هذه الأمة»، فالواقع هو أنَّ علم الرواية (الشفوية) خاصة اختص بها الإسلام، بيد أنَّ القليلين جدًّا من المستشرقين قدروها حق قدرها، وفهموها كما ينبغي»[5].

(١) ألفرت: ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة، ضمن: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص٤٤.
(٢) ألفرت: ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة، ضمن: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص٤٧.
(٣) برونيلش: في مسألة صحة الشعر الجاهلي، ترجمة د. بدوي، ص١٣٧.
(٤) السابق، ص ١٤١.
(٥) أوجست إشبرنجر: الرواية والرواة عند العرب، ترجمة د. بدوي، ص ٢٤٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وكان المستشـرق البريطـاني تشـارلز ليـال (Lyall, Ch.) (١٨٤٥– ١٩٢٠م) أكثرهـم رفضًـا لفرضيـة مرجليـوث – طـه حسـين ا، ويؤكـد صحـة الشـعر الجاهلـي، زاعمًـا أنَّنـا عندمـا نفحـص القصائـد ذاتهـا نجـد فيهـا مـن الشـخصية الفرديـة مـا يكفينـا للاسـتدلال علـى أنَّهـا في مجملهـا مـن نظـم الشـعراء المنسـوبة إليهـم، أمَّـا السـبب الثـاني في تأكيـد ليـال علـى صحـة الشـعر الجاهلـي، فهـو أنَّ شـعر القـرن الأوَّل الهجـري يتضمـن وجـود هـذا الشـعر الجاهلـي، ويفـترض سـبقه عليـه، فقـد اسـتمر الفـرزدق وجريـر والأخطـل وغيرهـم مـن شـعراء القـرن الأوَّل الهجـري يتبعـون تقاليـد الشـعراء الجاهليـين، فقـد اسـتعملوا ذخيرتهـم الشـعرية مـرارًا، متناولـين الموضوعـات نفسـها بالأسـلوب نفسـه؛ وسـبب ثالـث لـدى ليـال يؤكـد صحـة الشـعر الجاهلـي، وهـو أنَّـه مليء بألفـاظ كانـت غريبـة علـى العلمـاء الذيـن كانـوا أوَّل مـن عـرض هـذا الشـعر علـى محـك النقـد، فقـد كانـت – حسـب زعـم ليـال – تنتمـي إلى مرحلـة لغويـة أقـدم مـن عصرهـم[1] .وأتى أصحـاب نظريـة الروايـة الشـفوية للشـعر الجاهلـي– كمـا رأينـا في الفصـل السـابق عنـد زويتلـر (أحـد أعلامهـا)، وكمـا يقـول د. فضـل العمـاريّ: «أمَّـا أنَّ هـذه النظريـة لهـا إيجابيـات فهـذا صحيـح، فقـد أكـدت علـى الأقـل أنَّ نظريـة مرجليـوث – طـه حسـين ليـس لهـا أسـاس أصـلًا؛ لأنَّنـا بدراسـتنا للقالـب الصياغـي في الشـعر الجاهلـي نلاحـظ النمطيـة والتكراريـة فيـه؛ وهـذا يـدل علـى أنَّـه يجـري علـى سـنن واحـدة؛ فإنَّـه لا يمكـن أن يولـد فجـأة»[2]. ويشـير مونـرو في سـياق رفضـه فرضيـة مرجليـوث – طـه حسـين إلى أنَّـه إذا «كان مجمـوع الشـعر الجاهلـي قـد انتحـل كليـة، فـإنَّ الإحسـاس العـام سـوف يخبرنـا بأنَّـه لابـدَّ أنَّـه انتحـل حسـب تقليـد لنمـوذج أقـدم مفقـود منـا الآن، وأنَّ هـذا النمـوذج لابـد أنَّـه كان صحيحًـا بالضـرورة، إذ أنَّـه مـن غيـر المتصـور أنَّ أدبًـا كاملًا قـد نشـأ مـن لا شيء»[3]، ويخلـص إلى أنَّ وجهـة النظـر هـذه قـد قبلهـا باحثـون أكـثر اعتـدالاً. يقصـد رفـض فرضيـة مرجليـوث– طـه حسـين. ويذكـر فاجـنر أنَّـه «فلـو لـم يوجـد شـعر مـا قبـل الإسـلام (جاهلـي)،أو أنَّـه قـد ضـاع كليَّـة مـع ظهـور الإسـلام لمـا كان لـدى فقهـاء اللغـة الناحلـين

(١) ليال: مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص، ترجمة د. حسين نصار، ص١٧.
(٢) د. فضل العماريّ: تمهيد ترجمة بحث مونرو: النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، ص٨– ٩.
(٣) جيمز مونرو: النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، ص ٢٤.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

في العصر العباسي نموذج يستطيعون أن ينحلوا وفقًا له، وهكذا فإنَّهم قد احتاجوا إلى نموذج، حيث يعكس شعر ما قبل الإسلام العلاقات الاجتماعية زمن البدو كليَّة، الذي لم يعد موجودًا زمن فقهاء الحواضر، وليس من الممكن أيضًا، أنَّ النحاة ومفسري القرآن قد اختلقوا عمدًا شعرًا بأكمله؛ ليستجلبوا شواهد لهم. ولعل منهج أبيات الاستشهاد بأكمله لم ينشأ مطلقًا إلَّا حين لم يكن أساس معين من القصائد الصحيحة موجودًا، تلك (أي الأبيات) التي ربَّما كانت قوة إثبات حقيقية أو قدمت أوجه إعانة على الفهم. فلا يمكن أن تزوّر شواهد منحولة إلَّا بعد نشوء المنهج»[1].

وهذا الرأي الرافض للشك بأنواعه- سواء كان في الشعر الجاهلي أم الشك في النحاة- يؤكد لنا -كما ذكرنا- ارتباط تاريخ العربية بقضايا الشك بأنواعه، سواء كان في الشعر الجاهلي أم في لغة القرآن، ونظام الأسانيد، أم في النحاة. انظر إلى شك طه حسين في الفقرة التالية لتتأكد من ذلك: «إنَّ ما تقرؤه على أنَّه شعر امرئ القيس، أو طرفة، أو ابن كلثوم، أو عنترة، ليس من هؤلاء الناس في شيء، وإنَّما هو نحل رواه الرواة، أو اختلاق الأعراب، أو صنعه النحاة، أو تكلف القصاص، أو اختراع المفسرين والمتحدثين والمتكلمين»[2].

وأنَّ هناك سلبيات عديدة لفرضية مرجليوث - طه حسين المتشككة في الشعر الجاهلي، منها أن مرجليوث ينفي وجود مهنة الرواية مع أنَّ المصادر المختلفة تؤكد وجود سلسلة من الرواة تعاقبوا في الرواية، إضافة إلى أنَّ هناك بعض القصائد الجاهلية التي تزخر بإشارات تؤكد وجود الرواة[3]. ويبدو أن مرجليوث لم يستوعب موضوع الرواية، بل راح بقصد مسبق يحشد كلَّ الحجج، ويلتقط كلَّ الأخبار والروايات، التي فيها طعن بالرواة، متناسيًا المنافسة، والعصبية التي كانت بين الرواة أنفسهم، ومتناسيًا الروايات والأخبار التي توثق هؤلاء الرواة، وتشيد بحفظهم، وعلمهم، وسعة اطلاعهم[4].

(١) فاجنر: الشعر العربي القديم، ترجمة د. سعيد بحيري، ص٥٦.
(٢) د. طه حسين: في الشعر الجاهلي، ص٦٣.
(٣) د. مصطفى هدارة: موقف مرجليوث من الشعر العربي، ص٤٠٥.
(٤) د. يحيى الجبوري: المستشرقون والشعر الجاهلي، ص٩٣.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ومن الأدلة المهمة أيضًا على صحة الشعر الجاهلي وضعف فرضية مرجليوث- طه حسين ما أثبته د. ناصر الدين الأسد في مقال له بعنوان: (شواهد على صحة الشعر الجاهلي)، يعتمد فيه على شعر لا طعن في صحة نسبته إلى عصره، ولا إلى شاعره، كشعر جرير، والأخطل؛ فيرى من النظر في شعر الفرزدق أنَّه يذكر الشعراء الجاهليين في شعره، وأن ذلك يعدُّ دليل على أنه «ورث منطقهم»، ليخلص د. الأسد إلى أنَّ هذه إشارات محكمة، نضمها إلى غيرها ممَّا أوردناه من شعر صدر الإسلام، والشعر الأموي، لتصبح كلُّها واضحة الدلالة على أنَّ التراث الشعري الجاهلي ظل موصول الحلقات، يتناقله الخلف عن السلف، والجيل بعد الجيل منذ العصر الجاهلي[1].

إنَّ مرجليوث قد حاول فهم الآيات القرآنية فهمًا خاصًا، ووجهها توجيها خاطئًا، وفسرها كما يحلو له، ومن ذلك استنتاجه من الآية ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾[2] أنَّ الشعراء كانوا يتنبؤون بالغيب، مع أنَّ وجود كلمة الشاعر في الآية لا يعني اقترانه بالكاهن والمجنون. واستنتج مرجليوث من قوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[3] أنَّ الأفاكين الآثمين في الآيات هم الشعراء الذين تنزل عليهم الشياطين، مع أنَّ المقصود بهم الكهان وليس الشعراء، ولم نجد أحدًا من المفسرين المسلمين فسَّر الأفاك الأثيم الذي تنزل عليه الشياطين بالشاعر، بل الكاهن[4]. ويستنتج - بسوء فهم- من القرآن الكريم زعمه أنَّ الشعر الجاهلي كان كلامًا غامضًا، وأنَّ الشاعر الجاهلي هو المقصود بالأفاك الأثيم[5].

(١) انظر د. الأسد: شواهد على صحة الشعر الجاهلي، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص١٥٣.
(٢) سورة الطور، آية: ٢٩، ٣٠.
(٣) سورة الشعراء: آية ٢٢١، ٢٢٢.
(٤) الجبوري: المستشرقون والشعر الجاهلي، ص٨٠.
(٥) د. مصطفي هدارة: موقف مرجليوث من الشعر العربي، ص٤٠١.

وقـدم د. عرفـان شـهيد(Shahid, I.) مقالـين في تفسـير الآيـات الكريمـة ، مـن ٢٢٤ إلى ٢٢٧ مـن سـورة الشـعراء. ذكـر في المقـال الأوَّل أنَّ تفسـير مرجليـوث لهـذه الآيـات في مقالـه المذكـور (١٩٢٥) كان غـير سـديد، ولـم يكـن- حسـب زعـم شـهيد- غـير ناجـح فحسـب،؛ بـل كان كارثـة (Disastrous) في صياغـة واحـد مـن الأسـس الـتي ارتكـز عليهـا في الشـك بالشـعر الجاهلـي[1]. وقـد اعتمـد شـهيد في مقالـه الأوَّل (١٩٦٥)، وفي مقالـه الثـاني (١٩٨٣) علـى كتـب تفسـير القـرآن الكريـم، والكتـب العربيـة القديمـة الـتي تحـدد دلالات الكلمـات (يهيمـون، غـاوون، شـاعر، وغيرهم)[2] مـن السـياق الثقـافي العـربي الإسـلامي، منتهيًـا إلى رفـض تفسـير مرجليـوث.

أمَّـا عمـر الشـعر الجاهلـي فقـد تشـكك مرجليـوث في وجـوده، وزعـم أنـه نظـم بعـد نـزول القـرآن؛ ولا حجـة لـه في ذلـك، وهـذا مـا توصـل إليـه د. عـادل سـليمان أسـتاذ الأدب العـربي بجامعـة أريزونـا، معتمـدًا علـى تحليـل نقـش النمـارة للمستشـرق بيـلامي (Bellamy, J.)، حيـث ذكـر أنّ هـذا النـص يضيـف قرنًـا ونصفًـا مـن الزمـان إلى عمـر اللغـة العربيـة. ولا عجـب في ذلـك، فهـي لغـة محافظـة أشـد المحافظـة، وينتهـي إلى أنَّ معـنى ذلـك «أنَّ اللغـة العربيـة لا يعـود اكتمالهـا إلى أواخـر القـرن الخامـس، أو أوائـل السـادس، بـل إلى منتصـف القـرن الرابـع. وتضيـف الدراسـة الحاليـة أكـثر مـن قـرن إلى عمـر اللغـة العربيـة، وبالطبـع الشـعر الجاهلـي»[3].

وقبـل أن أنتقـل إلى سـرد أهـم السـلبيات الخاصـة بفرضيـة مرجليـوث - طـه حسـين، والمتعلقـة بتاريـخ اللغـة العربيـة، والواقـع اللغـوي العـربي في الجاهليـة، أشـير إلى أنَّ هـذه

(1) Shahid, I, 1963, p. 564.
(2) Shahid, I. 1983: p. 1 –21.
(٣) د. عادل سليمان جمال: عمر الشعر الجاهلي، ص٣٠٦.

الفرضيـة ليـس لهـا مـكان الآن لـدى الباحثـين في هـذا التخصـص، كمـا أنَّ د. عبـد الرحمـن بـدوي ذكـر في كتابـه: «دفـاع عـن القـرآن ضـد منتقديـه» مـا نصـه: «لقـد جنـد صموئيـل مرجليـوث نفسـه طـول حياتـه عـدوًا عنيـدًا ضـد الإسـلام، ودفعـه تعصبـه العنيـف إلى عرض مزاعـم شـديدة الغرابـة، لـم يكـن القصـد منهـا سـوى الهجـوم علـى الرسـول محمـد - صلـى الله عليـه وسـلم-، والحـط مـن رسـالته»[1].

(٢) فرضية مرجليوث - طه حسين والعربية الفصحى

ذكـر أصحـاب هـذه الفرضيـة- كمـا عرضنـا سـابقًا- أنَّ اللغـة الفصـحى القرآنيـة لـم تكـن لغـة جنـوب الجزيـرة العربيـة، وزعـم طه حسـين أنَّ الشـعر الجاهلـي لا يمثّـل اللغـة الجاهلية؛ بسـبب أنَّنـا نجـد بـين هـؤلاء الشـعراء قومًـا ينتسـبون إلى عـرب اليمـن الذيـن كانـوا يتكلمـون لغـة غـير لغـة القـرآن. ويشـير طـه حسـين إلى أنَّ الـرواة أجمعـوا علـى أنَّ قبائـل عدنـان لـم تكـن متحـدة اللغـة، ولا متفقـة اللهجـة قبـل الإسـلام، وأنَّ القبائـل العربيـة بعـد الإسـلام اتخـذت للأدب لغـةً غـير لغتهـا، أي: إنَّ الإسـلام قـد فـرض علـى العـرب جميعًـا لغـة عامـة واحـدة هـي لغـة قريـش، فقـد سـادت قبيـل الإسـلام حـين عظـم شـأن قريـش، وحـين أخـذت مكـة تسـير إلى وحـدة سياسـية مسـتقلة ومقاومـة السياسـة الأجنبيـة الـتي كانـت تتسـلط علـى أطـراف البـلاد العربيـة.

وأبـدأ بمناقشـة مزاعـم أصحـاب هـذه الفرضيـة المتعلقـة بالواقـع اللغـوي في الجاهليـة، فهـم يزعمـون أنَّ مـن بـين الشـعراء الجاهليـين قومًـا ينتسـبون إلى عـرب اليمـن الذيـن كانـوا يتكلمـون لغـة غـير لغـة القـرآن، وهـذا غـير صحيـح كمـا سـنرى. وحـتى الذيـن رفضـوا هـذا الـكلام مـن الذيـن ردوا علـى د. طـه حسـين وقعـوا في أخطـاء، ومـن هـؤلاء الأسـتاذ محمـد فريـد وجـدي، فقـد ذكـر أن لا فـرق بـين العربيـة الجنوبيـة (عربيـة اليمـن) والعربيـة الشـمالية في الجاهليـة. ويرفـض قـول طـه حسـين الزاعـم أنَّ الصلـة بـين عربيـة الشـمال وعربيـة

(١) د. عبد الرحمن بدوي: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله، ص٦٥.

الجنوب كالصلة بين اللغة العربية وأية لغة أخرى من اللغات السامية؛ ليخلص إلى أنَّ هذا الزعم لا يوافق عليه، بل هو غير معقول أصلًا[١].

ويبيِّن سبب رفضه قائلًا: «إذا كانت اليمن من بلاد العرب فمن العبث ألَّا تسمى لغتها باللغة العربية، وإذا ثبت أنَّ بين لغة اليمن ولغة نجد وتهامة اختلافًا فيجب أن نلتمس تعليل هذا الاختلاف لأسباب سياسية واقتصادية وجغرافية»[٢]. إنَّ الأمر مخلوط في ذهن أ. وجدي كما هو واضح، يؤكد ذلك أيضًا قوله: «وإذا كنَّا -رغمًا عن الخلاف الكبير بين اللغات الحبشية والعبرانية والسريانية والعربية- ندعي أنَّها كلَّها مشتقة من البابلية، فمن العبث أن يحملنا الخلاف الموجود بين لغتي شمال العرب وجنوبها على القول بأنَّهما لغتان متمايزتان مع وجود الصفة المميزة الوحيدة للغة العربية، وهي الإعراب في كلتا اللهجتين العدنانية والقحطانية»[٣].

ومن الواضح أنَّ أ. محمد فريد وجدي لم يكن على اتصال بكل ما حدث من اكتشافات علمية في الدراسات السامية في القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل العشرين، أي: قبل طبع كتابه سنة ١٩٢٦ م، وإلَّا كان قد تأكد أنَّ البابلية لغة سامية وليست أصلًا للساميات، وإنَّما هي لغة سامية مثلها مثل الآرامية، والحبشية، وغيرهما. وتأكد أيضًا في القرن التاسع عشر الميلادي في حقل الدراسات السامية أنَّ هناك عربيتين: عربية شمالية، وعربية جنوبية. واللغة العربية الجنوبية ليست حميرية (لغة حمير) في القرن الخامس الميلادي، وهو عهد الأدب الجاهلي المروي، لكنَّها حميرية النقوش المعينية، والسبئية التي يعود أقدمها إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلادي[٤].

(١) محمد فريد وجدي: نقد كتاب الشعر الجاهلي، ص٥٤.
(٢) السابق، ص ٥٤.
(٣) السابق، ص٥٤- ٥٥.
(٤) الجبوري: المستشرقون والشعر الجاهلي، ص ١٢٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ومـن ثَـمَّ فـإنَّ عـرب اليمـن الذيـن ارتحلـوا إلى الشـمال، وتربـوا في بيئـة جديـدة، قـد انقطعـوا عـن لغـة الجنـوب، فقـد نشـأوا وتكلمـوا اللغـة العدنانيـة، لغـة الشـعر الجاهلي، ونشـأت أجيـال بعـد ذلـك لا تعـرف عـن اللغـة الجنوبيـة شـيئًا[١]، ومـن ثَـمَّ فقـد أخطـأ د. طـه حسـين في قولـه: كيـف لامـرئ القيـس أن ينشـد شـعرًا باللغـة العربيـة العدنانيـة، وهـو يمـني الأصـل، ونـسي أنَّ لغـة امـرئ القيـس كانـت غـير لغـة اليمـن الـتي وردت في النقـوش الـتي كانـت قبلهـم بقـرون.

إنَّ د. طـه حسـين لـم يكـن لديـه معرفـة - على حـد قـول عرفـان شـهيد- بـأي مـن نقـوش اليمـن[٢]. وقـد رأينـا في بدايـة البحـث - حينمـا عرضنـا بإيجـاز للغـات السـامية- أنَّ هـتزرون قسـم اللغـات السـامية إلى سـامية شـرقية، وسـامية غربيـة. وقسـم السـامية الغربيـة إلى سـامية جنوبيـة -ومنهـا اللغـة الحبشـية، والعربيـة الجنوبيـة- والسـامية الوسـطى، ومنهـا العربيـة الشـمالية، والكنعانيـة. ويزيـد بيسـتون (Beeston, A.) في توضيـح الواقـع اللغـوي العـربي في شـبه الجزيـرة العربيـة قبـل الإسـلام، فيقـرر أنَّ لغـات جنـوب شـبه الجزيـرة قبـل الإسـلام هـي المعينيـة، والسـبئية، والقتبانيـة، والحضرميـة؛ وأن هـذه اللغـات ترجـع أصولهـا - حسـب زعـم بيسـتون- إلى مجموعـة سـامية مختلفـة وشـقيقة للعربيـة الشـمالية. ويشـير بيسـتون إلى أنَّ هـذا الـرأي مرحـب بـه داخـل البحـث في الساميات[٣] . يضـاف إلى ذلـك أنَّ ظهـور العربيـة الفصـحى- حسـب زعـم بيسـتون- بـدأ مبكـرًا علـى الأقـل في القـرن الرابـع الميـلادي، يشـهد بذلـك نقـش النمـارة[٤].

أشـير هنـا إلى أنَّ عرفـان شـهيد اسـتغل هـذا التناقـض وهـذه الأخطـاء الموجـودة في فرضيـة مرجليـوث- طـه حسـين - وبخاصـة في تصورهمـا للواقـع اللغـوي العـربي في شـبه الجزيـرة العربيـة قبـل الإسـلام- وكتـب بحثًـا يقـوّض فيـه هـذه الفرضيـة مـن الناحيـة اللغويـة، عنونـه بمـا ترجمتـه: (صحـة الشـعر الجاهلـي، اتجـاه لغـوي). وخلاصـة بحـث شـهيد أنَّ الذيـن ردوا علـى طـه حسـين لـم يصلـوا إلى جـذور المشـكلة حينمـا ذكـروا في ردهـم عليـه أنَّ امـرأ القيـس لـم يكـن يعيـش في الجنـوب، بـل في الشـمال، مستشـهدين بذلـك علـى أن لغتـه

(١) السابق، ص ١٢٢.

(2) Shahid, I. 1996: p. 4.

(3) Beeston, A. 1981: p. 181.

(4) Ibid., p. 182.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تلائـم المنطقـة الشـمالية مـن شـبه الجزيـرة العربيـة. وأكـد شـهيد أنَّ هـذا الـرد لا يتمـاشى ولا يصـل إلى جـذور المشـكلة، وأنَّ ذلـك لا يحـل المشـكلة الـتي قدمهـا الشـعراء العـرب الذيـن لـم يهاجـروا إلى الشـمال، واسـتمروا في الإقامـة في الجنـوب، مضيفًـا أن سـوء الفهـم لـدى طـه حسـين -حسـب زعـم شـهيد- كان في تصـوره للخريطـة اللغويـة في شـبه الجزيـرة العربيـة قبـل الإسـلام، وأن سـبب هـذا الخطـأ راجـع إلى تصـور طـه حسـين وجـود لغتـين جنبًـا إلى جنـب قبـل الإسـلام.

ويـرد عرفـان شـهيد بقولـه: إنَّ هـذه المنطقـة كان يوجـد فيهـا سـلالتان مختلفتـان، أهـل الجنـوب ويتكلمـون اللغـة السـبئية، وهـي مجموعـة مختلفـة عـن العربيـة الشـمالية، إضافـة إلى بعـض القبائـل، مثـل: كنـدة، وهمـدان، فهـؤلاء كانـوا عربًـا عاشـوا في الجنـوب، ولـم يتحدثـوا اللغـة السـبئية بـل العربيـة. فعـرب الجنـوب انقسـموا لغويًـا إلى مجموعتـين: بعضهـم كان منحـدرًا مـن عـرب الجنـوب، وبعضهـم لـم يكـن منحـدرًا مـن عـرب الجنـوب[1]، ومـن هنـا يذكـر شـهيد أنَّ كنـدة كانـت قبيلـة عربيـة، هاجـرت إلى الشـمال تحـت ظـروف مختلفـة، وكانـوا عربًـا يتحدثـون العربيـة الشـمالية، سـواء أكانـت إقامتهـم في جنـوب شـبه الجزيـرة، أم في شـمالها، ومعهـا بعـض القبائـل العربيـة غـير السـبئيين، فقـد تحدثـوا العربيـة الشـمالية كلغـة أصليـة[2]. ومـن هنـا فـإنَّ مـا ذكـره د. طـه حسـين وقبلـه مرجليـوث مـن أدلـة علـى عـدم وجـود الشـعر الجاهلـي، والشـك فيـه بسـبب أنَّ هنـاك شـعراء مـن كنـدة وغيرهـا مـن القبائـل اليمنيـة، وأن هـذه القبائـل لـم تتكلـم العربيـة الشـمالية - حسـب زعـم طـه ومرجليـوث - غـير صحيـح، اسـتنادًا إلى الاسـتنتاجات العلميـة في مجـال البحـث في السـاميات، وتاريـخ اللغـة العربيـة، والبحـث الأنثروبولـوجي؛ إذ كلُّ الشـعراء الذيـن يسـمون باليمنيـين، وفي مقدمتهـم جميعًـا الشـاعر الكنـدي امـرؤ القيـس - كانـوا عربًـا، وتحدثـوا العربيـة ذات اللسـان العـربي الأصيـل، وليـس لغـة سـبأ. ومـن هنـا يقـرر شـهيد أنَّ د. طـه حسـين قـد وقـع فريسـة لبعـض المفاهيـم المغلوطـة[3] الـتي كانـت سـائدة آنـذاك.

(1) Shahid, I.1996: p. 7- 8.
(2) Ibid., p. 8.
(3) Ibid., p.8.

وقادت تلك الفرضية كلًّا من مرجليوث وطه حسين إلى مشكلات لغوية، فقد أخطآ في تصورهما لتاريخ العربية الفصحى، وقد ظهر من تحليل بيستون للنقوش القديمة، في حران، والفاو، والنِمارة، أنَّ اللغة العربية الفصحى ظهرت - تقريبًا- في القرن الثالث الميلادي، أي قبل الإسلام بثلاثة أو أربعة قرون، وأن العربية التي كتبت بها هذه النقوش جاءت قريبة في بنيتها اللغوية من العربية الفصحى[1]. وهذا يُستنتج منه الآتي:

الاتساع الكبير للغة العربية الفصحى في هذه المنطقة الشاسعة أمر ملحوظ.

تمثل لغة النقوش شكلًا واحدًا لعربية ما قبل الإسلام، وهو نفسه المستوى الذي نظم به الشعر، بالرغم من أنَّهم كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة بعيدة عن بعضها في الإقامة، واختلفت أيضًا اللهجات في اللغة المنطوقة، لكن بقيت الفصحى اللغة الرسمية للشعر والنثر، وكانت هي المستوى السائد المعروف، وهناك اختلافات صغيرة لهجيًّا، لكنَّها غير مهمة.

أكَّدت النقوش العربية القديمة قِدَم العربية الفصحى التي كُتب بها الشعر قبل أن تصل مكة إلى مركز مهم، والسؤال: ما حال مكة في القرن الرابع الميلادي، وقت كتابة نقش النمارة المسجل بالعربية الفصحى؟ أمَّا فضل قريش فجاء بعد ذلك، وتحديدًا في القرن السادس الميلادي، عن طريق الكعبة وسوق عكاظ للشعر[2]، ومن بزوغها كمدينة تجمع كلَّ القبائل. ومع الإسلام فُرض المستوى الفصيح، والعربية بكلِّ مستوياتها على كلِّ البلاد المفتوحة.

يرى أصحاب هذه الفرضية (مرجليوث - طه حسين (أنَّ ظهور الإسلام في مكة قد جعل من لهجتها المستوى الفصيح للعرب كلِّهم، وقد رأينا أنَّ نقوشًا عديدة كتبت بعربية فصحى في القرن الرابع الميلادي، قبل أن يكون لمكة هذه المكانة؛ فالعربية قد ولدت وتطورت في مناطق أخرى في الجزيرة العربية، واستعملت شعريًّا، وكتبت على

(1) Beeston, A. 1981: p.183.
(2) Shahid, I. 1996: p. 16 –17.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

النقوش - على الأقل - قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون[1]، والحقيقة أنَّ هناك عددًا من العلماء- قدماء ومحدثين- يزعمون أنَّ لهجة قريش هي العربية الفصحى، وقد عرضنا عرضًا مطولًا تصورات المستشرقين لأصل العربية الفصحى، وهناك عدد قليل منهم يرى أصلها لهجة مكة.

ونجد من الباحثين العرب من يؤكد أنَّ الفصحى لهجة قريش، ومن هؤلاء د. طه حسين، وقبله الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، فقد ذهب إلى أنَّ العربية مرت بأدوار ثلاثة، كان آخرها «عمل قريش وحدها، وهي القبيلة الأخيرة في تاريخ الفصاحة، بعد أن كان الثاني عمل القبائل جميعًا، وكان الأوَّل عمل القبيلة الأولى، فتكون اللغة قد أحكمت على أدوار التاريخ الاجتماعي كل الإحكام»[2]. ويذكر الرافعي أنَّ الفصحى «حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي»[3]، ويؤيد د. شوقي ضيف كون الفصحى لهجة قريش[4]. وهناك من خصص بحثًا بعنوان: «لغة قريش»، جمع فيه عددًا من الآراء المنسوبة إلى العلماء العرب القدماء، وإلى علماء معاصرين، ليؤكد أنَّ الفصحى هي لهجة قريش[5]. ويختلف كثير من الباحثين مع هذا الرأي، ومنهم د. حمزة المزيني الذي قام بالرد على د. مختار سيدي الغوث - صاحب الرسالة المذكورة- رافضًا هذا الرأي ومقللًا من أهميته[6].

ومع تقدير أصحاب الرأي الزاعم أن الفصحى هي لهجة قريش، فإنَّ ما ذكر لتعليله وتأكيده لا يقوي دليلًا وحجة لتمكين لهجة قريش من السيطرة والسيادة. وهناك من الأدلة التي تقوض هذا الرأي؛ منها أن خصائص لهجة قريش ليست هي الغالبة على غيرها؛ وليس أدل على ذلك من ظاهرة الهمز في العربية؛ إذ المعروف أنَّ الحجازيين - ومنهم قريش- يجنحون إلى تخفيف الهمزة؛ فالهمز ليس قرشيًّا، وتحقيق الهمزة أكثر من

(1) Shahid, I. 1996: p. 19.

(٢) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج١، ص٨٢.
(٣) السابق، ج١، ص٨٤.
(٤) د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص١٣٣.
(٥) د. مختار سيدي الغوث: لغة قريش.
(٦) د. حمزة المزيني: مراجعات لسانية، الجزء الثاني، ص ١١- ٧٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تسـهيلها في الشـعر الجاهلـي، وهـو السـائد في القـراءات القرآنيـة، حـتى أنَّ ابـن كثـير -وهـو قـارئ مكـة- كان أكـثر القـراء ميـلًا إلى الهمـزة[١].

وهنـاك مـن يرفـض كـون لهجـة قريـش الفصـحى، قائـلًا: «لـو كان القـرآن الكريـم بلهجـة قريـش، فلِـمَ لجـأ المفسـرون وفي مقدمتهـم ابـن عبـاس إلى الاستشـهاد بالشـعر، وبـكلام الأعـراب في تفسـير كلام الله، ولـم يكـن أولئـك الأعـراب أو أولئـك الشـعراء مـن رجـال قريـش؟ ولِـمَ أتعـب علمـاء اللغـة أنفسـهم، فذهبـوا إلى البـوادي يتقصـون اللغـة، وإلى الأعـراب يسـألونهم عـن الغريـب والنـادر وعـن شـعر الشـعراء[٢]؟ وسـوف نـرى في المبحـث القـادم كـم كان سـيبويه حريصًـا علـى الاعتمـاد علـى لغـة العـرب البـدو للاستشـهاد بهـم، ولتقعيـد النحـو العـربي مـن كلامهـم، والشـعر العـربي، والقـرآن الكريـم، ولمـاذا «لـم يأخـذوا مـن رجـال قريـش ومـن شـعاب مكـة؟... ولِـمَ فضـل علمـاء اللغـة بعـض اللهجـات علـى سـائر لهجـات العـرب في الفصاحـة؟ فقـد قـال أبـو عمـرو بـن العـلاء إنَّ: «أفصـح العـرب عليـا هـوازن وسـفلى تميـم»[٣].

ويتسـاءل د. جـواد علـيّ قائـلًا: لِـمَ أغفـل الـرواة الإشـارة إلى مـن كان يقـوم بالاختيـار والتهذيـب والتحكـم في كلام النـاس مـن رجـال قريـش؟ ثـم إنَّهـم قالـوا: إنَّ المحكمـين في عـكاظ كانـوا في العـادة مـن تميـم، فلـم خصـوا تميمًـا بالتحكيـم، ولـم يخصـوا قريشًـا بـه، وهـي أولى بذلـك مـن تميـم لمـا قالـوا[٤].

إنَّ كثـيرًا مـن الأدلـة لتقـوض هـذا التصـور الـذي قدَّمـه مرجليـوث وطـه حسـين عـن شـعر مـا قبـل الإسـلام، ، وتعـد النقـوش خيـر دليـل علـى أنَّ تاريـخ العربيـة الفصـحى قديـم، ويعـود إلى قبـل ظهـور الإسـلام بفـترة تتجـاوز ثلاثـة قـرون، وأنَّهـا لـم تكـن لهجـة قريـش، وإنَّمـا هـي لغـة العـرب الـتي نظـم بهـا الشـعر في الحـيرة، ونجـد، وغيرهمـا قبـل الإسـلام بزمـن.

(١) د. عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية، ص١٢٠- ١٢١.
(٢) د. جواد عليّ، لهجة القرآن الكريم، ص٢٧٨. - ٢٧٩.
(٣) السيوطي: المزهر، ج ١، ص٢١١.
(٤) د جواد علي: لهجة القرآن، ص ٢٧٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يضـف إلى ذلـك أنَّ زعـم طـه حسـين أنَّـه لا يوجـد تغـيرات لهجيـة في الشـعر الجاهلـي، ممَّـا يؤكـد أنَّ الشـعراء كتبـوا بلغـة مقننـة عُرفـت جيـدًّا، وانتشـرت بعـد ظهـور الإسـلام. وأظـن أنَّ هـذا الزعـم غـير صحيـح؛ لأن هنـاك كثـيرًا مـن بقايـا اللهجـات في الشـعر الجاهلـي، بالرغـم مـن أنَّ الـرواة الأوائـل لـم يكونـوا معنيـين بجمـع هـذه اللهجـات، وتدوينهـا، وبيـان تاريخهـا، لكنَّهـم اقتصـروا علـى مـا وجـدوه مـن تصاريـف الـكلام. وقـد جمـع علمـاء اللغـة مفـردات اللغـة جمعًـا لا مراعـاة فيـه لنسـبة كلِّ كلمـة إلى قبيلتهـا، وحـرص جامعـو اللغـة أن يشـافهوا الأعـراب في البـوادي، وأن يتوخـوا العـرب الفصحـاء، والخلـص الذيـن لـم يفسـد لسـانهم بمخالطـة الحضـر[1]، وبالرغـم مـن ذلـك حفظـت كتـب النحـو واللغـة جانبًـا مـن لهجـات القبائـل، ودوَّنهـا الـرواة والعلمـاء لبيـان مناحٍ مـن النطـق اختصـت بـه بعـض القبائـل. وقـد أوضـح علمـاء اللغـة مـا في هـذه اللهجـات مـن فـروق في جوانـب متعـددة مـن النطـق، وأفـردوا في كتبهـم أبوابًـا لمـا يسـتقبح مـن اللهجـات، ومنهـا الكشكشـة التي تنسـب إلى تميـم، وربيعـة، ووائـل بـن بكـر، وأسـد، وهـي إبـدال الـكاف شـينًا، ويستشـهد عليهـا بقـول قيـس بـن الملـوح:

فعينـاش عيناهـا وجيـدش جيدها ولونـش إلَّا أنَّهـا غيـر عاطـل[2]

فقـد أبـدل الـكاف شـينًا في «عينـاك، وجيـدك، ولونـك». وهنـاك ظواهـر لهجيـة أخـرى جـاءت في الشـعر الجاهلـي، منهـا: «الكسكسـة»، و«الشنشـنة»، و«العنعنـة»، و«الفحفحـة»، و«الوهـم»،

و «الوتـم»، و«الوكـم»، وغيرهـا مـن الظواهـر الـتي سـجلها اللغويـون العـرب القدمـاء[3]. وقـد قـام أحـد الباحثـين ببحـث آثـار اللهجـات العربيـة في شـعر أصحابهـا، وقـدَّم صـورًا كثـيرة منهـا، وانتهـى إلى نفـي وجـود عربيـة مشـتركة (مثاليـة) عنـد العـرب قبـل الإسـلام، وقـرر أنَّ كلَّ شـاعر نظـم شـعره بلغتـه. وخلـص إلى نتـائج عـدة، منهـا:

(١) د. يحيى الجبوري: المستشرقون والشعر الجاهلي، ص ١٢٤.
(٢) ابن فارس: الصاحبي، ص ٢٤.
(٣) انظر عرضًا مفصلاً في كتاب د. يحيى الجبوري، المستشرقون والشعر الجاهلي، ص ص ١٢٩- ١٦٧.

أنَّ الشاعر كان ينظم بلغته التي لا تبعد كثيرًا عن لغة الأدب (المشتركة)؛ لأنَّ الفروق بينها ضئيلة.

يكون الراوية أحيانًا من غير قبيلة الأديب، فيروي الشعر بلهجته هو، أو باللغة الأدبية التي كانت تنمو باطراد.

إذا اشتهر الشاعر وأصبح أهلًا للإنشاد في المواسم سما بلغته عن لهجته، ونظم باللغة الأدبية التي كانت مستمرة في التوسع والغنى على حساب اللهجات؛ وهذا يفسر اجتماع لغتين في نص واحد[1]. وهكذا كان آخر دليل - من أدلة د. طه حسين - دليلاً واهيًا، فقد ثبت من الشعر العربي وبخاصة من الشعر الجاهلي حتى الأموي - وهذا واضح من الأمثلة المنثورة في كتب اللغة القديمة - شيوع الظواهر اللهجية في المادة الشعرية المذكورة.

أنَّ كثيرًا من أدلة فرضية مرجليوث - طه حسين ضعيفة جدًا، وقد ثبت بالبحث العلمي الجاد ضعف غالبية الأدلة. ويبدو - وهذا ما يهمنا - أنَّ هذا الفكر المعبر عنه في هذه الفرضية جاء في سياق غير علمي في كثير من مقولاته؛ فقد عبَّر عن شكوكه في كلِّ مقدس لدى العرب، وطال الشك القرآن الكريم ولغته، والأحاديث النبوية الشريفة، والشعر الجاهلي. وقد تصدى لهذه الفرضية كثير من الباحثين الغربيين، فردوا على هذه الشكوك بنظر علمي مميز، ومن هؤلاء المستشرق فرستيخ الذي دافع عن عملية الإسناد عند المسلمين، ورفض الشك الذي طال النحاة العرب واتهامهم بأنهم قد صنعوا الإعراب من خيالاتهم.

وفي السطور التالية سأناقش قضية (الإعراب)، وأقدم خلاصة موقفي منها. وقد وجدنا في بحث قضية الإعراب عددًا من الفرضيات المتناقضة، وهناك عبث أحيانًا من بعض الباحثين في طرح فرضياتهم، وعدم تعمق عند كثير منهم. فنجد من ليس له علاقة بالبحث في تاريخ العربية، وظواهرها اللغوية، يدعي دون دليل، ويزعم دون وعي،

(١) انظر عرضًا لهذه الاستنتاجات من خلال كتاب الغوث، ص ٤٢٦- ٤٢٧.

ومـن هـذا المثـال وجدنـا زويتلـر وهـو يحـاول تطبيـق النظريـة الشـفاهية علـى الشـعر العـربي القديـم، ليقـرر في بحثـه أنَّ الإعـراب في العربيـة ظاهـرة عرضيـة فحسـب، ويزعـم وانسـبرو أنَّ الإعـراب جـزء مـن البروسـودي / العـروض العـربي فحسـب، وشـكك د. أنيـس الـذي شـكَّك في تحليـلات النحويـين العـرب القـدامى، وشـكّك كذلـك في الـرواة فقـال: «فلـم تكـن لهجـات الـكلام عنـد القبائـل تلـتزم الإعـراب علـى الصـورة الـتي رويـت لنـا في كتـب النحـاة»[1].

تذكرنـا هـذه المزاعـم بمـا طرحنـاه مـن سـلبيات في فرضيـة مارجليـوث – طـه حسـين في الشـك في الشـعر الجاهلـي، وبخاصـة طرحتهمـا في تاريـخ اللغـة العربيـة، والواقـع اللغـوي العـربي في الجاهليـة، أو مـا طرحـه د. عبـد الحميـد إبراهيـم (أسـتاذ الأدب العـربي) الـذي يقـرر أنَّ «الإعـراب ليـس سـليقة تجـري علـى ألسـنة الأعـراب كمـا تدعـي النـبرات الحماسـية، وليـس هـو شـائعًا بـين النـاس لا يحتـاج إلى تعليـم ومهـارة، بـل هـو صناعـة اكتشـفها أبـو الأسـود الـدؤلي أو غـيره، ثـم شـاعت بـين النـاس حـتى أصبحـت دلالـة الـذكاء»[2].

نسي هؤلاء وأولئك عددًا من الأسس العلمية المعتمدة، ومنها الآتي:

اسـتقر داخـل مجـال اللغـات السـامية أنَّ الإعـراب ظاهـرة سـامية، وهـذا قـد تقـرر منـذ زمـن بعيـد، ربَّمـا مـن نهايـة القـرن التاسـع عشـر الميـلادي وأوائـل القـرن العشـرين، وهـا هـو إدوارد دروم يقـارن بـين إعـراب الاسـم في البابليـة القديمـة وفي العربيـة الفصـحى، وتوصـل إلى أن علامـات الرفـع والجـر والنصـب هـي نفسـها في كلتـا اللغتـين. وهكـذا نـرى كلمـة أمّ تنطـق أمُّ وأمِّ وأمَّ في قانـون حمـورابي، وفي القـرآن علـى السـواء[3]، ليصـل مـن هـذه المقارنـة بـين الإعـراب في العربيـة والبابليـة القديمـة إلى أنَّ هـذا يعـد برهانًـا قاطعًـا علـى روح المحافظـة لـدى اللغويـين[4].

(١) د. إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ص ٨٤.
(٢) د. عبد الحميد إبراهيم: الإعراب ظاهرة جمالية، ص١٥٩.
(٣) إدوارد دروم: العربية الفصحى ولغة حمورابي، ص١٨٩.
(٤) إدوارد دروم: العربية الفصحى ولغة حمورابي، ص١٩٠.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويظهـر مـن دراسـة الكتابـات الـتي عـثرعليهـا العلمـاء مدونـة بالخـط المعيـني الجنـوبي -ولغتهـا عربيـة شـمالية- أنَّ اللغـة اللحيانيـة تتفـق والعربيـة الإسـلامية في كثـير مـن الخصائـص النحويـة والصرفيـة؛ ففـي اللحيانيـة نجـد الإعـراب، والإفـراد، والتثنيـة، والجمع، إضافـة إلى أنهـا تفـرق بـين جمـوع التكسـيروالتذكـيروالتأنيـث، وفي الإشـارة تميـيزبـين العقـلاء وغـيرالعقـلاء، كمـا تسـتخدم (ذو) بمعـنى صاحـب، وتجريهـا إجـراء العربيـة القرآنيـة. ويشـير د. فـؤاد حسـنين إلى أنّنـا إذا تركنـا الإعـراب، والتذكـير، والتأنيـث، والإشـارة، وانتقلنـا إلى الفعـل وجدنـا أوزانـه وحـالات إعرابـه المختلفـة مـن رفـع ونصـب وجـزم[1].

وهـذا الدليـل قريـب ممَّـا قـرره بـلاو حينمـا ذكـر أنَّ الإعـراب سـمة سـامية قديمـة، احتفـظ بهـا العـرب حـتى الفتوحـات الإسـلامية، وظـل البـدو يسـتخدمونه في مناطقهـم فـترة أطـول، وعلـة بقائـه هـو انعـزال العـرب، وعيشـهم بعيـدًا عـن المؤثـرات الأجنبيـة. أليسـت تلـك الأدلـة صحيحـة؟

ألـم يـأت القـرآن الكريـم والشـعر الجاهلـي بلغـة معتمـدة علـى الإعـراب في ترتيـب الكلمـات داخـل الجملـة؟ وغيرهـا مـن الظواهـر الـتي تعتمـد علـى الإعـراب، وكمـا يذكـر فِـك الآيـة الكريمـة (إنَّمـا يخـشى اللهَ مـن عبـاده العلمـاءُ) وغيرهـا مـن الآيـات، فكلهـا تعتمـد في دلالتهـا، وترتيـب أركان الجملـة علـى الإعـراب، كمـا أنَّ أبيـات الشـعر تعتمـد تمامًـا علـى الإعـراب، فكيـف نتصـور أنَّ الإعـراب ظاهـرة غـيرأصيلـة في العربيـة.

يفـترض كثـيرمـن الباحثـين أنَّ قواعـد الإعـراب علـى درجـة عاليـة مـن الدقـة، بمـا لا يعقـل معـه أنَّهـا كانـت موجـودة أصـلًا، وبخاصـة عنـد هـؤلاء العـرب الأميين آنـذاك. وقـد رأينـا داخـل البحـث أنَّ هـؤلاء المدعـين ينسـون أو يتناسـون مـا هـو موجـود في اللغـات الأخـرى، فهنـاك كثـيرمـن اللغـات معربـة، لـم يسـقط منهـا الإعـراب إلَّا حديثًـا، مثـل: اللغـة الآيسـلندية، ثـم إنَّ في اللغـات الإلصاقيـة كالتركيـة، والكوريـة، ومـن ثـم فـإنَّ أيـة لغـة في العالـم لهـا ظواهرهـا

(١) د. فؤاد حسنين: اللغة العربية، ص ١٦ – ١٧.

المعقدة التي يكتسبها الفرد من مجتمعه دون أي كلل أو تعقيد، وتشهد اللغات التي ذكرنا بعضها بذلك، فلا علاقة بين الظواهر اللغوية المعقدة وأميَة متكلميها.

أنَّ الزعم بأن الإعراب لم يكن سمة أصيلة في العربية يحمل في طياته عددًا من الشكوك ليس في الرواة العرب فحسب، وليس في اللغويين والنحويين فحسب، بل في علماء العربية القدامى كلِّهم، ويلغي تراثًا كان البحث اللغوي فيه - بشهادة عدد كبير من المستشرقين الجادين- يصل إلى أعلى درجات الإتقان، ومن ذلك شهادة المستشرق البريطاني كارتر، فقد قرر أنَّ سيبويه لو كان في عصرنا لأخذ مكانة بين دو سوسيروبلومفيلد[1]. وقد رأينا في هذه الدراسة مصداقية سيبويه في تحليله وتقعيده قواعد اللغة العربية، ومصداقيته واضحة من تعبيراته في أخذ اللغة عمن يسمعهم، أو سمعهم أساتذته. يضاف إلى ذلك أن المصداقية قد تأكدت لنا من وصفه لظواهر لغوية في اللهجات العربية، ما زالت هذه الظواهر موجودة في بعض اللهجات العربية الحديثة، فلو صنع النحاة هذه القواعد وكان وصفهم لهذه الظواهر من خيالاتهم ما كانت تلك الظواهر التي وصفوها يعيش بعضها إلى الآن في لهجاتنا الحديثة.

ثم إنَّ مصداقية كبيرة تنبع من عمل سيبويه، وهي نابعة من الوصف العلمي المقنن، الذي جعل كثيرًا من بعض المستشرقين النابهين يؤكدون ذلك. وكتاب المستشرق الإنجليزي كارتر المعنون بـ(سيبويه) المطبوع في سنة ٢٠٠٤ يؤكد ذلك، فليس سيبويه والعلماء العرب القدامى بكذابين، ولا ملفقين، وإنَّما علماء جادون، ثبت على أيدي المستشرقين الموضوعيين ذلك.

(١) انظر بحث كارتر Carter, M, G.1973.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يجب علينا أن نفرق بين اللغة التي نطقها العرب القدماء، واعتمد عليها النحويون في التأسيس لقواعد هذه اللغة ليراعيها متعلموها عند النطق بها، وهذه القواعد التي وضعها النحويون، فقد تكلم العرب بطرق لغوية عديدة، وكان من بين هذه الطرق الأكثر والأشهر، والقليل أو النادر (حسب تعبيرات النحاة). وكان سلوك النحويين مع المادة اللغوية التي جمعوها من العرب هو بناء قواعدهم على ما يطرد من الظواهر والنصوص جميعًا، أي إنَّهم يلحظون الظواهر التي تطرد فيما يستقرئونه من نصوص، فيجعلونها هي القواعد، ويرفضون ما يخالفها، سواء أكانت ظواهر غريبة لا تشيع في النصوص أم نصوصًا قليلة لا يؤيدها سائر المروي والمسموع[1]؛ ومن هنا جاءت شواهد / مادة لغوية كثيرة مسجلة في كتب النحو على أنَّها ضرورة، أو شاذة، أو نادرة، إلى غير ذلك من المصطلحات[2]. لكنَّنا نقول: إنَّها اللغة التي لا تسير وفق منطق، وإنَّما تسير وفق العرف المصطلح عليه من مجتمعها.

ربَّما يُلتمس العذر للنحويين أمام رغبتهم في التقعيد للغة؛ خوفًا عليها من اللحن، وجمع قواعد العربية، إذ كان في هذا الوقت مطلبًا دينيًّا وحضاريًّا، لكن لابدَّ أن نعترف أنَّ النحويين كانوا يعرفون أنَّهم يأخذون على الأكثر والأشهر، وقد أشار أحد الباحثين إلى منهج واحد منهم في الاعتداد باللهجات العربية، وهو الفراء، وينقل نصًّا له يقول فيه: «واعلم أنَّ كثيرًا مما نهيتك من الكلام به - من شاذ اللغات ومستكره الكلام- لو توسعت بإجازته لرخصت لك أن تقول: رأيت الرجلان، ولقلت: أردت عن تقول ذاك، ولكنَّا وضعنا ما يتكلم به أهل الحجاز وفصحاء أهل الأمصار، فلا تلتفت إلى من قال: يجوز؛ فإنَّا قد سمعناه، إلَّا أنَّا نجيز للعربي الذي لا تجيز، ولا نجيز لأهل الحضر والفصاحة أن يقولوا: السلام علاكم ولا: جئت إلى عندك وأشباهه، مما لا نحصيه من القبيح المرفوض»[3]. إنَّ القواعد التي قعدها النحويون أخذوها من المطرد الأكثر وجودًا على ألسن العرب الموثوق بعربيتهم.

(١) د. علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص٢٥٥.
(٢) د. محمد صلاح الدين بكر: نظرة في قرينة الإعراب، ص٤٥.
(٣) انظر النص وشرحه في كتاب د. عبد الفتاح سليم: المعيار في التخطئة والتصويب دراسة تطبيقية، ص٤٤.

ولـم يكـن مـا فعلـه النحـاة مـع اللهجـات أفضـل ممَّـا فعلـوه مـع القـراءات القرآنيـة، يقـول السـيوطي: «وكان قـوم مـن النحـاة المتقدمـين يعيبـون علـى عاصـم، وحمـزة، وابـن عامـر، قـراءات بعيـدة في العربيـة، وينسـبونهم إلى اللحـن؛ وهـم مخطئـون في ذلـك، فـإنَّ قراءاتهـم ثابتـة بالأسـانيد المتواتـرة الصحيحـة الـتي لا طعـن فيهـا، وثبـوت ذلـك دليـل علـى جـوازه في العربيـة»[1].

أليسـت القـراءات جـاءت تسـهيلًا وتخفيفًـا للعـرب لقـراءة القـرآن، وأنَّهـا جـاءت علـى لغـة العـرب قياسـها وشـاذها؛ وذلـك لأنَّ لهـا سـندًا مـن صحـة الروايـة، وموافقتهـا وجهًـا مـن وجـوه العربيـة، فليسـت «القـراءة السـبعية وحدهـا مصـدرًا مـن مصـادر لهجـات القبائـل، بـل شـاركتها القـراءات العشـر، ومـا فوقهـا، والقـراءات الشـاذة كذلـك»[2]، وقـد كان هـذا سـببًا في جعـل د. أحمـد مختـار عمـر القـراءات القرآنيـة دليـلًا علـى صحـة العديـد مـن الاسـتعمالات اللغويـة الشـائعة[3]. أليسـت هـذه القـراءات جـاءت علـى لهجـات القبائـل العربيـة القديمـة؟

المشـكلة الـتي سـبَّبت ذلـك - مـن وجهـة نظرنـا- هـي أن بعـض النحويـين عابـوا قـراءات ونسـبوا إليهـا اللحـن بعـد أن وجـدوا مـادة لغويـة جـاءت مخالفـة للقواعـد الـتي قعدوهـا للعربيـة. بـل ذكرنـا داخـل البحـث مـا ذكـره أحـد المستشـرقين، وعنـون بـه بحثـه قائـلًا: «أخطـاء لغويـة في القـرآن». وذكرنـا مـا أوجـزه هنـا بالقـول: إنَّنـا نأخـذ بتصـور المستشـرق الألمـاني فيشـر الـذي يقسـم فيـه العربيـة إلى عربيـة مـا قبـل الفصـحى، والفصـحى، وعربيـة مـا بعـد الفصـحى[4]، وأن عربيـة مـا قبـل الفصـحى كانـت متنوعـة، ولـذا نجـد نصوصًـا لفصحـاء فيهـا كثيـر مـن المخالفـات اللغويـة الخارجـة عمَّـا قعـده النحـاة فيمـا بعـد في زمـن تـالٍ لهـم، ومـن ذلـك الأمثلـة الموجـودة في كتـاب سـيبويه، وهـي عديـدة، منهـا: مـا الحجازيـة، ومـا التميميـة، وكذلـك التنوعـات أو المخالفـات الـتي جـاءت علـى ألسـن شـعراء كبـار، كالفـرزدق

(١) السيوطي: الاقتراح، ص١٧.
(٢) د. أحمد علم الدين الجندي: الصراع بين القراء والنحاة، ص١٤٢.
(٣) انظر د. أحمد مختار عمر: دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، ص١٣٧.
(٤) انظر عرضنا لرؤية فيشر داخل هذا البحث.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وغيره. فهذه المواد اللغوية المسجلة تشهد لما نزعمه، ويؤكد ذلك هجاء بعض الشعراء للنحاة بسبب تقعيداتهم التي جاءت بقواعد ربَّما غير راصدة لهذه التنوعات الموجودة في الشعر العربي القديم، وغيره من النصوص التي قيلت على ألسنة عرب فصحاء.

ألم يقل ابن جني في الفصل الذي عقده في كتابه «الخصائص» تحت عنوان «اختلاف اللغات وكلُّها حجة»: «فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ»[1]، ومن هنا، فوجهة نظري أنَّ ما جاء من كلام العرب أو في بعض الآيات القرآنية غير متفق مع ما قعده النحويون ليس خطأ، وإنَّما هو عربي مؤكد، جاء على وجه من العربية التي تشهد النصوص الموجودة في كتب النحويين أنَّها تنوعات أو اختلافات لغوية جاءت على ألسن عرب يوثق بعربيتهم.

أمَّا العربية الفصحى الكلاسيكية -حسب مصطلحات فيشر- فهي التي قَعَّد لها النحويون العرب، والتزم بها العرب بعد تقعيد العربية، وجاءت مستعملة في لغة الإدارة، والأدب والثقافة، ونصوصها تبدأ بعصر عبد الملك ابن مروان (٦٨٥م - ٧٠٥م). وأمَّا فترة ما بعد الفصحى الكلاسيكية فيرى فيشر أنها تبدأ بالقرن العاشر الميلادي. وتبيّن نصوص هذه الفترة الميل إلى الانفصال عن نماذج الفترة الكلاسيكية. - وحسب زعم فيشر- صارت أشكال التجديد في النحو والأسلوب مألوفة تدريجيًّا منذ القرن الحادي عشر لدرجة أنَّه يمكن أن نتحدث منذ ذلك الزمن عن فترة ما بعد الكلاسيكية / الفصحى، تصل حتى القرن التاسع عشر الميلادي، غير أنَّها حسب زعمه «لا تمثل في ذاتها وحدة مستقلة؛ لأنَّ تعبير المؤلفين في هذه الفترة الذين يكتبون بالعربية الكلاسيكية في أثناء هذه الفترة الطويلة يظهر بينهم فروقًا كبيرة جدًّا»[2].

ويتضح من هذا كلِّه أنَّ هناك تنوعات واختلافات في المادة اللغوية التي جمعها العرب القدماء، وقد أخذ النحاة الأكثر رواية ووجودًا على ألسن العرب، وأخذتهم

(١) ابن جني: الخصائص، ج ٢، ص١٢.
(٢) ف فيشر: العربية القديمة في رواية إسلامية، ص١٢٢.

الحيرة أمام القليل؛ فأخذوا بعضه بالتأويل، ورموا بعضه الآخر بمجموعة من الصفات، منها: «قليل»، و«نادر»، و«شاذ»، وكان كلُّ هذا بسبب الرغبة في وضع قواعد محددة للغة العربية. هذا الهدف الكبير-حقيقة- ربَّما يغفر لهم هذه الأشياء؛ إذ كانوا مطالبين في ظل هذا الهدف بتقعيد لغة ذات أبعاد حضارية وثقافية محددة، سوف تعبر بهم إلى بلاد غير بلادهم، وسوف يتكلم بها قوم غير قومهم، ومن ثَمَّ استدعى هذا لغة ذات قواعد محددة وواضحة كي يتاح لهؤلاء الأقوام التواصل بنجاح.

الفصل الخامس

تحليلات المستشرقين
في ضوء التصورات التراثية

العربية الفصحى
ومقارباتها الاستشراقية

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

عرضنا تصورات المستشرقين للعربية الفصحى وحللناها، وكشفنا عن مشكلاتها، ولاحظنا تباين آرائهم في الفصحى: ماهيتها، وتاريخها. ويحاول هذا الفصل عرض آراء العلماء العرب القدماء في الفصحى، وبيان الواقع اللغوي الذي عاشوه، كلٌّ حسب اهتمامه واختصاصه، وتقديم تحليل لهذه الرؤى، واستخلاص صورة العربية الفصحى في أذهانهم، ومدى مصداقيتهم العلمية، وهل لنا أن نتشكك فيما ذكروه كما فعل بعض الباحثين؟ وهل كانوا ملفقين وصنعوا قواعد نحوية من خيالاتهم كما ادَّعى بعضهم؟ وفوق كلِّ ذلك نستنتج من كتاباتهم تصورهم للعربية الفصحى.

ويحاول هذا الفصل أيضًا اختبار تصور المستشرقين نولدكه، وفِك، وبلاو، وفرستيخ، في ضوء رؤى العلماء العرب القدماء، ويحاول الإجابة عن التساؤلات التي طرحها بعض الباحثين المحدثين في مسألة عدم مصداقية العلماء العرب القدماء، والشك في أقوالهم، إضافة إلى جدية أو عدم جدية وصفهم للغة العربية قديمًا، والواقع اللغوي الذي سجلوه.

ويسير هذا المبحث وفق العناصر التالية:

أولًا: اللغويون العرب القدماء والفصحى.

ثانيًا: الجاحظ وتسجيل الواقع اللغوي.

ثالثًا: المؤرخون العرب القدماء والفصحى (ابن خلدون).

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أولًا: اللغويون العرب القدماء والفصحى

يرى كثيرمن المستشرقين أن كتاب سيبويه أوَّل كتاب في اللهجات العربية، فقد كتب المستشرق ليفن (Levin, A.) بحثًا بهذا العنوان[1]، ويشيرأوينز (Owens, J.) إلى أنَّ عمل سيبويه كان مثاليًا في وصفه الاختلافات اللغوية الموجودة لدى العرب، ويرى أوينزأنَّه وجد في الصفحات المائة الأوَّلى من كتاب سيبويه ستًا وعشرين إشارة مجمعة، في سبعة أنواع مختلفة من المجموعات اللهجية، هي:

- اختلافات لهجية واقعة بين الحجاز مقابل تميم.
- اختلافات قبلية عندما أشار إلى بني سليمان.
- مجموعة عامة، وهذا نجده عندما يذكر «البدو» و«العرب».
- مجموعات لهجية غيرخاصة بقبيلة محددة، مثل «بعض العرب».
- مجموعات لهجية بظواهر لغوية، مثل «أكلوني البراغيث».
- مجموعات عامة، مثل قوله «أكثرالكلام».
- تقييم سيبويه للكلام، بقوله مثلًا «العربية الجيدة»[2].

هذا الفهم الذي يقرره كلٌّ من ليفن وأوينزيؤكد وعي سيبويه بطبيعة العربية، وأنَّ العربية التي قعَّدوا لها لم يكن الشعر الجاهلي، وعربية القرآن مصدري التقعيد للعربية فحسب؛ لأن مصادر المادة اللغوية في كتاب سيبويه متعددة. أشار إليها المستشرق البريطاني كارتر (الحاصل على جائزة الملك فيصل) – الذي كتب كثيرًا عن سيبويه وخصه بكتاب معنون بـ(سيبويه)– وذكر أنَّ مصادرسيبويه تتوزع على ستة أنواع، هي:

(1) Levin, A. 1999: p. 208.
(2) Owens, J. 2001: p. 421

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- اللغة الطبيعية للبدو.
- اللغة الفنية، لغة الشعر العربي.
- آيات مختلفة من القرآن الكريم.
- الحديث الشريف.
- الأمثال.
- كلمات أو جمل مصنوعة[١].

ويذكر أن الرقم الأوَّل والأخير في هذه القائمة يقدمان المصداقية؛ لأنَّ الرقم (١) يعد العنصر الأساس كلية في كونه الأهم في المادة المقعدة، ورقم (٦) غالبًا لا يكون أكثر من كونه حدسًا للنحويين، في حين تأتي الأنواع الأخرى من (٢ إلى٥) لتقدم مستويات مختلفة من أنواع الكلام[٢].

وواضح أنَّ كتاب سيبويه يهدف إلى وصف كلام البدو بوصفه الطريقة المُثلى التي يمكن للآخرين تكرار صيغها، واستعمالها، وحسب كارتر فإنَّ موضوع الكتاب الكلام الذي يراه سيبويه نشاطًا اجتماعيًّا، يقال في سياق بين متكلم وسامع.[٣]

وقد كانت المواد اللغوية التي يستخدمها العرب مجمعةً من كتاب سيبويه نفسه، وهذا واضح من تعبيراته، ومنها: «وسمعنا من العرب يقول»[٤]، و«سمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقول»[٥]، و«سمعنا بعض العرب من يقول»[٦]، و«سمعنا فصحاء

(1) Carter, M, G. 2004: p. 39.
(2) Ibid.,p. 39.
(3) Ibid., p. 56.

(٤) سيبويه: الكتاب،٢/ ٢٤٤.
(٥) السابق،٢/ ٩٢.
(٦) السابق،٢/ ٦٣.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

العرب يقولون»[١]، و«سمعناهم يقولون»[٢]، و«ممّا يقوي ذلك أنَّ يونس زعم أنَّ بعض العرب تقول: هذه تميم بنت مر، وسمعناهم يقولون: قيس بنت عيلان»[٣]، و«سألنا العرب فوجدناهم يوافقونه، ويجعلونه كقولك»[٤]، و«سألنا العلويين والتميميين، فرأيناهم يقولون»[٥]، «سمعنا رجلاً منهم يذكر رجلاً فقال»[٦]، و« من العرب من يقول»[٧]، «فهذا سمعناه من العرب» [٨]، و«سمعنا من يقول ممَّن يوثق به من العرب»[٩]، ويقول: «ولو أنَّ هذا القياس لم تكن العرب الموثوق بعربيتها تقوله لم يلتفت إليه، ولكنَّا سمعناها تنشد هذا البيت جرًا»[١٠].

ونجده يروي المواد اللغوية بواسطة أساتذته، ومن ذلك «زعم يونس أنَّ من العرب من يقول»[١١]، و«زعم يونس أنَّ ناسًا من العرب يقولون»[١٢]، «حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عمن يوثق به من العرب»[١٣]، و«زعم الخليل -رحمه الله- أنَّه سمع من العرب رجلًا يقول»[١٤]، و«حدثنا بذلك يونس وعيسى جميعًا أنَّ بعض العرب الموثوق بعربيته يقول»[١٥]، و«جميع ما وصفناه من هذه اللغات سمعناه من الخليل

---

(١) السابق،٣ / ١٥٧.
(٢) السابق،٣/ ١٦٨.
(٣) السابق،٣/ ٢٤٩.
(٤) السابق،٣/ ٢٩٠.
(٥) السابق،٣/ ٢٩١.
(٦) السابق،١/ ٢٩٣.
(٧) السابق،٣/ ٢٨٩.
(٨) السابق،٣/ ٢٩١.
(٩) السابق، ٣/ ٢٤٥.
(١٠) السابق، ٢/ ٢٠.
(١١) السابق،٢/ ٦٥.
(١٢) السابق،٢/ ١١٢.
(١٣) سيبويه: الكتاب،٢/ ٢٤٤. ٢ / ٨٣.
(١٤) السابق، ٢/ ١٠٨.
(١٥) السابق، ٢/ ٣١٩.

-رحمه الله-) ويونس عن العرب»[١]، و«زعم أبو الخطاب أنَّ العرب الموثوق بهم يقولون»[٢]، و«حدثنا يونس أيضًا تصديقًا لقول أبي الخطاب أنَّ العرب تقول»[٣]، و«زعم أبو الخطاب أنَّه سمع من يوثق به من العرب يقول»[٤]، و«حدثنا يونس وغيره أنَّ ناسًا من العرب يقولون»[٥]، و«زعم يونس أنَّ العرب تقول أيضًا»[٦]. أو من أناس يثق فيهم، ومن ذلك: «سمعناه ممَّن يرويه عن العرب»[٧]، و«حدثني من سمعه أنَّ بعضهم قال»[٨]، و«حدثنا من يوثق به أنَّ بعض العرب قيل له»[٩]، و«سمعت من لا أتهم عن الخليل أنَّه سمع أعرابيًا يقول»[١٠]، و«سمعناه ممَّن يرويه عن العرب»[١١]، و«سمعت أعرابيًّا وهو أبو مرهب»[١٢].

و «لا يزال سيبويه يبهرنا بكثرة ما يرويه من كلام العرب، محاولًا دائمًا أن يفسره، وبذلك يظهر الفرق الشاسع بين هذا العمل الوصفي التفسيري وبين أعمال النحاة المتأخرين الذين سلبت من أعمالهم هذه السمة، فصارت أعمالهم سردًا لقواعد جامدة، مع الاكتفاء بشاهد قرآني أو شعري واحد في الغالب»[١٣].

(١) السابق،٢/ ٢١٤.
(٢) السابق،٢/ ٣٥٤.
(٣) السابق،٢/ ٣٥٥.
(٤) السابق،٣/ ٢٩٤.
(٥) السابق،٤/ ٩٣
(٦) السابق، ٣/ ٤٢٥.
(٧) السابق،١/ ١٨٢.
(٨) السابق،١/ ٢٥٠.
(٩) السابق،١/ ٢٥٥.
(١٠) السابق،١/ ٢٧٩.
(١١) السابق،١/ ٢٨٢.
(١٢) السابق،١/ ٣٢٨.
(١٣) انظر بحث د. عبد الرحمن الحاج صالح: الجملة في كتاب سيبويه، ص ١١٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وفي بحث آخر يقرر د. الحاج صالح أنَّ كلَّ من يتتبع ما كتبه سيبويه في كتابه يلاحظ كثرة هائلة من الشواهد، ومن الكلام الذي سمعه هو، أو شيوخه، وزملاؤه من فصحاء العرب، كما يلاحظ تحرجه، وتحرج شيوخه الشديد، من أن يدلي برأي، أو يستنبط ضابطًا لا يعتمد فيه على ما يقوله أكثر العرب، ومع ذلك فإنَّ سيبويه لا يهدر ما قل استعماله إذا لم يخالف القياس. وحسب د. صالح، ليس القياس عندهم بالضرورة هو المعيار. ويشير إلى أنَّ سيبويه يستقبح هو وكلُّ نحاة البصرة، وكثير من لغويي الكوفة [الفراء خاصة]، ما كان يستقبحه هؤلاء العرب أنفسهم؛ بدليل وجود ذلك بقلة، وعند القليل النادر من الناطقين، وهذا إن لم يكن على قياس كلامهم.

ويلفت د. صالح إلى أنَّ سيبويه يحذر من التعسف، وتجاوز ما هو من كلام العرب، ويستشهد بقول سيبويه: «واستحسن من هذا ما استحسنت العرب وأجزْه كما أجازته»[1]، وقوله: «فأجره كما أجرته العرب»[2]. ويخلص إلى أنَّ من سمات عمل سيبويه والخليل قبله مشاهدة الحوادث، والاعتماد المطلق على المسموع الثابت، بتعبير آخر، الرجوع الدائم إلى واقع كلامهم، مع الاعتماد على الثابت منه فحسب، أي: على ما سمعه بكثرة عن كثير من الأعراب، وكان النحاة العرب الأوَّلون مشافهين لفصحاء العرب، وكانوا بذلك مميزين في سماعهم للواقع اللغوي، وكانوا متحرجين من كلِّ ما لم يخضع لهذه المقاييس العلمية، في ميدان المشاهدة والسماع، هو حادث تاريخي لم نشاهد له نظيرًا فيما قبل هذا العصر في تاريخ العلم[3].

ونجد السلوك نفسه عند الفراء في كتابه معاني القرآن، وفيه يقر بسماعه المادة اللغوية، ومن ذلك قوله: «وقد قال بعضهم: أبشرت، ولعلَّها لغة حجازية، وسمعت سفيان بن عُيينة يذكرها يبشر. وبشرت لغة سمعتها من عُكل، ورواها الكسائي عن

(١) الكتاب، ٢/ ٦٩.
(٢) السابق، ١/ ٣٩٣.
(٣) انظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: تعال نحي علم الخليل، ص ١٥٦-١٥٧.

غيرهـم»[١]، و«وسـمعت بعـض العـرب يقـول: مـا رأيـت عقيليًّـا إلاَّ حِسسـت لـه»[٢]، و«سـمعت العـرب تقـول»[٣]، و«ألاَّ تـرى أنَّ العـرب تقـول»[٤]، «وسـمعت أعرابيًّـا مـن ربيعـة، وسـألته عـن شيء»[٥]، ويـروي عـن الكسـائي فيقـول: «وزعـم الكسـائي أنَّـه سـمع العـرب تقـول»[٦]، و«زعـم الكسـائي أنَّ مـن العـرب مـن يقـول»[٧].

ويـروي الفـراء أيضًـا عـن بعـض الأعـراب، كقولـه: «وسـمعت أبـا ثـروان يقـول»[٨]. وفي تحليلـه الآيـات الكريمـة نـراه يوجهها توجيهًـا لغويًّـا، معتمـدًا علـى لغـات العـرب، كقولـه في قولـه تعـالى: (يـا بشـرى هـذا غلام)[٩]إنَّهـا تقـرأ «ويـا بشـراي» بنصـب اليـاء، وهـي لغـة في بعـض قيـس، وهذيـل: يـا بشْـرَىَّ. كلُّ ألـف أضافهـا المتكلـم إلى نفسـه جعلتهـا يـاء مشـددة ... وقـال لي بعـض بنـي سُـليم: آتيـك بمـوليَّ ... ومـن قـرأ يـا بشـرَىْ بالسـكون فهـو كقولـك: يـا بـني لا تفعـل، يكـون مفـردًا في معـنى الإضافـة[١٠]. وفي قولـه تعـالى: (مـا هـن أمهاتهـم أمهاتهـم)[١١] يقـول الفـراء: «الأمهـات في موضـع نصـب لمَّـا ألقيـت منهـا البـاء نصبـت، كمـا في سـورة يوسـف (مـا هـذا بشـرًا) إنَّمـا كانـت في كلام أهـل الحجـاز: مـا هـذا ببشـر؛ فلمَّـا ألقيـت البـاء تـرك فيهـا أثـر سـقوط البـاء، وهـي في قـراءة عبـد الله (مـا هـن بأمهاتهـم)، وأهـل نجـد إذا ألقـوا البـاء رفعـوا، فقالـوا «مـا هـذا بشـر»، «مـا هـن أمهاتهـن»[١٢].

(١) الفراء: معاني القرآن١/ ٢١٢.
(٢) السابق،١/ ٢١٧.
(٣) السابق، ٢/ ٢٧٤.
(٤) السابق ٢/ ٢٧٧.
(٥) السابق، ٢/ ٢٢٣.
(٦) السابق، ٢/ ١٤٤.
(٧) السابق، ١/ ١٤٩.
(٨) السابق، ١/ ٢٠٩.
(٩) يوسف: آية ١٩.
(١٠) الفراء: معاني القرآن، ١/ ٣٩- ٤٠.
(١١) المجادلة: آية ٢.
(١٢) الفراء: معاني القرآن، ٣/ ١٣٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يلاحظ هنا أنَّ الفراء يوجه القراءات القرآنية بمواد لغوية عربية معتمدًا على كلام العرب، بمعنى أنَّ الكلام المنسوب إلى العرب حجة مثله مثل لغة الشعر، وربَّما يكون إحصاء المستشرق الفرنسي جيرار تروبو لمصطلحات كتاب سيبويه، دالًّا دلالة قوية في هذا المضمار، فحسب هذا الإحصاء، استخدم سيبويه كلمة (عرب) في كتابه على النحو الآتي: في سياق الأخذ عنهم في التحليل التركيبي ٦٧٠ مرة[١]، و٣٥٤ مرة في التحليل الصرفي والصوتي؛ وهذا حاصل في الجزء الثاني من الكتاب[٢]. وجاءت كلمة (عربي) و(أعرابي) ١٧ مرة[٣]، وأشار إلى الحجاز (في إطار استخدامه أمثلة من لهجتها) ٧٢ مرة[٤]، وأشار إلى بني تميم ٦٧ مرة[٥]، ويشير إلى العرب بتعبيرات مشيرة إلى قائليها من القبيلة، أو مكان إقامتهم (أهل الحجاز)، (بنو تميم)، وبعض الرواة الذين ينتسبون إلى قبائل أخرى، وهي: أسد، بكر بن وائل، ربيعة، سعد، سليمان، طيء، بنو الأنبار، فزارة، قيس، وهذيل[٦].

ويلاحظ أنَّ سيبويه في معظم الحالات يشير إلى العرب مصدرًا لرواته، متعلقًا بنصوص من الشعر الجاهلي، لكنه في مناسبات كثيرة لا يشير إليهم بهذا الاسم، أو بأنسابهم القبلية، بل بذكر لقبهم، ومن ذلك قوله: «وسمعناهم يقولون»، وكان سيبويه - كما يلاحظ ذلك ليفن - مدركًا الخلافات اللهجية في اللغة المنطوقة للعرب، ومن ذلك إشاراته إلى ظواهر لغوية تستعمل في كلامهم، مثل قوله: «في لغات أهل الحجاز»، و «في جميع لغات العرب» [٧].

(1) Troupeau, J. 1976: p. 246248-.

(2) Levin, A. 1994: p. 206.

(3) Troupeau, J. 1976: p. 248.

(٤) انظر أسماء هذه القبائل في كتاب تروبو السابق الذكر، ص ٢٤٥.

(5) Troupeau, J. 1976: p. 244.

(٦) انظر أسماء هذه القبائل في كتاب تروبو السابق حسب الترتيب الألفبائي.

(7) Levin, A. 1994: p. 207.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ورأينا منذ قليل أنَّ سيبويه كان حريصًا على اختيار رواته، وهذا ظاهر من التعبيرات التي استخدمها؛ إذ كلُّها تشير إلى الثقة والتوثيق اللغوي للعرب الذين أمدوه وأساتذته برواياتهم. ومن التعبيرات التي رأيناها في كتاب سيبويه تؤكد ذلك قوله: «وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقول»، و«حدثنا بذلك يونس وعيسى جميعًا أنَّ بعض العرب الموثوق بعربيتهم يقول»، وغير ذلك من التعبيرات التي نقلنا عددًا منها في الصفحات السابقة. وقد كان سيبويه واعيًا بتكرار حدوث اختلافات لغوية في كلام العرب، كما يتضح من تعبيراته التالية: «عربي جيد كثير»[1]، و«وكان كثيرًا في الكلام»[2]، و«اعلم أنَّ ... أقل في كلام العرب ... وهو على ذلك عربي»[3]، «وهو في هذا غير حسن في الكلام»[4]، و«فهو قبيح»[5]، و«فالعرب قد تتكلم بهذا، وليس بالكثير»[6]، «واعلم أنَّه قبيح أن تقول»[7]، و«لكنَّ العرب قلَّما تكلموا بذا»[8]، و«فهو ها هنا مستكرهة لا يتكلم بها العرب»[9]، و«هذه قليلة ... وقل من يتكلم بذلك»[10]، و«وهذا بعيد لا تتكلّم به العرب ولا يستعمله منهم ناس كثير»[11].

ويتضح عند الاطلاع على كتاب سيبويه أنَّ كلام العرب كان المصدر المهم في وصف العربية الفصحى وتقعيدها على المستويات اللغوية كلِّها، صوتًا، وصرفًا، ونحوًا. ففي وصف الأصوات اعتمد سيبويه على كلام العرب، ومن شواهد ذلك أنه لما أراد إيضاح

(١) سيبويه: الكتاب، ١/ ٥٦.
(٢) السابق، ١/ ٢٧٥.
(٣) السابق، ٢/ ٢٥٠.
(٤) السابق، ٢/ ٣٥٧.
(٥) السابق نفسه.
(٦) السابق نفسه.
(٧) السابق، ٢/ ٣٦١.
(٨) السابق، ٢/ ٣٧٣.
(٩) السابق، ٢/ ٣٩٠.
(١٠) السابق، ٢/ ٤٠٤.
(١١) السابق، ٢/ ٤١١.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

نطـق الهمـزة والاختلافـات فيهـا لجـأ إلى اللهجـات المنطوقـة عنـد العـرب، فقـال: «وممَّـا حـذف في التخفيـف لأنَّ مـا قبلـه سـاكن قولـه: أرى وتـرى ويـرى ونـرى، غـير أنَّ كلَّ شيء كان في أوَّلـه زائـدة سـوى ألـف الوصـل مـن رأيـت فقـد اجتمعـت العـرب علـى تخفيفـه؛ لكـثرة اسـتعمالهم إيـاه جعلـوا الهمـزة تعاقـب»[1].

واضـح أنَّ سـيبويه ينطلـق مـن كلام العـرب للوصـول إلى الوصـف، ويتضـح ذلـك مـن النـص الآتي: «وإذا كانـت الهمـزة المتحركـة بعـد ألـف لـم تحـذف؛ لأنَّـك لـو حذفتهـا ثـم فعلـت بالألـف مـا فعلـت بالسـواكن الـتي ذكـرت لـك لتحولـت حرفًـا غيرهـا، فكرهـوا أن يبدلـوا مكان الألـف حرفًـا ويغيروهـا؛ لأنَّـه ليـس مـن كلامهـم أن يغـيروا السـواكن، فيبدلـوا مكانهـا إذا كان بعدهـا همـزة فخففـوا، ولـو فعلـوا ذلـك لخـرج كلام كثـير مـن حـدِّ كلامهـم»[2]، وقولـه: «وكذلـك سـمعنا العـرب الذيـن يخففـون يقولـون ...»[3]، وقولـه: «واعلـم أنَّ الهمزتـين إذا التقتـا وكانـت كلُّ واحـدة منهمـا مـن كلمـة، فـإنَّ أهـل التحقيـق يخففـون إحداهمـا، ويسـتثقلون تحقيقهـا لمـا ذكـرت لـك، كمـا اسـتثقل أهـل الحجـاز تحقيـق الواحـدة، فليـس مـن كلام العـرب أن تلتقـي همزتـان فتحققـا. ومـن كلام العـرب تخفيـف الأوَّلى وتحقيـق الآخـرة، وهـو قـول أبي عمـر... ومنهـم مـن يحقـق الأولى ويخفـف الآخـرة، سـمعنا ذلـك مـن العـرب»[4].

وفي ظاهـرة الوقـف في أواخـر الكلـم المتحركـة في الوصـل يعتمـد علـى كلام العـرب في الوصـف، فيقـول: «وزعـم أبـو الخطـاب أنَّ ناسًـا مـن العـرب يقولـون في الوقـف: طلحـت، كمـا قالـوا في تـاء الجميـع قـولًا واحـدًا في الوقـف والوصـل ... وقـد يحذفـون في الوقـف اليـاء، الـتي قبلهـا كسـرة وهـي مـن نفـس الحـرف، نحـو القـاض ... وزعـم أبـو الخطـاب أنَّ أزد السـراة يقولـون: هـذا زيـدو، وهـذا عمـرو، ومـررت بزيـدي، وبعمـري ...»[5]، ويقـول أيضًـا: «وأمَّـا

(١) السابق، ٣/ ٥٤٦.
(٢) سيبويه: الكتاب، ٣/ ٥٤٦.
(٣) السابق، ٣/ ٥٤٨.
(٤) السابق، ٣/ ٥٤٨- ٥٤٩.
(٥) السابق، ٤/ ١٦٧.

الذيـن رامُـوا الحركـة فهـم الذيـن قالـوا: هـذا عمـر، وهـذا أحمـد، كأنَّـه يريـد رفـع لسـانه. حدثنـا بذلـك عـن العـرب الخليـل وأبـو الخطـاب. وحدثنـا الخليـل عـن العـرب أيضًـا بغـير الإشـمام وإجـراء السـاكن»[1].

ولـم يكـن وصـف سـيبويه للعربيـة صوتيًّـا فحسـب؛ بـل اعتمـد علـى كلام العـرب في كلِّ مسـتويات اللغـة، ففـي التحليـل الصـرفي نجـده يصـف هـذا الجانـب في العربيـة مسـتعينًا بـكلام العـرب. ففـي التصغـير في العربيـة نجـده في بـاب «مـا يحقـر علـى تكسـيرك إيَّـاه لـو كسـرته للجمـع علـى القيـاس لا علـى التكسـير للجمـع علـى غـيره»[2] يقـف علـى أمثلـة لذلـك، منهـا: خاتـم، وتصغـيره خُوَيْتِـم، ويـرى أنَّ الذيـن قالـوا خواتيـم في جمعـه «إنَّمـا جعلـوا تكسـير فاعـال، وإن لـم يكـن مـن كلامهـم ... غـير أنَّهـم قـد قالـوا: خاتـام، حدثنـا بذلـك أبـو الخطـاب، وسـمعنا مـن يقـول ممَّـن يوثـق بـه مـن العـرب: خويتيـم، فـإذا جمـع قـال: خواتيـم، وزعـم يونـس أنَّ العـرب تقـول أيضًـا: خواتـم ودوانـق وطوابـق علـى فاعـل كمـا قالـوا: تابـل وتوابـل»[3].

هـذا وعـي بـكلام العـرب وتوثيـق دقيـق للروايـة، فسـيبويه هنـا يعتمـد علـى أبي الخطـاب، ويونـس العالمـين الجليلـين، وفـوق ذلـك فهـم لطبيعـة العربيـة وبنيتهـا. هـذا الوعـي، وهـذا الإدراك، نجـده في بـاب «مـا تكسـر فيـه أوائـل الأفعـال المضارعـة للأسـماء كمـا كسـرت ثـاني الحـرف حـين قلـت فعِـل»، يذكـر فيـه سـيبويه مـا يؤكـد مـا ذكرنـاه مـن وعيـه بلهجـات العـرب، ومـن ذلـك قولـه إنَّ هـذه الظاهـرة «في لغـة جميـع العـرب إلَّا أهـل الحجـاز، وذلـك قولهـم: أنـت تِعْلـم ذاك، وأنـا إعْلَـمُ، وهـي تِعْلَـمُ، ونحـن نِعْلَـمُ ذاك»[4]، ويذكـر أيضًـا «وقالـوا مُـرْهُ، وقـال بعضهـم أومُـرْهُ، حـين خالفـت في موضـع، وكـثر في كلامهـم خالفـوا بـه في موضـع آخـر، وجميـع مـا ذكـرت مفتـوح في لغـة أهـل الحجـاز، وهـو الأصـل»[5].

(١) سيبويه: الكتاب، ٤/ ١٦٩.
(٢) السابق، ٣/ ٤٢٥.
(٣) السابق، ٣/ ٤٢٥.
(٤) السابق، ٤/ ١١٠.
(٥) سيبويه: الكتاب، ٤/ ١١١.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أمَّا في وَجِل يَوْجَل ونحوه، فيقول سيبويه: «فإنَّ أهل الحجاز يقولون يوْجَل فيجرونه مجرى عَلِمْت، وغيرهم من العرب سوى أهل الحجاز يقولون في تَوْجَل: هي تِيْجَل، وأنا إيجل، ونحن نِيْجَل، وإذا قلت يفعل فبعض العرب يقولون يَيْجَل كراهية الواو مع الياء، شبهوا ذلك بأيام ونحوها، وقال بعضهم: ياجَل فأبدلوا مكانها ألفًا كراهية الواو مع الياء، كما يبدلونها من الهمزة الساكنة، وقال بعضهم: يِيْجَل كأنَّه لما كره الياء مع الواو كسر الياء ليقلب الواو ياءً»[1]. ويذكر أنَّ العرب يفتحون الياءات في يفعل، فيقول «ومثل ذلك قولهم: تَقَى الله رجلُ، ثم قال يتقي الله، أجروه على الأصل، وإن كانوا لم يستعملوا الألف، وحذفوها والحرف الذي بعدها، وجميع هذا يفتحه أهل الحجاز، وبنو تميم لا يكسرونه في الياء إذا قالوا يَفْعَل»[2].

ويشير سيبويه بكثرة إلى العرب بكونهم مصدرًا لمعرفته الصرفية، وليس الصرف والأصوات فحسب؛ وإنَّما التركيب أيضًا، فوصفه بنية العربية يمر بنطاق واسع من اللغة المنطوقة للبدو، وكما تأكد لنا ذلك في الأصوات والصرف والتركيب أيضًا، والأمثلة التالية تؤكد ما نزعم.

في «باب وقوع الأسماء ظروفًا وتصحيح اللفظ على المعنى» نجده يفصل القول في بعض التراكيب فيقول: «وقد تقول سِيرَ عليه اليوم، فترفع وأنت تعني في بعضه، كما تقول في سعة الكلام: الليلةُ الهلالُ، وإنَّما الهلالُ في بعض الليلة، وإنَّما أراد الليلةُ ليلةُ الهلال، ولكنَّه اتَّسع وأوجز، وكذلك أيضًا هذا كلُّه، كأنَّه قال: سِيرَ عليه سَيرُ اليوم. والرفع في جميع هذا عربي كثير في جميع لغات العرب، على ما ذكرت لك من سعة الكلام والإيجاز»[3].

---

(١) السابق، ٤/ ١١١ - ١١٢.
(٢) السابق، ٤/ ١١٢ - ١١٣.
(٣) سيبويه: الكتاب، ١/ ٢١٦.

اعتماد واضح في التقعيد على لهجات العرب، ووعيه بها، ويتضح ذلك أيضًا من قوله: «وممَّا ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره قولك: هلّا خيرًا من ذلك، وألّا خيرًا من ذلك، أو غيرذلك، كأنك قلت: ألّا تفعل خيرًا من ذلك، أو ألّا تفعل غيرذلك، وهلّا تأتي خيرًا من ذلك، وربَّما عرضت هذا على نفسك فكنت فيه كالمخاطب كقولك: هلّا أفعلُ، وألّا أفعلُ، وإن شئت رفعته، فقد سمعنا رفع بعضه من العرب، وممَّن سمعه من العرب، فجاز إضمار ما يرفع كما جاز إضمار ما ينصب»[1].

فهو يجيز الرفع هنا معتمدًا على نطق بعض العرب له بهذه الصيغة، وانظر تحليله الآتي، يقول سيبويه: «فإن قلت: ضُرِبَ زيد اليدُ والرجلُ، جاز على أن يكون بدلًا، وأن يكون توكيدًا، وإن نصبته لم يحسن؛ لأنَّ الفعل إنَّما أنفذ في هذه الأسماء خاصة إلى المنصوب إذا حذفت منه حرف الجر، إلَّا أن تسمع العرب تقول في غيره، وقد سمعناهم يقولون: مَطَرَتْهم ظهرًا وبطنًا. وتقول: مُطِرَ قومك الليلَ والنهارَ، على الظرف وعلى الوجه الآخر، وإن شئت رفعته على سعة الكلام، كما قال: صِيدَ عليه الليلُ والنهارُ، وهو نهارُه صائم، وليله قائم»[2].

فكلام العرب الذي سمعه هو، أو أحد من دائرته العلمية (البصرة) أساسٌ من أسس التقعيد، الذي قعده للعربية، انظر إلى قوله: «واعلم أنَّ العرب يستخفون فيحذفون التنوين والنون، ولا يتغير من المعنى شيء، وينجرّ المفعول لكف التنوين من الاسم، فصار عمله فيه الجر، ودخل في الاسم معاقبًا للتنوين، فجرى مجرى غلام عبد الله في اللفظ؛ لأنَّه اسم، وإن كان ليس مثله في المعنى والعمل»[3].

ويعتمد سيبويه في وصفه ظاهرة التنوين هنا على العرب أو كلام العرب، وكذلك في تحليله قراءة بعض القراء لقوله تعالى: (وأمَّا ثمودَ فهديناهم)، فيقول: «فالنصب

(١) السابق، ١/ ٢٦٨.
(٢) سيبويه: الكتاب، ١/ ١٦٠.
(٣) السابق، ١/ ١٦٥ - ١٦٦.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

عـربيٌّ كثـيرٌ، والرفـع أجـود؛ لأنَّـه إذا أراد الإعمـال فأقـرب إلى ذلـك أن يقـول: ضربـت زيـدًا وزيـدًا ضربـت، ولا يعمـل الفعـل في مضمـر، ولا يتنـاول بـه هـذا المتنـاول البعيـد، وكلُّ هـذا مـن كلامهـم»[1].

وظهـر مـن الجملـة الأخـيرة مـن كلام سـيبويه «وكلُّ هـذا مـن كلامهـم»، أنَّ كلام العـرب كان أساسًـا مهمًّـا في وصـف العربيـة في كتابـه. وذكـر ذلـك سـيبويه في الفصـل الـذي سـمّاه: «هـذا بـاب اختـلاف العـرب في الاسـم المعـروف الغالـب إذا اسـتفهمت عنـه بمـن»، فقـال: : «اعلـم أنَّ أهـل الحجـاز يقولـون إذا قـال الرجـل رأيـت زيـدًا: مـن زيـدًا؟» وإذا قال مـررت بزيد، قالـوا: مـن زيـدٍ؟ وإذا قـال هـذا عبـد الله، قالـوا: مـن عبـدُ الله؟»[2]، ثـم ينتقـل إلى سـلوك بـني تميـم في ذلـك فيقـول: «وأمَّـا بنـو تميـم فيرفعـون على كلِّ حـال، وهـو أقيـس القولـين»[3].

ثـم يفصـل بالشـرح السـلوكين اللغويـين معتمـدًا علـى أقـوال العـرب، فيقـول: «فأمَّـا أهـل الحجـاز فإنهـم حملـوا قولهـم علـى أنَّهـم حكـوا مـا تكلـم بـه المسـؤول، كمـا قـال بعـض العـرب، دعنـا مـن تمرتـان، علـى الحكايـة لقولـه مـا عنـده تمرتـان، وسـمعت عربيًّـا مـرة يقـول لرجـل سـأله، فقـال: أليـس قرشـيًّا؟ فقـال ليـس بقرشـيًّا، حكايـة لقولـه، فجـاز هـذا في الاسـم الـذي يكـون علمًـا غالبًـا علـى ذي الوجـه، ولا يجـوز في غـير الاسـم الغالـب كمـا جـاز فيـه؛ وذلـك أنَّـه الأكـثر في كلامهـم، وهـو العلـم الأوَّل الـذي بـه يتعارفـون، وإنَّمـا يحتـاج إلى الصفـة إذا خـاف الالتبـاس مـن الأسـماء الغالبـة، وإنَّمـا حكـى مبـادرة للمسـؤول، أو توكيـدًا عليـه أنَّـه ليـس يسـأله عـن غـير هـذا الـذي تكلـم بـه»[4].

ويذكـر سـيبويه أنَّ في هـذه المسـألة سـلوكين: سـلوكًا لأهـل الحجـاز، وسـلوكًا لبـني تميـم، ثـم يفصـل القـول معتمـدًا مـرة علـى أقـوال العـرب، فيقـول: «كمـا قـال بعـض العـرب»،

(١) السابق، ١/ ٨٢- ٨٣.
(٢) السابق، ٢/ ٤١٣.
(٣) سيبويه: الكتاب، ٢/ ٤١٣.
(٤) السابق، ٢/ ٤١٣.

و«سـمعت عربيًّـا مـرة»، ثـم يذكـر «أنَّـه الأكـثر في كلامهـم». ومعرفتـه بالأكـثر بكلامهـم تؤكـد سـماعه وإدراكـه سـلوكهم اللغـوي في صيغـه المتعـددة.

واعتـاد سـيبويه عندمـا يبـيِّن ظاهـرة لغويـة أن يتحـدث عـن وجودهـا في القـرآن الكريـم، والشـعر الجاهلـي، وكلام العـرب، أو في اثنـين منهـا، ومـن أمثلـة ذلـك أنـه في بـاب: «مـا يكـون فيـه المصـدر حينًـا لسـعة الـكلام والاختصـار» يقـرر أنَّ هـذه الظاهـرة مثـل قولـك: «مـتى سـيرَ عليـه؟ فيقـول: مقـدمَ الحـاج، وخفـوقَ النجـم، وخلافـةَ فـلان، وصـلاةَ العصـر، فإنَّمـا هـو: زمـنَ الحـاج، وحـين خفـوق النجـم، ولكنَّـه علـى سـعة الـكلام والاختصـار. وإن قـال: كـم سـير عليـه فكذلـك، وإن رفعتـه أجمـع كان عربيًّـا كثيـرًا، وينتصـب علـى أن تجعـل كـم ظرفًـا، وليـس هـذا في سـعة الـكلام والاختصـار بأبعـد مـن: صِيـد عليـه يومـانِ، وولـد لـه سـتون عامًـا»[1]. ويستشـهد في هـذا البـاب علـى الظواهـر الـتي يذكرهـا بأبيـات مـن الشـعر[2].

والمثـال الآتي يوضـح أكـثر، وفيـه يأخـذ عـن كلام العـرب، وهـم بنـو تميـم في هـذا النمـوذج، ويجعلـه القيـاس بالرغـم مـن أنَّ النمـوذج المضـاد جـاء بـه مـن القـرآن الكريـم، وهـذا في «مـا»، يقـول سـيبويه: «وذلـك الحـرف «مـا»، تقـول: مـا عبـدُ الله أخـاك، ومـا زيـدٌ منطلقًـا، وأمَّـا بنـو تميـم فيجرونهـا مجـرى أمـا وهـل، أي: لا يعملونهـا في شيء، وهـو القيـاس؛ لأنَّـه ليـس بفعـل وليـس مـا كليـس، ولا يكـون فيهـا إضمـار، وأمَّـا أهـل الحجـاز فيشـبهونها بليـس إذ كان معناهـا كمعناهـا، كمـا شـبهوا لات في بعـض المواضـع، وذلـك مـع الحـين خاصـة، لا تكـون لات إلَّا مـع الحـين، تضمِـر فيهـا مرفوعًـا وتنصِـب الحـين لأنَّـه مفعـول بـه، ولـم تمكَّـن تمكُّنهـا ولـم تسـتعمل إلا مضمـراً فيهـا؛ لأنَّهـا ليسـت كليـس في المخاطبـة والإخبـار عـن غائـب، تقـول: لسـتَ، ولسـتِ، وليسـوا، وعبـد الله ليـس ذاهبًـا، فتبْنِي علـى المبتـدأ وتُضْمِـرُ فيـه»[3].

(١) سيبويه: الكتاب، ١/ ٢٢٢- ٢٢٣.
(٢) السابق، ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧.
(٣) السابق، ١/ ٥٧.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ولما تحدث عن «ما» في قوله تعالى: (ما هذا بشرًا)[1] قال: «لغة أهل الحجاز وبنو تميم يرفعونها إلّا من درى كيف هي في المصحف»[2]. وبالرغم من وجود ما الحجازية في لغة القرآن إلَّا أنَّ سيبويه أخذ بالرفع، وهو ما تنطق به بنو تميم، ولا تحدث هذه الرؤية إلَّا من تقديره لكلام العرب.

وعندما يتكلم سيبويه عن لغة «أكلوني البراغيث» يقول: «واعلم أنَّ من العرب من يقول: ضربوني قومك، وضرباني أخواك، فشبهوا هذا بالتاء التي يظهرونها في «قالت فلانة»، وكأنَّهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث، وهي قليلة»[3]، ويعلق د. أحمد ياقوت على هذا النص بقوله: «ونلاحظ أنَّ التعليل هنا لغوي قُح، بل هو وصف في حد ذاته، فهو يصف لغة العرب بأنَّها تضع تاء التأنيث في الفعل، ذلك أنَّ إلحاق علامة الجمع بالفعل تستدعي إلحاق علامة التأنيث به»[4].

وبعد حكمه على هذه الظاهرة بالقلة، يورد رأيًا للخليل بن أحمد يقول فيه: «قال الخليل - رحمه الله -: من قال: أكلوني البراغيث، أجرى هذا على أوَّله فقال: مررت برجل حسنين أبواه، ومررت بقوم قرشيين آباؤهم، وكذلك أفعل، نحو: أعور، وأحمر، تقول: مررت برجل أعور أبواه، وأحمر أبواه، فإن ثنيت قلت: برجل أحمران أبواه، تجعله اسما. ومن قال: أكلوني البراغيث، قلت: على حد قوله: مررت برجل أعورين أبواه، وتقول: مررت برجل أعور آباؤه، كأنَّك تكلمت به على حد أعورين وإن لم يتكلم به»[5].

فربَّما كان رد الخليل حجة لسيبويه لعدم رفض هذه الظاهرة كليَّة، كما أنَّ سيبويه يرفض تركيب «أعطاكني - أعطاهوني»، بالرغم من أنَّ النحويين قاسوه وقبلوه، يقول

(١) يوسف: آية٣١.
(٢) الكتاب،١/ ٥٩.
(٣) الكتاب، ٢/ ٤١.
(٤) د. أحمد سليمان ياقوت: الكتاب بين المعيارية والوصفية، ص٩٦.
(٥) الكتاب،٢/ ٤١- ٤٢.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

سيبويه في ذلك: «فإن بدأ بالمخاطب قبل نفسه فقال: أعطاكني، أو بدأ بالغائب قبل نفسه فقال: قد أعطاهوني، فهو قبيح لا تَكلّمُ به العرب، ولكنَّ النحويين قاسوه، وإنَّما قبُح عند العرب كراهية أن يبدأ المتكلم في هذا الموضع بالأبعد قبل الأقرب، ولكن تقول أعطاك إياي، وأعطاه إياي، فهذا كلام العرب ... وأمَّا قول النحويين: قد أعطاهوك وأعطاهوني، فإنَّما هو شيء قاسوه لم تتكلم به العرب، ووضعوا الكلام في غير موضعه، وكان قياس هذا لو تكلم به كان هينًا»[1].

نلاحظ هنا رفض سيبويه هذه التراكيب بحجة عدم وجودها في كلام العرب؛ ذلك أن العرب في مثال (أعطاهوك) تعبيرقبيح؛ لكون العرب تكره أن يبدأ المتكلم في هذا الموضع بالأبعد قبل الأقرب[2].

ونخلص من كلِّ هذه الأمثلة إلى عدد من الملاحظات:

- اللغة المنطوقة عند العرب مصدر مهم، ورئيس لوصف العربية عند سيبويه[3].
- اعتمد سيبويه في وصف العربية: صوتًا، وصرفًا، ونحوًا، على كلام العرب (البدو).
- يرفض تراكيب ذكرها النحاة، وقاسوها؛ متعللًا بعدم تكلّم العرب بها.
- يوافق على بعض التراكيب غير المتوافقة مع القواعد اللغوية، وهذا ظاهر جلي في تعامله مع لغة «أكلوني البراغيث»، وأخذه برأي الخليل فيها.

ويلاحظ من كلام سيبويه أنَّه بنى منهجه ولم تكن في نيته أن يعتمد في التقعيد لهجة معينة، أو يفضل لهجة على أخرى، أو يعتمد على عدد محدد ومعين من اللهجات.

---

(١) الكتاب،٢/ ٣٦٣- ٣٦٤.

(٢) انظر تفاصيل أخرى في كتاب د. محمود سليمان ياقوت: التراكيب غير الصحيحة نحويًا في كتاب سيبويه، ص ٢ - ٢٦٢.

(٣) انظر ما ذكره ليفن في بحثه، حيث وضح اعتماد سيبويه على كلام العرب، انظر .Levin, A 1994: p. 217.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

كلُّ هـذا يؤكـد أنَّ كلام العـرب كان مصـدرًا مهمًّـا عنـد سـيبويه، وتؤكـد المـادة اللغويـة وطريقـة نقلهـا مصداقيـة سـيبويه، وغـيره مـن العلمـاء العـرب الأوائـل، وأنَّهـم لـم يخترعـوا شـيئًا مـن خيالهـم كمـا زعـم عـدد مـن الباحثـين عربًـا ومستشـرقين. ويؤكـد ليفـن ١٩٩٤، في بحثـه المعنـون بـ(موقـف سـيبويه مـن كلام العـرب المنطـوق / المحكـي) مصداقيـة سـيبويه في نقلـه عـن العـرب، ومصداقيتـه في وصـف بعـض الظواهـر اللغويـة، مثـل: الإمالـة، ونطـق الهمـزة، وسـقوط الهـاء في الـكلام، والترخيـم، وظواهـر أخـرى. فهـذه الظواهـر - كمـا يزعـم ليفـن - وصفهـا سـيبويه كمـا كانـت منطوقـة في كلام العـرب - كمـا سـمعها هـو، أو أحـد مـن دائرتـه العلميـة - إضافـة إلى أن هـذه الظواهـر نفسـها موجـودة في بعـض اللهجـات العربيـة الحديثـة، ممَّـا يؤكـد - مـن وجهـة نظـر ليفـن - أنَّ الرجـل وصـف كلامًـا عربيًّـا حقيقيًّـا، ولـم يخـترع وصفًـا مـن خيالـه.

ويصـف سـيبويه ظاهـرة الترخيـم وصفًـا مفصـلًا -والمـراد بهـا سـقوط بعـض الأصـوات النهائيـة لأسـماء الأشـخاص في النـداء- فيقـول: «وسـمعنا الثقـة مـن العـرب يقـول: يـا حَرْمَـل، يريـد يـا حَرْمَلَـه، كمـا قـال بعضهـم: إرم، يقفـون بغـير هـاء، واعلـم أنَّ هـاء التأنيـث إذا كانـت بعـد حـرف زائـد لـو لـم تكـن بعـده حُـذف، أو بعـد حرفـين لـو لـم تكـن بعدهمـا حُذفـا زائديـن، لـم يحـذف، مـن قبـل أنَّ الحـروف الزوائـد قبـل الهـاء في الترخيـم بمنزلـة غـير الزوائـد مـن الحـروف، وذلـك قولـك في طائفيـة: يـا طائفـي أقبلـي، وفي مرجانـة: يـا مرجـان أقبلـي ... ومـن حـذف الزوائـد مـع الهـاء فإنَّـه ينبغـي لـه أن يقـول في فاطمـة: يـا فاطـمِ لا تفعلـي، مـن قبـل أنَّ الهـاء لـو لـم تكـن بعـد الميـم لقلـت يـا فـاطِ، كمـا تقـول: يـا حـار، فأنـت قـد تحـذف مـا هـو مـن نفـس الحـرف كمـا تحـذف الزوائـد»[1].

(١) الكتاب، ٢/ ٢٤٤- ٢٤٥.

ويشير سيبويه إلى وجود هذه الظاهرة في الشعر، ومن ذلك قول رؤبة:

إمَّا تَرَيـني اليـــــومَ أمَّ حمز قـاربـتُ بين عَنَقي وجَـمـزِي

إنَّما أراد أمَّ حمزة[1]. هـذه الظاهـرة الـتي جاءت عنـد العـرب قديمًا، ووصفها سـيبويه، ما زالـت موجـودة في اللهجـات العربيـة الحديثـة، موجـودة في شـمال اليمـن في لهجـة صعـدة [2]، وموجـودة في لهجـات عربيـة كثـيرة، ومـن ذلـك مـا نسـمعه في بعـض لهجـات مناطـق المنيـا بصعيـد مصر يامحـم في يـا محمـد، ويـا أحـم في يـا أحمـد، ويـا عـي في يـا عيـد، يـا عَ في يـا عليّ. ومـن الظواهـر اللغويـة الـتي وصفهـا سـيبويه، وبـيَّن أنَّهـا موجـودة في بعـض اللهجـات العربيـة القديمـة، اسـتعمال اسـم المفعـول مـن الفعـل الأجـوف اليـائي على التمـام، أي على وزن المفعـول دون إعـلال يطـرأ عليـه، يتكلـم سـيبويه عـن هـذه الظاهـرة في بـاب «مـا اعتـل مـن أسـماء الأفعـال المعتلـة على اعتلالهـا»، فيقـول: «وبعـض العـرب يخرجـه على الأصـل فيقـول: مخيـوط، ومبيـوع، فشـبهوها بصيـود وغيـور، حيـث كان بعدهـا حـرف سـاكن ولـم تكـن بعـد الألـف فتهمـز. ولا نعلمهـم أتمـوا في الـواوات، لأنَّ الـواوات أثقـل عليهـم مـن اليـاءات، ومنهـا يفـرون إلى اليـاء؛ فكرهـوا اجتماعهمـا مـع الضمـة»[3].

فهـذه الظاهـرة -حسـب سـيبويه- خـروج علـى الأصـل، لكنّهـا موجـودة عنـد بعـض العـرب، وهـي نفسـها في لهجـات مصـر، ومـن ذلـك مديـون: أي عليـه ديـن، ومطيـور: أي متسـرع في عملـه، ومخيـول: أي منشـغل بمـا في خيالـه مـن أوهـام. ويشـير د. رمضـان عبـد التـواب إلى أنَّ هـذه الظاهـرة موجـودة في بعـض البـلاد العربيـة، وأنهـم يقولـون عـن الثـوب مخيـوط، وعـن فـلان مـن النـاس مهيـوب، وعـن الـشيء معيـوب، ومبيـوع[4]. والعربيـة الفصـحى تعـل هـذه الأسـماء ومـا يشـبهها بمـا يسـمى الإعـلال بالنقـل، فتقـول مثـلًا: مديـن ومخيـط، ومعيـب، ومكيـل، ومبيـع، وغـيرذلـك[5].

(1) Levin, A. 1994: p. 226.
(2) Levin, A. 1994: p. 226.
(٣) الكتاب، ٤/ ٣٤٨- ٣٤٩.
(٤) د. رمضان عبد التواب: من امتداد اللهجات العربية القديمة في بعض اللهجات المعاصرة، ص ١٧٨.
(٥) السابق، ص ١٧٨.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ويشـير د. رمضـان إلى أنَّ هـذا الـذي قـد شـاع في اللهجـات العاميـة المعاصـرة ليـس إلَّا لهجـة لقبيلـة تميـم إحـدى القبائـل العربيـة القديمـة[١]، وهـو أيضًـا امتـداد أو تطـور لمـا هـو قديـم، ومثـال ذلـك مـا نـراه مـن ظواهـر كانـت موجـودة عنـد بعـض العـرب قديمًـا، ومـا زالـت موجـودة في بعـض اللهجـات العربيـة الحديثـة، وهـو مـا يؤكـد لنـا أنَّ أصـول اللهجـات العربيـة الحديثـة ترجـع إلى عـدد مـن الجـذور، أهمهـا اللهجـات العربيـة القديمـة، والفصـحى، ولغـات الأمصـار[٢]. إنَّ هـذه الظواهـر أدلـة قويـة تؤكـد أنَّ سـيبويه كان صادقًـا ودقيقًـا في وصفـه الظواهـر اللغويـة عنـد العـرب.

أمَّـا علـى مسـتوى التركيـب فقـد وجدنـا وصفـه لظواهـر متعـددة، بعضهـا ممتـد في اللهجـات العربيـة، ومـن تلـك الظواهـر ظاهـرة «أكلـوني البراغيـث». ومعلـوم أنَّ العربيـة الفصـحى تُوجـب إفـراد الفعـل دائمًـا، ولـو كان فاعلـه مثنـى أو جمعًـا، بمعـنى أنَّـه لا تتصـل بـه علامـة تثنيـة ولا علامـة جمـع، فنقـول: قـام الرجـل، وقـام الرجـلان، وقـام الرجـال. لكـن هـذا غـير مطـرد لوجـود مخالفـات لهـذه القاعـدة، يقـول سـيبويه: «واعلـم أنَّ مـن العـرب مـن يقـول: ضربـوني قومـك، وضربـاني أخـواك، فشـبهوا هـذا بالتـاء الـتي يظهرونهـا في «قالـت فلانـة»، وكأنَّهـم أرادوا أن يجعلـوا للجمـع علامـة كمـا جعلـوا للمؤنـث، وهـي قليلـة»[٣].

ويضـرب أمثلـة لظاهـرة (أكلـوني البراغيـث) مـن الشـعر والقـرآن الكريـم، مـن ذلـك قولـه: «وقـال الخليـل: مـن قـال: أكلـوني البراغيـث أجـرى هـذا علـى أوَّلـه فقـال: مـررت برجـل حسـنين أبـواه، ومـررت بقـوم قرشـيين آباؤهـم»[٤]. وتـدل مقارنـة السـاميات – شـقيقات العربيـة، ومنهـا العبريـة، والآراميـة، والحبشـية، والأكاديـة – علـى أنَّ الأصـل في تلـك اللغـات أن يلحـق الفعـل علامـة التثنيـة والجمـع للفاعـل، كمـا تلحقـه علامـة التأنيـث عندمـا يكـون الفاعـل مؤنثًـا، سـواء بسـواء في العبريـة والآراميـة والحبشـية[٥].

---

(١) السابق نفسه.
(٢) انظر لتفاصيل أكثر بحث د. عبد الله حمد: في أصل اللهجات العربية الحديثة.
(٣) الكتاب، ٢/ ٤٠.
(٤) السابق، ٢/ ٤١.
(٥) د. رمضان عبد التواب: من امتداد اللهجات، ص ١٨١.

وهنـاك بقايـا ظلـت موجـودة لظاهـرة (أكلـوني البراغيـث) عنـد العـرب قديمًـا، وعنـد قبائـل طـيء، وبلحـارث ابـن كعـب، وأزد شـنوءة[١]، وكذلـك بقيـت بعـض آثارهـا في القـرآن الكريـم والحديـث الشـريف، ففـي القـرآن الكريـم ورد قولـه تعـالى: (ثـم عمـوا وصمـوا كثـير منهـم)[٢]، وقولـه -عـزَّ وجـلَّ-: (وأسـروا النجـوى الذيـن ظلمـوا)[٣]. وقـد التمـس النحـاة والمفسـرون تخريجًـا يتـلاءم مـع مـا هـو مشـهور مـن الأسـاليب واللغـات، فذهـب سـيبويه في تخريـج الآيـة الأخـيرة إلى أنَّ الـواو هـي الفاعـل، والذيـن ظلمـوا بـدل منهـا، أو علـى أنَّ الذيـن ظلمـوا خـبر لمبتـدأ محـذوف[٤]، في حـين يخـرج الفـراء هاتـين الآيتـين، علـى أنَّ كلاًّ مـن علامـة التثنيـة، وهـي الألـف، وعلامـة الجمـع، وهـي الـواو، همـا الفاعـل، ومـا بعدهمـا مرفـوع علـى الاسـتئناف[٥].

وكان جديـرًا بالنحـاة أن يعاملـوا الأسـاليب الـواردة علـى مـا هـي عليـه، ولا بـأس بعـد ذلـك أن يحكـم عليهـا بأنَّهـا قليلـة الـورود[٦]. وقـد اسـتمرت هـذه الظاهـرة في أشـعار المولديـن مـن الطائيـين، ومنهـم أبـو تمـام، الـذي يمتلـئ شـعره باسـتعمال هـذه اللغـة[٧] ومـا زالـت تسـتخدم في كثـير مـن اللهجـات العربيـة الحديثـة، ومـن ذلـك مـا يـرد في لهجاتنـا: ظلمـوني النـاس، لامـوني العـواذل، وزارنـا الجـيران، وقالـوا لي العيـال[٨].

ويتأكـد لنـا مـن الظواهـر الـتي وصفهـا سـيبويه صدقـه ودقتـه في وصـف الظواهـر اللغويـة الـتي كانـت موجـودة في اللهجـات العربيـة القديمـة، اعتمـادًا على سـمعه المباشـر، أو سـمع أحد مـن دائرتـه العلميـة، كأسـاتذته، ومنهـم الخليـل بـن أحمـد، ويونـس بـن حبيـب، وأبـو عمـرو

(١) السابق، ص ١٨٢.
(٢) المائدة: آية ٧١.
(٣) الأنبياء: آية ٣.
(٤) الكتاب، ٢/ ٤١.
(٥) الفراء: معاني القرآن، ٢ / ١٢٠.
(٦) د. شعبان صلاح: مواقف النحاة من القراءات القرآنية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص ٣١٢.
(٧) ينظر تفصيل ذلك في بحث د. رمضان عبد التواب: من امتداد اللهجات العربية القديمة في بعض اللهجات المعاصرة، ص ١٨٥- ١٨٦.
(٨) انظر أمثلة لذلك في البحث السابق، ص ١٧٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

بـن العـلاء، وعيـسى بـن عمـر، وأبـو الخطـاب. ومـن هنـا لـم يكـن هـؤلاء كذَّابـين أو ملفَّقـين أو أغبيـاء؛ فالمـادة العلميـة الموجـودة في كتـاب سـيبويه تؤكـد لنـا مجموعـة مـن الحقائـق، منهـا:

لم يقدم سيبويه شيئًا غريبًا عمَّا كان منطوقًا ومستعملًا عند العرب آنذاك.

الظواهـر اللغويـة الموجـودة الـتي وصفهـا سـيبويه لـم تكـن مـن خيالاتهـم؛ يشـهد لذلـك احتفـاظ اللهجـات العربيـة الحديثـة ببعـض تلـك الظواهـر الممتـدة حـتى عصرنـا هـذا.

تقعيـد النحويـين العـرب، ومنهـم سـيبويه بعيـد عـن الاتهـام بكونـه مصنوعًـا، فنحوهـم ليـس مـن خيالاتهـم.

ولـذا نحـن مـع ليفـن حينمـا يصـل إلى نتـائج منهـا أنَّ وصـف سـيبويه للغـة البـدو المنطوقـة آنـذاك كان مهمًّـا في تقعيـد العربيـة الفصـحى، إضافـة إلى أنَّ بعـض البـدو الذيـن عاشـوا في حيـاة سـيبويه، كانـوا يتكلمـون لهجـات مـن العربيـة القديمـة، وفي بعضهـا ظواهـر صوتيـة تتطابـق مـع مـا نجـده اليـوم في اللهجـات العربيـة الحديثـة؛ وكل ذلـك يبـيِّن أنَّهـا ظواهـر قديمـة جـدًّا، ووجودهـا هـو اسـتمرار لظاهـرة مبكـرة[1].

ويسـتغل ليفـن هـذه الظواهـر ليؤكـد أنَّ تصـوَّر المستشـرق بـلاو للعربيـة القديمـة وبدايـة اللهجـات الحديثـة صحيـح، فقـد ذهـب إلى أنَّهـا جـاءت بعـد الفتوحـات، وليـس قبلهـا، وتحديـدًا في مـدن الأقطـار المفتوحـة. ويبـيِّن أيضًـا أنَّ بـلاو يـرى أنَّ بعـض البـدو اسـتمروا بنطـق اللهجـات ذات النـوع القديـم مـن العربيـة بعـد الفتوحـات بقـرون عديـدة[2]. وهـذا صحيـح ومدعـم مـن اللغـوي العظيـم ابـن جـني في القـرن العاشـر الميـلادي؛ فقـد وضـع بابًـا سـمَّاه «بـاب في تـرك الأخـذ عـن أهـل المـدر كمـا أخـذ عـن أهـل الوبـر»[3]، أكَّـد فيـه أنَّ علـة ذلـك هـو «مـا عـرض للغـات الحاضـرة وأهـل المـدر مـن الاختـلاط والفسـاد والخطـل، ولـو علـم أنَّ

(1) Levin, A. 1994: p. 238.

(2) Levin, A. 1994: p. 238.

(٣) ابن جني: الخصائص، ٢/ ٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أهـل مدينـة باقـون علـى فصاحتهـم، ولـم يعـترض شيء مـن الفسـاد للغتهـم لوجـب الأخـذ عنهـم كمـا يؤخـذ عـن أهـل الوبـر»[1]، ثـم يؤكـد أنَّـه «لـو فشـا في أهـل الوبـر مـا شـاع في لغـة أهـل المـدر مـن اضطـراب الألسـنة وخبالهـا، وانتقـاض عـادة الفصاحـة وانتشـارها، لوجـب رفـض لغتهـا، وتـرك تلقـي مـا يـرد عنهـا»[2]. ثـم يقـرر أنَّ ذلـك هـو الـذي حـدث في أيامهـم، فقـد فسـدت ألسـنة البـدو في زمـن ابـن جـني (القـرن العاشـر الميـلادي)، ونـص علـى ذلـك بقولـه: «وعلـى ذلـك العمـل في وقتنـا هـذا، لأنَّـا لا نـكاد نـرى بدويًّـا فصيحًـا، وإن نحـن آنسـنا منـه فصاحـة في كلامـه لـم نكـد نعـدم مـا يفسـد ذلـك، ويقـدح فيـه، وينـال ويغـض منـه»[3].

ويعـدُّ هـذا إقـرارًا مـن ابـن جـني بـأنَّ العربيـة الـتي اعتمـد عليهـا النحـاة وأخذوهـا مـن ألسـن البـدو قـد فسـدت فيمـا بعـد، أي في زمـن ابـن جـني؛ وهـذا مـا يـراه عـدد مـن المستشـرقين، منهـم: نولدكـه، وفِـك، وبـلاو وفرسـتيخ، ويتطابقـون في ذلـك مـع الرؤيـة الـتي تُنسـب إلى العلمـاء العـرب القدمـاء. وسـوف نقـف هنـا عنـد تصـوّر ابـن جـني للغـات العـرب، وتقريـره أنهـا كلَّهـا حجـة، وهـذا مـا رأينـاه مطبقًـا عنـد سـيبويه في كتابـه، فقـد ألفينـاه يأخـذ عـن الحجازيـين والتميميـين، وغيرهمـا. ونـرى ذلـك أيضًـا عنـد ابـن جـني تنظـيرًا لهـذا في البـاب الـذي سـماه: «بـاب اختـلاف اللغـات وكلُّهـا حجـة»[4]، يقـول فيـه: «اعلـم أنَّ سـعة القيـاس تبيـح لهـم ذلـك، ولا تحظـره عليهـم؛ ألَّا تـرى أنَّ لغـة التميميـين في تـرك إعمـال مـا يقبلهـا القيـاس، ولغـة الحجازيـين في إعمالهـا كذلـك؛ لأنَّ لـكلٍّ مـن القولـين ضربًـا مـن القيـاس يؤخـذ بـه، ويخلـد إلى مثلـه، وليـس لـك أن تـرد إحـدى اللغتـين بصاحبتهـا؛ لأنَّهـا ليسـت أحـق بذلـك مـن رسـيلتها، لكـن غايـة مـا لـك في ذلـك أن تتخـير إحداهمـا فتقويهـا علـى أختهـا، وتعتقـد أنَّ أقـوى القياسـين أقبـل لهـا، وأشـد أنسًـا بهـا. فأمَّـا رد إحداهمـا بالأخـرى فـلا، أوَ لا تـرى إلى قـول النـبي -صلـى الله عليـه وسـلم-: «نـزل القـرآن بسـبع لغـات كلِّهـا كافٍ شـافٍ». هـذا حكـم

(١) السابق، نفسه.
(٢) السابق، نفسه.
(٣) السابق، نفسه.
(٤) ابن جني: الخصائص، ٢/ ١٠.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين، أو كالمتراسلتين. فأمَّا أن تقل إحداهما جدًا وتكثر الأخرى جدًا فإنَّك تأخذ بأوسعهما رواية، وأقواهما قياسًا»[1].

وهو هنا يقرُّ أنَّ اللغات الواسعة الرواية يأخذ بها ولا تفضيل لواحدة على الأخرى، أمَّا إذا كانت لغة منهما أقل رواية وقياسًا، فإنه يأخذ بالأوسع رواية والأقوى قياسًا. وزعم أيضًا أنَّ لغات العرب مختلفة فيما بينها في ظواهر لغوية كثيرة، ثم يقول: «فإن قلت: زعمت أنَّ العرب تجتمع على لغتها فلا تختلف فيها، وقد نراها ظاهرة الخلاف، ألَّا ترى إلى الخلاف في ما الحجازية والتميمية، وإلى الحكاية في الاستفهام على الأعلام في الحجازية، وترك ذلك في التميمية، إلى غير ذلك، قيل: هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته محتقر غير محتفل به ولا معيج عليه، وإنَّما هو في شيء من الفروع يسير، فأمَّا الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه، ولا مذهب للطاعن به، وأيضًا فإنَّ أهل كلِّ واحدة من اللغتين عدد كثير، وخلق من الله عظيم، وكلُّ واحد منهم محافظ على لغته، لا يخالف شيئًا منها، ولا يوجد عنده تعاد فيها، فهل ذلك إلَّا لأنَّهم يحتاطون ويقتاسون، ولا يفرطون، ولا يخلطون، ومع هذا فليس شيء مما يختلفون فيه -على قلته وخفته- إلَّا له من القياس وجه يؤخذ به»[2].

ويورد ابن جني حجة أخرى، وهي: «لو كانت هذه اللغة حشوًا مكيلًا وحثوًا مهيلًا لكثر خلافها، وتعادت أوصافها؛ فجاء عنهم جر الفاعل، ورفع المضاف إليه والمفعول به، والجزم بحروف النصب، والنصب بحروف الجزم ...»[3]. فعربية القبائل الفصيحة كلُّها حجة، والاختلافات التي بينها ليست كثيرة- حسب زعم ابن جني- وهذا هو الذي طبقَّه سيبويه في كتابه. وفي ضوء تنظير ابن جني هذا نفهم مصطلحات وتعبيرات كثيرة ساقها سيبويه في كتابه، ومنها: «هذا جيد»، و«هذا رديء»، وأساس ذلك استعمال

(١) السابق، ٢/ ١٠.
(٢) ابن جني: الخصائص، ١/ ٢٤٣- ٢٤٤.
(٣) السابق، ٢/ ٢٤٤.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الفصحاء[١]؛ فالجيد هو ما استعمل من قبلهم وشاع، أمَّا الرديء فهو الذي لم يستعمل أصلًا، أو المستعمل قليلًا من العامة الموثوق بعربيتهم، ويسمى هذا النوع عند سيبويه وغيره من علماء العربية بالقبيح والضعيف والرديء، وإن كان المستعمل منه جائزًا؛ إذ إنَّ هناك فروقًا عندهم بين «المستقيم القبيح»[٢] -على حدِّ تعبير سيبويه- والقبيح الذي لا يستقيم أبدًا.

وما يوافق القياس[٣] أصليًا أم فرعيًا، وكان كثيرًا في الاستعمال ينتعه سيبويه بأنَّه عربي كثير أو عربي، وأحيانًا يصف ذلك بدرجات: جيد، وأجود، وكثير، وأكثر، وأعرف.

وهناك من يشير إلى أنَّ استعمال مصطلح لغة في كتاب سيبويه ليس بمعنى لهجة، وإنَّما استعمله بمعنى الاستعمال اللغوي الخاص بجزء أو عنصر واحد من اللسان، يسمع إمَّا من جميع العرب، وإما من أكثرهم، مثل قوله: «وذلك لغة جميع العرب إلَّا أهل الحجاز»[٤]، وإمَّا من جماعة معينة، كلغة هذيل، ومن ذلك قوله: «ذيت ... ففيها ... ثلاث لغات»[٥]، «وأمَّا معد يكرب ففيه لغات»[٦]، أي فيه عدة كيفيات في استعمال العرب لها، ولا يمكن أن تقوم كلمة لهجة مقامها هنا، فالكيفية الخاصة بجزء من اللسان ليست هي اللهجة كلُّها[٧].

(١) الفصاحة هنا بمعنى صفة الناطق الذي يعرف اللغة بالسليقة لا بالتلقين، ولم يتأثر ببيئة لغوية أخرى غير بيئته، انظر بحث د. عبد الرحمن الحاج صالح: النحو العربي والبنُيوية، ص ٢٠٢.
(٢) الكتاب، ١/ ٢٦.
(٣) تزعم جوين Gwynne أنَّ قياس الكلام عند سيبويه ليس أجوده في كلِّ الحالات، بل هو أنظمه، وتذكر أنَّنا إذا أردنا استخراج الحكم يلزمنا عمل سلسلة منتظمة من الاستدلالات، مع أنَّ كلَّ حكم هو قياس، وترى أنَّه إذا فهمنا كلمة «قياس» نظامًا قبل أن نفهمه قانونًا فهمنا كذلك عبارات لا تعقل إلَّا بهذا المعنى، فسيبويه يقول: أحيانا «في القياس» و«على قياس كذا»، وأمثال ذلك كثيرة، انظر بحثها ١٩٨٩، p.٦٠، وأشير إلى أنَّ تروبو يذكر أنَّ مصطلح قياس ورد في كتاب سيبويه ١٧١ مرة، انظر Troupeau, J. ١٩٧٦.
(٤) الكتاب، ٤/ ١١٠.
(٥) السابق، ٣/ ٢٩٢.
(٦) السابق، ٣ / ٢٩٦.
(٧) د. عبد الرحمن الحاج صالح: النحو العربي والبنوية، ٢٠٤.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

هـذا الفهـم وهـذا التحليـل الـذي قدمـه د. الحـاج صالـح جعلـه يقـرر أنَّ هـذا الوهـم في تفسـير مصطلـح لهجـة حسـب اسـتعمال سـيبويه قـد سـاعد على تبـني فكـرة المستشـرقين الـتي تجعـل مـن الفصـحى اللغـةَ المشـتركة الأدبيـة، وتميزهـا عـن لغـات العـرب الـتي هـي عندهـم لهجـات مغايـرة في الاسـتعمال للغـة المشـتركة، متحججًـا بـأنَّ العلمـاء العـرب القدمـاء لـم ينـص أحـد منهـم -وهـم الذيـن شـافهوا العـرب الفصحـاء على وجـود لسـان مشـترك خـارج عـن لغـات العـرب، بـل أكـدوا في كلِّ مناسـبة أنَّ هـذه اللغـات هـي أوجـه مـن وجـوه العربيـة، أو تنـوع محلِّـي أو قبلـي في اسـتعمالهم للعربيـة الفصـحى[1].

ونحـن مـع د. الحـاج صالـح في قولـه: إنَّ أكـبر دليـل على ذلـك هـو وجـود لغـات العـرب، أي تلـك الاسـتعمالات الخاصـة ببعـض الأقاليـم ووجودهـا بكـثرة في النصـوص الـتي جـاءت باللغـة العربيـة المشـتركة الأدبيـة، وهـي القـرآن والشـعر، إضافـة إلى أنَّ المعيـار اللغـوي للعربيـة عنـد النحـاة الأولـين هـو مجمـوع الأنمـاط، والموضوعـات اللغويـة، والأسـاليب الكلاميـة، الـتي كان يسـتعملها عامـة العـرب الذيـن وُصفـوا بالفصاحـة[2].

ويتخـذ د. صالـح هـذا التحليـل في رفـض النظريـات القائلـة بوجـود عربيـة أدبيـة مشـتركة مميـزة عـن لغـات العـرب، معتمـدًا على شـهادات العشـرات مـن العلمـاء الذيـن عاشـوا في وسـط العـرب السـليقيين، رافضًـا قيـاس الوضـع العـربي القديـم على الوضـع اللغـوي اليونـاني القديـم، أو قيـاس الوضـع الخـاص باللهجـات العاميـة قديمًـا وحديثًـا، ويتعجـب مـن موقـف مـن اطلـع على كتـب العـرب القدامى جيـدًا، ويحمـل هـذه الغفلـة الفظيعـة، وأن يكونـوا غفلـوا عـن وجـود لغـة مشـتركة منفصلـة عـن «لغـات العـرب» مثـل مـا كان موجـودًا، ومـا يـزال موجـودًا بـين العاميـات والفصـحى، ويتهمهـم بالتخليـط بينهـا في وصفهـم للعربيـة، ومـا يعدونـه لهجـات منفصلـة عنهـا. أمَّـا الفـروق بـين أسـلوب القـرآن والشـعر وبـين أسـلوب الـكلام اليـومي، فهـذا راجـع إلى التفـنن اللغـوي وكيفيـة اسـتعمال اللغـة، ويقـول مـن يـرى

(١) السابق، ص ٢٠٥.
(٢) السابق، ص ٢٠٥.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تلك الرؤيـة الـتي تؤكـد وجـود عربيـة مشـتركة مميزة عـن لغـات العـرب فكأنَّه يكـذب جميـع القـراء وكلَّ النحـاة واللغويـين[1].

وسـأعرض في هـذا الجـزء جهـود عالـم عـربي آخـر اهتـم بالواقـع اللغـوي الـذي عاشـه، وسـجل بعضـه في كتبـه، وهـو الجاحـظ.

ثانيًا: الجاحظ والواقع اللغوي العربي في عصره

يعـد أبـو عثمـان عمـرو بـن بحـر الجاحـظ مـن العلمـاء العـرب الموسـوعيين، اهتـم بعلـوم كثـيرة، ولـه آراء، ورؤى تكشـف عـن وعيـه بالعلاقـة بـين اللغـة والمجتمـع. ومـا يهمنـا هنـا تسـجيله للواقـع اللغـوي في الفـترة الـتي عاشـها، وهـي النصـف الثـاني مـن القـرن الثـاني الهجـري، والنصـف الأوَّل مـن القـرن الثالـث الهجـري. ونجـد مـن تتبـع كتاباتـه أنـه يفـرق بـين لهجـة البـدو ولهجـات الأمصـار فيقـول عـن لهجـات أهـل الأمصـار: «وأهـل الأمصـار إنَّمـا يتكلمـون علـى لغـة النازلـة فيهـم مـن العـرب؛ ولذلـك تجـد الاختـلاف في ألفـاظ أهـل الكوفـة، والبصـرة، والشـام، ومصـر»[2]، وهـذا الإقـرار والتشـخيص للواقـع اللغـوي قـال بـه أيضًـا ابـن خلـدون مـن بعـده، ومفـاده: اختـلاف لغـات أهـل الأمصـار عـن اللغـة العربيـة لذلـك العصـر، واختلافهـا عـن العربيـة الفصـحى الـتي سـماها (لسـان مضـر).

ويعـي الجاحـظ أنَّ اختـلاف البيئـات يكـون سـببًا في اختـلاف اللهجـات، يؤكـد ذلـك قولـه: «وقـد رأينـا اختـلاف صـور النـاس علـى قـدر اختـلاف طبائـع الأماكـن، وعلـى قـدر ذلـك شـاهدنا اختـلاف اللغـات، والأخـلاق، والشـهوات»[3]، ويقـول: «ومـن دخـل أوائـل خراسـان وأواخرهـا، وأوائـل الجبـال، وفـارس وأواخرهـا، علـم أنَّ اللغـات قـد تختلـف لاختـلاف طبائـع

(١) د. عبد الرحمن الحاج صالح: النحو العربي والبنوية، هامش ص ٢٠٥.
(٢) الجاحظ: مناقب الترك، ص ١٨.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ٣/ ٢٩٤.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

البلدان والأصل واحد»[١]، ويقول أيضًا مؤكدًا اختلاف اللغة لاختلاف المكان: «ولأهل المدينة ألسن ذلقة، وألفاظ حسنة، وعبارة جيدة، واللحن في عوامهم فاشٍ، وعلى أنَّ من لم ينظر في النحو منهم غالب»[٢].

ومن هذا النص يتضح لنا بعض الأمور المهمة، أوَّلها: تأكيده اختلاف اللغات باختلاف الأماكن، وثانيها: أنَّ اللحن في المدينة كان فاشيًا على ألسنة أغلب أهلها، وهذا يذكرنا بما قاله ابن خلدون وهو أن الفتوحات الإسلامية كانت سببًا في احتكاك العرب بغيرهم من الأمم، وكان نتيجة ذلك فساد لغتهم. وبالرغم من أنَّ الجاحظ يفرق بين لهجات العرب تبعًا لاختلاف أماكنها وبيئاتها، لكنَّه يقرر أنَّ هذه الفروق ليست كالفروق بين عربية عدنان وعربية حمير، فيقول: «وزعمت أنَّ هؤلاء، وإن اختلفوا في بعض اللغة، وفارق بعضهم بعضًا في بعض الصور، فقد تحالفت عليا تميم وسُفلى قيس، وعجز هوازن وفصحاء الحجاز في اللغة، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير وسكان مخاليف اليمن، وكذلك في الصورة والشمائل والأخلاق، وكلُّهم مع ذلك عربي خالص غير مشوب، ولا معلهج[٣]، ولا مُذرّع[٤]، ولا مُزلّج[٥]، ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان، من قبل ما طبع الله عليه تلك البرية من خصائص الغرائز»[٦].

يؤكد الجاحظ أن الاختلافات بين اللهجات العربية الشمالية مهما كانت فلن تصل إلى الاختلاف الحاصل بين عربية عدنان وعربية حمير؛ وهذا يكشف عن إدراك ووعي تام بالفرق بين عربية الشمال وعربية الجنوب. ومن هذا النص نلحظ أنَّه يذكر «فصحاء الحجاز» بمعنى إقراره أنَّ هناك فصحاء في هذه المنطقة، وربَّما يزداد فهمنا لهذا الجانب

(١) الجاحظ: مناقب الترك، ص ٧٢.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ١/ ١٤٦.
(٣) المعلهج: الهجين الذي ولد من أم غير عربية.
(٤) المذرع: من أب غير عربي.
(٥) المزلج: الدعي في القوم.
(٦) الجاحظ: مناقب الترك، ص ١٠.

في النصوص التالية. وما يهمنا من النصوص السابقة أيضًا إقراره بالفروق اللهجية بين لهجات العرب في عصره، يقول الجاحظ: «إنَّك إذا كنت صاحب فراسة فمر بك رجال بعضهم كوفي، وبعضهم بصري وبعضهم مدني، وبعضهم شامي، وبعضهم يماني، لم يخف عليك أمورهم في الصور، والشمائل، والقدود، والنغم، أيهم بصري، وأيهم كوفي، وأيهم شامي، وأيهم يماني، وأيهم مدني»[1].

يقرر الجاحظ أنَّ لغة البدو في عصره كانت محتفظة بالإعراب، وقد استناد في ذلك إلى سماعه، ودونه في مؤلفاته، إضافة إلى أنه سجل لنا صورًا من اللهجات الجديدة في عصره، وسجل لنا أنواعًا من اللحن، ومن ذلك قوله: «وقال مسلمة بن عبد الملك: إنَّ الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها، فإذا لحن انصرفت نفسي عنه. وتقدم رجل إلى زياد فقال: أصلح الله الأمير، إنَّ أبينا هلك، وإنَّ أخونا غصبنا ميراثه، فقال زياد: الذي ضيعت من لسانك أكثر مما ضيعت من مالك»[2]. ويروي لنا الجاحظ في باب اللحن- الذي عقده في الجزء الثاني من كتابه البيان والتبيين- عددًا من صور اللحن الذي حدث في عصره، وقبيل عصره، ومن ذلك قوله: «أوفد زياد عبيد الله بن زياد إلى معاوية، فكتب إليه معاوية: «إنَّ ابنك كما وصفت، ولكن قوّم لسانه». وكانت في عبيد الله لكنة؛ لأنَّه كان نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة»[3]. ويبينّ الجاحظ في النص أنَّ سبب اللكنة هو المجتمع الذي نشأ فيه، والخواص الصوتية التي اعتاد عليها جهازه الصوتي، والأساورة الذين نشأ بينهم، وهم قوم من العجم نزلوا البصرة قديمًا.

ويروى أيضًا أنَّه: «قال: وكتب الحصين بن أبي الحر إلى عمر كتابًا، فلحن في حرف منه، فكتب إليه عمر: أن قنِّع كاتبك سوطًا»[4]، ويقول: «قالوا: وأوَّل لحن سمع بالبادية: هذه عصاتي، وأوَّل لحن سمع بالعراق حَيِ على الفلاح»[5].

(١) الجاحظ: الحيوان، ٣/ ٢١١.
(٢) الجاحظ: صناعة القواد، ص ٣٨٠.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ٢/ ٢١٠.
(٤) السابق، ٢/ ٢١٧.
(٥) السابق، ٢/ ٢١٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

إنَّ الواقع اللغوي في عصر الجاحظ كما سجله، يؤكد أنَّ تغيرات لغوية كبيرة حدثت، وقد سرد شواهد وصورًا من اللحن تعزز ذلك، وأن اللحن تفشى في بيئات عديدة كالمدينة كما ذكر الجاحظ،، ومن أكثر الأبواب دلالةً على ذلك البابُ الذي كتبه الجاحظ بعنوان: باب ومن اللحانين البلغاء، ذكر منهم خالد بن عبد الله القسري، وخالد بن صفوان الأهتمي، وعيسى بن المدور، ويروى الجاحظ في ذلك: «وقال بعض النساك: أعربنا في كلامنا فما نلحن، ولحنا في أعمالنا فما نعرب» [1].

ولم يفت الجاحظ تسجيل الفروق اللغوية بين أهل البادية وأهل الحضر، بل نص عليها بقوله: «ونقول: إنَّ الفرق بين المولد والأعرابي: أنَّ المولد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو، فإذا أمعن انحلت قوته، واضطرب كلامه»[2]، ويقول أيضًا: «فإن قلت: إنَّ المولد لا يؤمن عليه الخطأ، إذ كان دخيلًا في ذلك الأمر، وليس كالأعرابي الذي إنَّما يحكي الموجود الظاهر له، الذي عليه نشأ، وبمعرفته غذي»[3].

من هذا كلِّه يتضح أنَّ الجاحظ يفرق بين من نشأ بين أهل البادية وتربى فيهم، لا يخطئ، بخلاف الذي نشأ في الحضر وتربى مع العرب الذين لا تستقيم لغتهم، والوافد عليهم من غير العرب. وقد ذكر الجاحظ قصصًا ونماذج كثيرة توضح الفروق اللغوية بين أهل البادية وأهل الحضر في عصره[4].

ونتقابل أثناء وصف الواقع اللغوي الذي رآه الجاحظ وعاشه مع نمطين لغويين: أحدهما: «لغة الأعراب»، ويصفها بأنَّها «لغة أصحاب التقعير، والتشديق، والتمطيط»، ومتكلموها هم فئة مكونة من الأعراب والعلماء، والنمط الآخر: « كلام المولدين البلديين»، ويقصد بها لغة العامة، يقول الجاحظ: «ومتى سمعت - حفظك الله -

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ٢ / ٢٢٠.
(٢) الجاحظ: الحيوان، ٣ / ١٣٢.
(٣) السابق، ٤/ ١٨٣.
(٤) انظر في ذلك الجاحظ البيان والتبيين، ١/ ١٤٦.

بنـادرة من كلام الأعـراب فإيـاك أن تحكيها إلَّا مع إعرابها، ومخـارج ألفاظها، فإنَّك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحَشوة والطَغام، فإيَّاك أن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظًا حسنًا، أو تجعل لها من فيك مخرجًا سريًّا، فإنَّ ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها، واستملاحهم لها»[1].

إنَّ هذا النص وباقي النصوص الأخرى، لتؤكد عددًا من الملاحظات، وهي:

أوَّلها: نهي الجاحظ عن مخاطبة العامة بكلام الخاصة، أو العكس.

ثانيها: يبدو من كلام الجاحظ أنَّ في عهده، استقر مستويان لغويان واجتماعيان أيضًا. وثالثها: أنَّ الأمر قد وصل إلى حد التمايز بين مستويات الاستعمال[2]، لغة البدو، وهي من النوع الفصيح الذي يتكلمه أهل البادية والعلماء، ولغة المولدين والبلديين، وهي لغة العوام. ورابعها: يبدو أنَّ البادية ظلت -كما سجل الجاحظ- محافظة على العربية القديمة (أي المعربة).

هذا هو الذي قرره الجاحظ في وصف الواقع اللغوي، ويتفق معه فيما قرره ابن خلدون، و ومن بعده عدد من المستشرقين، منهم فرستيخ، وبلاو، وقبلهم نولدكه وفِك. ففرستيخ يقرر أنَّ اللحن والخوف على القرآن الكريم كانا سبب ظهور النحو العربي، ويأخذ برأي العرب القدماء في أنَّ التغيرات الكبيرة التي حدثت في العربية جاءت إبَّان الفتوحات الإسلامية، وهذا أيضًا ما يؤكده بلاو.

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٤٦.
(٢) د. محمد عيد: المستوى اللغوي للفصحى واللهجات، ص٤٦.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ثالثًا: المؤرخون العرب القدماء والفصحى (ابن خلدون):

قدَّم لنا ابن خلدون تحليلًا لغويًّا للعربية (عربية مضر)، ويقصد بها الفصحى، وعربية أهل الجيل، ومراده بذلك العربية المستخدمة في زمانه، إضافة إلى تقديمه وصفًا لمفهوم الملكة اللغوية وغيرها من المفاهيم التي تؤكد وعيه وفهمه اللغوي. وكلُّ هذا مهم للحصول على رؤية ابن خلدون في تطور العربية، فشهادته مهمة - كما يؤكد ذلك فرستيخ - لتصوّر رؤيتهم لتاريخ لغتهم، ولفهم تطور الموقف اللغوي في العالم العربي قديمًا[1].

يشير ابن خلدون إلى أنَّ «اللغات كلَّها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنَّما هو إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال»[2].

ثم يؤكد أنَّ الإنسان يكتسب لغته من طفولته، من ترعرعه في بيئته، ومن سماع كلام المجتمع المحيط به؛ وهذا الاكتساب طبيعي يحصل عند الإنسان بصورة طبيعية، فيقول: «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفيَّة تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولًا، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كلِّ لحظة، ومن كلِّ متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكةً وصفةً راسخة، ويكون كأحدهم. هكذا تصيَّرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل، وتعلمها العجم والأطفال. وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أنَّ اللغة للعرب بالطبع، أي بالملكة الأُولى التي أخذت عنهم، ولم يأخذوها عن غيرهم»[3].

---

(1) Versteegh, K. 1997B: p. 155.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/ ٤٨٧.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/ ٤٨٧.

فالملكة اللغوية - حسب ابن خلدون- تحصل بممارسة كلام العرب، وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه، ولا تحصل بمعرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل صناعة اللسان[1]. ثم يتكلم عن العربية الفصحى (عربية مضر) ليقرر أنَّ ملكتها قد فسدت بمخالطتها الأعاجم، فيقول: «ثم إنَّه لمَّا فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أنَّ الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده، لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيَّات العرب أيضًا، فاختلط عليه الأمر، وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة، وكانت ناقصة عن الأوَلى، وهذا معنى فساد اللسان العربي»[2].

وكان ابن خلدون على وعي بالتغيرات التي أدت إلى تغيرات في بعض القواعد، يؤكد ذلك قوله: «ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلَّا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة، ومهيعًا معروفًا، وهو الإعراب، وهو بعض من أحكام اللسان»[3]. ثم يذكر سبب الاهتمام بلسان مضر (العربية الفصحى)، فيقول: «وإنَّما وقعت العناية بلسان مضر لمَّا فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق، والشام، ومصر، والمغرب، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أوَّلًا، فانقلب لغة أخرى. وكان القرآن منزَّلًا به، والحديث النبوي منقولًا بلغته، وهما أصلا الدين والملة، فخُشي تناسيهما، وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي نُزِّلا به، فاحتيج إلى تدوين أحكامه، ووضع مقاييسه، واستنباط قوانينه، وصار علمًا ذا فصول، وأبواب، ومقدمات، ومسائل سمَّاه أهله بعلم النحو وصناعة العربية ...»[4].

(١) انظر دراستَي د. محمد عيد: الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، ص١٠٥- ١٠٦، ود. ميشال زكريا: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص٦٤- ٧٢.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون،١/ ٤٨٧.
(٣) السابق،١/ ٤٨٨-٤٨٩.
(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/ ٤٨٩.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مـن هنـا نـدرك أنَّ النظريـة الـتي تقـول: إنَّ العربيـة الفصـحى قـد بـدأت في التحـول مـع الفتوحـات الإسـلامية ؛ فقـد ظهـر اللحـن بأشـكاله، وفسـد لسـان مضـر- وفقًـا لابـن خلـدون-. تعـود في أصلهـا إلى العـرب القدمـاء، وتمسَّـك بهـا بـلاو حينمـا قـرر عـدم وجـود ازدواجيـة لغويـة عنـد العـرب، وأن تاريخهـا يبـدأ بالفتوحـات الإسـلامية الكـبرى، وهـو مـا قـرر فرسـتيخ أيضًـا، وأكـد أنَّ اللحـن كان سـببًا في نشـأة النحـو العـربي. ونـدرك أيضًـا إقـرار ابـن خلـدون للتغـيرات اللغويـة الـتي حدثـت في العربيـة، فقـد «صـارت ملكتـه على غـير الصـورة الـتي كانـت بلغتـه»، ثـم يقـرر ابـن خلـدون شـيئًا مهمًّـا في الفصـل الـذي سـماه «فصـل في أنَّ لغـة العـرب لهـذا العهـد لغـة مسـتقلة مغايـرة للغـة مضـر وحمـير»[1]، أسـباب هـذا الاسـتقلال، وهـذا التغاير فيقـول: «وذلـك أنَّـا نجدهـا في بيـان المقاصـد والوفـاء بالدلالـة على سـنن اللسـان المضـري، ولـم يفقـد منهـا إلَّا دلالـة الحـركات على تعـيُّن الفاعـل مـن المفعـول؛ فاعتاضـوا منهـا بالتقديـم والتأخـير وبقرائـن تـدل على خصوصيـات المقاصـد»[2].

وعـي وإدراك مـن ابـن خلـدون في التفريـق بـين لغـة مضر(الفصـحى)، ولغـة أهـل الجيـل عربيـة عصـره، أو حسـب تعبـيره أيضًـا: «لغـة العـرب لهـذا العهـد»، وقـد أدرك التغـيرات اللغويـة الـتي حدثـت لعربيـة عصـره نتيجـة عوامـل متعـددة، تاريخيـة، واجتماعيـة. ويصـف الواقـع اللغـوي في عهـده، بقولـه: «اعلـم أنَّ ملكـة اللسـان المضـري لهـذا العهـد قـد ذهبـت وفسـدت، ولغـة أهـل الجيـل كلِّهـم مغايـرة للغـة مضـر، الـتي نـزل بهـا القـرآن، وإنَّمـا هـي لغـة أخـرى مـن امـتزاج العجمـة بهـا»[3].

فهنـا إقـرار بتحـول العربيـة الفصـحى (عربيـة مضـر) إذ تغـيرت في عهـده، وهـذا التغـير -حسـب زعمـه- ناجـم عـن اختـلاط العـرب بالعجـم. ويصـف ابـن خلـدون مـا يتكلـم عنـه الوصـف الدقيـق؛ ومـن ثـم يقـدم التفاسـير، مـوردًا الأسـباب والتعليـلات[4]؛ ولذلـك يـرى أنَّ

(١) السابق،١/ ٤٨٨.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون،١/ ٤٨٨.
(٣) السابق،١/ ٤٩١.
(٤) د. ميشال زكريا: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص٨٧.

سبب فساد ملكة اللسان المضري هو الاختلاط، الذي يراه عاملًا أساسيًّا في تطور اللغة عبر مسارها التاريخي. أمَّا العزلة فهي من العوامل التي تصون اللغة، وتحافظ على نقائها الأوَّل، يقول ابن خلدون: «ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف، وهذيل، وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وبني أسد، وبني تميم»[1]، في حين يأتي الاختلاط إلى اللغة ببعض التغيرات، يقول: «وأمَّا من بعد عنهم من ربيعة، ولخم، وجذام، وغسان، وإياد، وقضاعة، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس، والروم، والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة لمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية»[2].

ويقرر أنَّه بقدر كثرة الاختلاط ينجم تبدل في قوانين اللغة، على شكل يجعلها كأنَّها أصبحت مخالفة لما كانت عليه، فيقول: «واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار فأوَّل ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار، وتجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي»[3].

ويصف الواقع اللغوي العربي الذي رآه وعاشه فيقول: « فكانت تحيل العرب بأنفسهم لغةً خالفت لغة سلفهم من مضر، في الإعراب جملة، وفي كثير من الموضوعات اللّغويّة وبناء الكلمات. وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف، وخالفت أيضًا لغة الجيل من العرب لهذا العهد. واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره، وتخالفهما أيضًا لغة أهل الأندلس وأمصاره»[4].

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون،١/ ٤٨٧.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/ ٤٨٧- ٤٨٨.
(٣) السابق،١/ ٤٩٥.
(٤) السابق،١/ ٥١٠.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

فقد لاحظ ابن خلدون التغيرات التي حدثت في أصوات عربية عصره التي خالفت العربية الأقدم، كما أنَّه يرى أنَّ لغات الأمصار مختلفة أيضًا، ويقصد بها لهجات البلاد التي فتحها العرب، فيقول: «اعلم أنَّ عُرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى، قائمة بنفسها، بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد. فأمَّا أنَّها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر، يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحنًا، وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما»[1].

وهو هنا يقرر أنَّ التخاطب في الأمصار ليس بلغة مضر(الفصحى القديمة)، ولا عربية العصر، يضاف إلى ذلك أنَّ استخدامه لكلمة «عرف» ليس بالمصادفة، إنَّما لكونه عالمًا اجتماعيًّا؛ فهو يعد اللغة ظاهرة اجتماعية ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من أنواع السلوك الاجتماعي[2]، كما أنَّ استعمال اللغة يتلاءم مع العرف اللغوي القائم في البيئة، ففي كلِّ مجتمع تتكون مجموعة من الأعراف الاجتماعية التي يلتزم بها أفراد المجتمع وتتحكم فيهم، فيتوافق سلوكهم مع الأعراف الاجتماعية السائدة في هذا المجتمع. ويقرر أيضًا أنَّ لغة التخاطب -أو اللغة المحكية في الأمصار- لغة قائمة بذاتها.

وكان التحليل الذي قدمه ابن خلدون قد لفت انتباه المستشرق فرستيخ، فخصص فصلًا من كتابه «الأعراف اللغوية العربية»[3] لتوضيح آراء ابن خلدون هذه؛ ولذا جاءت رؤاه لتاريخ العربية مستمدة في بعض أركانها من ابن خلدون. فضلًا عن أنه ينطلق في تصوره للفصحى من تحليلات العرب القدامى، فهو في بحثه عن ابن خلدون وتاريخ العربية يشيد بتصور ابن خلدون، ويتخذ من آرائه حجة وأساسًا في بناء تصوره عن

(١) السابق،١/ ٤٩٠.
(٢) د. ميشال زكريا: الملكة اللسانية، ص٩٠.
(٣) هذا الفصل هو رقم ١٢ من كتاب فرستيخ، وهو بعنوان: ابن خلدون وتاريخ العربية.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تاريـخ العربيـة؛ فهـو يـرى أنَّ الفصـحى كانـت اللغـة الأم للعـرب حـتى الفتوحـات الإسـلامية. وهـذا يتطابـق مـع مـا ذكـره ابـن خلـدون وغيـره مـن العلمـاء العـرب، ونجـده كذلـك عنـد بـلاو.

إنَّ آراء المستشـرقين بـلاو وفرسـتيخ وكذلـك فِـك، ورينـان، ونولدكـه، تلتقـي مـع العلمـاء العـرب القـدامى في عـدد كبـير مـن النقـاط المتصلـة بتصوّرهـم للفصـحى وتاريـخ العربيـة، وإن كان لـكل منهمـا أدلتـه في هـذه القضيـة، لكنَّهمـا متفقـان علـى وجـود العربيـة الفصـحى المتسـمة بالنمـط القديـم، أي المعربـة الـتي كانـت لغـة العـرب المحكيـة والفنيـة في الجاهليـة، وصـدر الإسـلام، ثـم جـاءت الفتوحـات فتغـيرت العربيـة تبعًـا للتغـيرات الثقافيـة، بالمفهـوم الأنثروبولـوجي للثقافـة. فقـد رحـل العـرب إلى أماكـن جديـدة جغرافيًـا، وثقافيًـا، وعرفـوا أشـياء لـم تكـن لهـم، واحتكُّـوا بثقافـات جديـدة، وكان لهـذا أثـر في بـزوغ نمـط لغـوي عـربي جديـد يتسـم بسـمات مختلفـة عـن النمـط القديـم صوتًـا، وصرفًـا، وتركيبًـا، ودلالـة.

الخاتمة

العربية الفصحى
ومقارباتها الاستشراقية

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اتضح لنا من عرض تصورات المستشرقين للعربية الفصحى أنها ليست متفقة، بل تحمل عددًا من الاتجاهات والمواقف، بيانها كالآتي:

١. اتجاه يرى أنَّها لهجة لقبيلة عربية، يرى بعض المستشرقين أنَّها قبيلة قريش، ومنهم من يراها قبائل نجد، ومنهم من يراها كندة، ومنهم من يراها قبيلة من وسط شرق شبه الجزيرة العربية، ومنهم من يراها قبيلة ما من غيرأن يحدد اسمها.

٢. اتجاه يزعم أنَّها مستوى أدبي.

٣. اتجاه يراها لغة صنعها النحويون العرب، وبعضهم يراها تقاليد شعرية شفوية، جرى الاهتمام بها بعدما نزل القرآن بها، وقُعّد لها فيما بعد.

٤. اتجاه يراها العربية القديمة.

٥. اتجاه متشكك، وينقسم هذا الاتجاه إلى أكثرمن قسم، فبعضهم يشكك في رواية اللغة، وآخرون يشككون في النظرية الإسلامية للعربية الفصحى.

وفي عرضنا لتصور المستشرقين يوشع بلاو، وكيس فرستيج وجدنا الآتي:

- يكاد يكون تصورا بلاو، وفرستيخ متماثلين، وإن اختلفا في تقديم الحجج، ويعد هذا التصور امتدادًا لتصور مستشرقين سابقين، منهم على سبيل المثال: رينان، ونولدكه، وفِك، وفيشر، وأكثرهم حداثة بلاو، وفرستيخ.

خلص تصور بلاو إلى الآتي:

- أنَّ خلو القرآن الكريم من خصائص العربية المولدة، أو الغياب الكامل لملامح النمط العربي المولد يكشف عن وضع لغوي لا يمكن أن تكون فيه فوارق كبيرة بين اللغة الأدبية واللغة المحكية، فلو لم تكن عامية مكة قبل الإسلام تتصل بالبنية اللغوية القديمة لعثرنا في القرآن على حالات كثيرة من الانحرافات عن العربية النموذجية. ويرفض بلاو زعم فولرز القائل إنَّ القرآن قد خضع للتغيير من أجل أن ينسجم مع

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

العربيـة النموذجيـة أو عربيـة الشـعر، ويعلـل بـلاو رفضـه بقولـه: إنَّ نـص القـرآن الكريـم أصبـح ذا منزلـة مقدسـة جـدًّا منـذ وقـت مبكـر جـدًّا؛ وهـذا يتبـيَّن ممَّـا حـدث حـين احتيـج إلى إضافـة رمـز للهمـزة بـدلًا مـن تغيـير النـص المقـدس، ويضيـف سـببًا آخـر وهـو المحافظـة علـى بعـض حـالات الشـذوذ عـن العربيـة النموذجيـة المألوفـة فيـه.

- أنَّ انعـزال العـرب في الجاهليـة عـن التأثـيرات الخارجيـة كان سـببًا مهمًّـا في المحافظـة علـى البنيـة اللغويـة للعربيـة القديمـة، وأيضًـا لـم يكـن في حياتهـم انقـلاب مؤثـر قـادر علـى إحـداث تغيـير جـذري وسـريع في حياتهـم، فقـد كان العـرب يعيشـون في أعـداد قليلـة متفرقـة داخـل مسـاحات كبـيرة في شـبه الجزيـرة العربيـة، وكانـوا يتحدثـون عـدة لهجـات.

- أنَّ العـرب صاغـوا لغـة شـعرية يشـار إليهـا باللغـة العربيـة الفصـحى، ويقـول: إنَّـه لا يهتـم بمـا إذا كانـت اللغـة الفصـحى ظهـرت باعتبارهـا لغـة إحـدى القبائـل، وإنَّمـا يكتفـي بـأن تكـون هـذه اللغـة حـتى القـرن السـادس الميـلادي بمثابـة لغـة قبليـة راقيـة، تسـتوعب مفـردات لغويـة، وسـمات صوتيـة، وصرفيـة، وتركيبيـة، لعـدة لهجـات قبليـة.

- أنَّ الواقـع اللغـوي العـربي في الجاهليـة لـم يعـرف ازدواجيـة لغويـة، وأن الازدواجيـة اللغويـة لـم تحـدث في العالـم العـربي إلا بعـد الفتوحـات الإسـلامية، ويؤكـد ذلـك مـن لغـة القـرآن نفسـها، فنـص القـرآن لـم يتعـرَّض للتغيـير أو التنقيـح اللغـوي، ومـن ثـمَّ فإنَّـه يكشـف عـن بعـض الخصائـص الـتي تتصـف بهـا مكـة، مثـل: تقصـير الكسـرة الطويلـة في نهايـة الكلمـة. ويـرى أنَّ مـن المسـلم بـه أنَّ الشـعراء الجاهليـين وكذلـك النـبي محمـد -صلـى الله عليـه وسـلم- كانـوا يتكلمـون لهجـات تنتمـي إلى النمـط اللغـوي المميـز للعربيـة القديمـة، وأنَّ هـذه اللهجـات لا تختلـف اختلافًـا كبـيرًا عـن اللغـة الأدبيـة الـتي كانـوا يسـتعملونها. ويـرى أنَّ الازدواجيـة اللغويـة نشـأت نتيجـة الفتوحـات العربيـة الكـبرى، وقـد بـدأ التغـير الحاسـم مـع الفتوحـات في القـرن الأوَّل الهجري/السـابع الميـلادي، وقـد مثَّلـت الأوضـاع الاجتماعيـة -ومـن بينهـا التواصـل الوثيـق للأمـم المغلوبة-أحـد الأسـباب الخارجيـة الـتي أدَّت إلى نشـأة النمـط اللغـوي العـربي المولَّـد، أمَّـا

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الأسباب الداخلية -حسب زعمه- فقد مهَّدت للبنية اللغوية العربية المولدة، ومن هذه الأسباب كانت صيغ الوقف التي كانت موجودة من قبل الفتوحات، إضافة إلى بعض الخصائص الأخرى، ومنها: تسهيل الهمز وحذفه.

- أنَّ سمة الإعراب في العربية القديمة سمة سامية قديمة احتفظ بها العرب لانعزالهم، ويرفض زعم كورينتي القائل: إنَّ الإعراب في العربية ليس له حمل وظيفي. ويؤكد بلاو أنَّ زيادة الإعراب مظهر مميز لأنظمة الإعراب في عدد من اللغات العالمية، ففي الروسية علامات للإعراب يمكن أن توصف بالزيادة، وأنَّ نظام الإعراب في اللغة العربية ليس قليل الأهمية كما يبدو من الادعاءات التي زعمها كورينتي.

خلص تصور فرستيج إلى الآتي:

- التأكيد على تصوره للعربية الفصحى استنادًا إلى تصور ابن خلدون لتاريخ العربية؛ فهو يوافق على رؤية ابن خلدون، ويراها شهادة مهمة لرؤية العرب أنفسهم لتاريخ لغتهم. وابن خلدون يرى أنَّ اللغة الفصحى للبدو ظلت راسخة حتى حدث احتكاك بين العرب والأمم الأخرى أثناء الفتوحات، وتحولت العربية بعد ذلك إلى لغة جديدة. ويخلص فرستيج من شهادة ابن خلدون إلى بعض النتائج، منها: أنَّ أي تطور في العربية في اللغة القديمة إلى العربية المولدة، ربَّما كان تدريجيًّا، يضاف إلى ذلك أأنَّه حدَّد القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كتاريخ يؤكد فيه أنَّه لم يكن يوجد في هذا التاريخ فرد يتكلَّم العربية الفصحى كلغة أم، وأنَّ اللغة الأم لكلِّ المتكلمين أصبحت اللهجات العامية المماثلة للهجات العربية الحديثة.

- أنَّ الفصحى لها وجود حقيقي، ويتكلَّم عن الواقع اللغوي في الجاهلية، زاعمًا أنَّ اللهجات العربية القديمة كانت مختلفة في الجانب الصوتي، وهناك اختلافات لهجيَّة على مستويات لغوية بنيوية أعلى، لكنَّها ليست متباعدة تباعدًا شديدًا، ويرى وجود لغة عربية واحدة قبل فترة الفتوحات، ويؤكد ذلك من شهادة

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

النحويين العرب. ففي تصوره أنَّنا لو أخذنا كتاباتهم بجدية لوجب أن نحترم، ونقبل صدق ما نسبوه إلى البدو، فقد استخدم النحويون مصطلح البدو ليس للإشارة إلى رواتهم في المدن فحسب؛ وإنَّما للإشارة إلى القبائل المتنقلة التي ينطق أفرادها اللغة النقية.

- يوافق فرستيج على الرأي القائل إنَّ البدو استمروا يستخدمون الإعراب لقرون قليلة بعد الفتح، ثم انتهى هذا الاستخدام بسبب تأثير حضارة المقيمين التي لم تغير لغتهم فحسب، وإنَّما غيرت أسلوب حياتهم كليَّة.

- يرى أنَّ لغة الشعر الجاهلي هي تسجيل لتنوع العربية القديمة التي أصبحت لغة القرآن الكريم أيضًا، ويؤكد أنَّ الاختلافات بين اللغة المستعملة في الشعر والقرآن الكريم ليست جوهرية، وينتهي إلى القول إنَّ اللغة العربية الشعرية القرآنية ولغة الحياة اليومية آنذاك قد شكّلا معًا أساس اللغة العربية القديمة.

- يرفض مزاعم وانسبرو التي يتهم فيها النحاة بصنع هذه القواعد في زمن متأخر (في القرن الثالث الهجري). فحسب فرستيج اعتمد النحويون العرب على مادة لغوية كانت لغة البدو، ولغة القصائد الشعرية والقرآن.

وخلصت في الفصل الذي أفردته لتحليل رؤى المستشرقين للعربية الفصحى إلى الآتي:

- يثق كلٌّ من بلاو وفرستيج بالتحليل النحوي القديم، ولا يتشككان في لغة القرآن، بل يعتمدان عليها في التأسيس والبرهنة على رؤيتهما الزاعمة بوجود ظاهرة الإعراب في العربية القديمة، وفي التأكيد على أنَّ العربية الفصحى أو القديمة -حسب استعمالهما أحيانًا- لم تكن مصنوعة من العلماء العرب القدامى.

- اعتماد فرستيج في رؤيته لتاريخ اللغة العربية على العلماء العرب القدامى -فحسب فرستيج- قام العرب بتهذيب العربية، وقعَّدوا لها في زمن مبكر، مضيفًا أنه يثق بكتابات هؤلاء العلماء القدامى، ويتخذ من أقوالهم أسسًا لتصوراته لتاريخ العربية، وهذا مفتقدٌ عند أكثر المستشرقين.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- تحليـل كلٍّ مـن بـلاو وفرسـتيج لظاهـرة الإعـراب في العربيـة موافـق لمـا جـاء في الـتراث العـربي مـن روايـات تؤكـد أنَّ الإعـراب ظاهـرة موجـودة في الـكلام اليـومي للعـرب في الجاهليـة، وصـدر الإسـلام، عنـد البـدو خاصـة. وفي هـذا رفـضٌ لمقـولات إشـبرنجر وغيـره مـن الزاعمـين أنَّ الإعـراب سـمة غـير واقعيـة في العربيـة، بـل هـي ظاهـرة ا اخترعهـا النحـاة العـرب.

- كان تصـور كلٍّ مـن المستشـرقين بـلاو وفرسـتيج (وهمـا امتـداد لنولدكـه، وقبلـه رينـان، وبعـده فـوك، وفيشـر) لتاريـخ العربيـة أكـثر واقعيـة وموضوعيـة - مـن وجهـة نظرنـا - وهـذا يتضـح في نقـاط عـدة، منهـا:

١. عـدم رفـض أفـكار العلمـاء العـرب القـدامى، وعـدم الشـك في المصـادر العربيـة القديمـة، كمـا فعـل كثـير مـن المستشـرقين الذيـن جعلـوا العـرب القدمـاء ملفقـين وكذابـين، مدعـين ذلـك دون وجـه حـق.

٢. اعتمـاد بـلاو وفرسـتيج في تحليلهمـا للظواهـر اللغويـة في تاريـخ العربيـة علـى مـا اسـتجد في الدراسـات السـامية، ورؤيـة بـلاو في ظاهـرة الإعـراب تؤكـد ذلـك.

وخلصـت إلى أنَّـه ليـس مـن المعقـول أن نطبـق نظريـة كالنظريـة الـتي حـاول تطبيقهـا زويتلـر علـى الشـعر العـربي، لكونهـا طبقـت علـى صيـغ شـعرية في سـياق ثقـافي مختلـف -سـواء أكان الشـعر الملحـمي لهوميـروس أم الشـعر اليوغسـلافي الشـعبي-. وأظـن أنَّ عقبـات جمـة تقـف أمـام نتـائج هـذا التصـور، ومنهـا: أنَّ هـذه النظريـة البعيـدة عـن مجـال تاريـخ العربيـة تزعـم مزاعـم، وتفـرض فرضيـات أقـل مـا توصـف بـه أنَّهـا واهيـة تمامًـا. وقـد عرضنـا رؤيـة المستشـرق شـولر، وتأكيـده أنَّ هـذه النظريـة في تطبيقاتهـا علـى الشـعر العـربي خاطئـة تمامًـا.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- لاحظت دقة تحليل كلٍّ من بلاو وفرستيج في نقدهما لتصور وانسبرو، القائم على رفضه تصورات العلماء المسلمين القدامى، وأنَّ الإعراب غير مثبت في العربية وغير مبرر. ويصف تصور المستشرق الألماني يوهان فوك بالاعتباطية، ومفاد هذا التصور أنَّ الإعراب كان سمة من سمات العربية القديمة، ويستدل على ذلك بترتيب الكلمات في الآيات القرآنية، ويزعم وانسبرج أنَّ الإعراب ظاهرة آتية من البروسودي / العروض الخاص بالشعر في اللغة العربية، ومنها فواصل القرآن، ووجود القوافي، وظواهر بديعية أخرى، يراها تسهم في وجود إيقاع. ويرى وانسبرو هذه الظواهر مشاركة في البروسودي العربي الذي يرى أنَّ الإعراب في العربية آتٍ منه. وتصور وانسبرو يحمل في طياته عيوبًا كثيرة، من أبرزها ما وجهه بلاو من نقد إليه، ويؤكد فيه أنَّ القرآن قد نزل بعربية قديمة معربة، وأصبح مقدسًا منذ وقت مبكر جدًّا، فقد تطاول وانسبرو على النص القرآني، مؤيدًا وجهة نظر فولرز الزاعمة أنَّ القرآن نزل بعامية مكة غير المعربة، ثم كتب بالفصحى فيما بعد، ويرد بلاو بقوله: «لو كان النص القرآني قد عُدِّل وفقًا لقواعد اللغة العربية الفصحى في نهاية القرن الثامن الميلادي لطابق كلُّه قواعد الفصحى، فكما نعرف هذا لم يكن الحال»[(1)]، ففي رأي بلاو أنَّ أي زعم مفاده وجود تعديل على النص القرآني مرفوض.

وكان رأي بلاو مقنعًا - من وجهة نظري- في رده على الشك في الإعراب الذي تبناه وانسبرو، حيث يقرر بلاو أنَّ الملامح القديمة للعربية الفصحى، في أصواتها، وكجزء من بنيتها الصرفية، تنتمي إلى كلام منطقة منعزلة، فهي ملامح قديمة موجودة في صياغة اللغة الشعرية المشتركة في العصر الجاهلي التي هي -تقريبًا- منعكسة في القرآن.

- في تحليلنا لتصور كلٍّ من بلاو وفرستيج تبيَّن لنا سمات تصور كلٍّ منهما، وأعتقد أنَّ أكثر سماتهما هي تعمقهما في تاريخ العربية ومراحلها، وفي التاريخ الثقافي العربي، كذلك رأينا أنَّ هذه الرؤية التي تقاسمها كلٌّ من بلاو وفرستيج كان لها أساس عند مستشرقين سابقين درسوا العربية بالمنهج نفسه، وخلصوا إلى نتيجة -تقريبًا- هي

(1) Blau, J. 1982: p. 217.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

نفسها الموجودة عند بلاو وفرستيج، ومنهم الفرنسي رينان، والألماني نولدكه، والألماني فوك، والألماني فيشر؛ وإن كانت دراسات الأحدث أخذت طريقة متعمقة أكثر في تاريخ العربية ومراحلها، وكذلك جاءت بحوثه أكثر قيمة لما لمصادره وأدلته القيمة نفسها، الآتية من الاكتشافات المتصلة بتاريخ اللغات السامية، ووعي تام بتحليلات المستشرقين، ووعي بالظواهر اللغوية في اللغات؛ وهذا واضح في رد بلاو على المستشرق الإسباني كورينتي في زعمه أنَّ الحمل الوظيفي لعلامات الإعراب قليل في العربية، فردَّ بلاو بقوله: إنَّ لغات كثيرة -ومنها الروسية وغيرها- يأتي الإعراب فيها زائدًا.

- كان الفصل الخاص بالنظريات التشكيكية (أي القائمة على الشك)، وأثرها في تناول العربية الفصحى، قد اتضح فيه أنَّ الشك جاء في لغة القرآن، وفي الرواة، والشك في الشعر الجاهلي. ويتبع ذلك مباشرة الشك في تحليل العرب القدماء، ورواياتهم وأشعارهم، بل في كلّ التراث العربي الإسلامي. فهذه الرؤى التشكيكية ابتعدت في كثير من جوانبها عن الموضوعية، وأنَّ كثيرًا منها ظهر وهنه، وضعفه، من تحليلات استشراقية أخرى، أكثر عمقًا وموضوعية.

أما الفصل الذي خصصته لتحليلات العلماء العرب القدماء للعربية الفصحى فكان الهدف منه اختبار تصور المستشرقين بلاو وفرستيج في ضوء رؤى العلماء العرب للغتهم الفصحى، فضلًا عن أنه يحاول الإجابة عن تساؤلات المحدثين حول مصداقية العلماء العرب، ووصفهم الواقع اللغوي الذي عايشوه.

وخلصنا من كتابات اللغويين العرب القدماء إلى مجموعة من النتائج، منها:

- لاحظت أنَّ سيبويه يشير إلى العرب كمصدر لرواته، وأنَّه سمعهم، أو سمع من يوثق بعربيته، وفي هذا حرص على اختيار رواته؛ وهذا مصدق من التعبيرات التي استخدمها، فكلُّها تشير إلى الثقة والتوثيق اللغوي للعرب الذين سمعهم وأمدوه باللغة، أو سمعهم أحد من علماء دائرته العلمية، كالخليل، ويونس بن حبيب، وأبي عمرو بن العلاء، وغيرهم.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- يتضح تمامًا أنَّ سيبويه اعتمد على كلام العرب، وجعله مصدرًا مهمًّا له في وصف العربية الفصحى وتقعيدها؛ وهذا واضح في وصفه العربية: صوتًا، وصرفًا، وتركيبًا. وقد عرضنا في البحث أمثلة تؤكد ذلك، بل إنَّه يرفض بعض التراكيب اللغوية بحجة عدم وجودها في كلام العرب .
- لم تكن لدى سيبويه نية مسبقة قبل تأليف الكتاب أن يعتمد لهجة معينة في التقعيد للعربية.

وضعت وصف سيبويه لبعض الظواهر اللغوية كاختبار لمصداقيته، ووصلنا بعد التحليل إلى الآتي:

- من الأمثلة التي وصف فيها سيبويه بعض الظواهر اللغوية رأينا أنَّ هذه الظواهر موجودة في بعض اللهجات العربية، ممَّا يؤكد نزاهة وصف سيبويه، وكونه وصفًا لواقع لغوي حقيقي. ومن المؤكد أنَّ هذه الظواهر اللغوية الموجودة في اللهجات العربية الحديثة تعد امتدادًا لوجود قديم في اللهجات العربية القديمة، وهذا دليل على مصداقية سيبويه.

وأظهر وصف الجاحظ للواقع اللغوي الذي عاشه في نصف القرن الثاني الهجري، والنصف الأوَّل من القرن الثالث الهجري، النتائج الآتية:

- لغة البدو في عصره كانت محتفظة بالإعراب، وهذا ثابت بسماعه منهم.
- سجل لنا الجاحظ صورًا من اللهجات المولدة في عصره، وسجل لنا ألوانًا من اللحن، وألوانا من اللكنات في العصر العباسي نتيجة وجود كثير من الأجانب.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وخلصت رؤية ابن خلدون إلى الآتي:

- لسـان مضـر، وهـو العربيـة القديمـة ومنهـا الفصـحى، هـي الـتي يراهـا «لغـة مضـر الأولـين، ولعلَّهـا لغـة النـبي -صلـى الله عليـه وسـلم- بعينهـا، وقـد ادّعـى ذلـك فقهـاء أهـل البيـت، وزعمـوا أنَّ مـن قـرأ في أم القـرآن (اهدنـا الصـراط المسـتقيم) بغـير القـاف الـتي لهـذا الجيـل، فقـد لحـن وأفسـد صلاتـه».

فسـدت هـذه اللغـة باختـلاط العـرب بالأعاجـم، وحافظـت قريـش وعـدد مـن القبائـل علـى لغتهـا بالانعـزال والبعـد عـن الأعاجـم.

لغـة أهـل عصـره «لغـة مغايـرة للغـة مضـر الـتي نـزل بهـا القـرآن، وإنَّمـا هـي لغـة أخـرى مـن امـتزاج العجمـة بهـا»[1]، ويقـول أيضًـا: «لغـة العـرب لهـذا العهـد لغـة مسـتقلة مغايـرة للغـة مضـر وحمـير»[2]، وهـذا التغايـر رآه في فقـدان الإعـراب، والتصاريـف، والأصـوات، وضـرب مثـلًا لذلـك بصـوت القـاف الـذي اختلـف نطقـه عـن القـاف في العربيـة القديمـة / الفصـحى الـتي يسـميها بلسـان مضـر.

يـرى أنَّ» لغـة أهـل الحضـر والأمصـار لغـة قائمـة بنفسـها مخالفـة للغـة مضـر»[3]، فلهجـات كلِّ مصـر مـن هـذه الأمصـار الـتي فتحهـا العـرب تختلـف في كلِّ المسـتويات اللغويـة مـع العربيـة القديمة /الفصـحى (لسـان مضـر).

أدرك ابـن خلـدون دور الاختـلاط الاجتماعـي بـين العـرب وغيرهـم، وأثـره في ظهـور تغـيرات لغويـة لحقـت بالعربيـة، فضـلًا عـن وعيـه بـدور البيئـات الاجتماعيـة الجديـدة الـتي هاجـر إليهـا العـرب في تكويـن لغـات ذات سـمات لغويـة جديـدة.

(١) السابق،١/ ٤٩١.
(٢) السابق،١/ ٤٨٨.
(٣) السابق،١/ ٤٩٠.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وقـد وجـدت تقاربًـا بـين تصـور بـلاو وفرسـتيج، وكذلـك سـابقيهم في التصـور ذاتـه: رينـان، ونولدكـه، وفِـك، وفيشـر، ورؤى العلمـاء العـرب القـدامى، ومـن هنـا كان فرسـتيج على حق حينما استنكر تعامل بعض المستشرقين مع المصادر العربية الإسلامية، وتشكيكهم فيها. ورأينا بلاو يقرر أنَّ لغة القرآن لغة لم تتغير منذ نزولها، بل إنها أصبحت مقدسة منذ نزولها، وكانت لهجة مكة التي يتكلمها النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- من نوع العربية القديمة (المعربة). ويقرر بلاو وفرستيج أنَّ التحول اللغوي في اللغة المحكية عند العرب حدث في البداية بعد الفتوحات في المدن، أمَّا لغة البدو فقد ظلت قرونًا محافظة على الملامح اللغوية القديمة للغتهم.

- وأخيرًا، فإنَّه المادة العلمية التي عرضتها، وحللتها كان هدفي الأوَّل تقديم تحليل موضوعي لما كُتِبَ بأيادي مستشرقين/مستعربين، عن موضوع مهم، وهو العربية الفصحى، أمَّا الهدف الثاني فهو محاولة المشاركة في التحليل والمساهمة العلمية في مجال التأريخ للعربية وتنوعاتها، وأعدُّ ذلك فرض عين علمي وشرعي على الباحث العربي في هذا المجال. وقد اتضح من هذه المادة العلمية التي عرضت فيها رؤى المستشرقين للعربية الفصحى كثير من الأمور العلمية والأيدولوجية. ومن ثمَّ يتحتم علينا البحث بقوة وموضوعية في هذا المضمار الذي بات محصورًا داخل جنبات الجامعات الغربية.

المصادر والمراجع

العربية الفصحى
ومقارباتها الاستشراقية

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أولًا: العربية

- القرآن الكريم.
- د. إبراهيم، عبد الحميد ١٩٨٥: الإعراب ظاهرة جمالية. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٥٧.
- د. إستيتية، سمير ٢٠٠١: المشكلات اللغوية في الوظائف والمصطلح والازدواجية. دار القلم، الإمارات العربية.
- د. الأسد، ناصر الدين ١٩٥٦: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار المعارف بالقاهرة.
- ------ ١٩٧٨: شواهد على صحة الشعر الجاهلي. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء ٤١.
- إشبرنجر، أوجست ١٩٨٦: الرواية والرواة عند العرب. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ضمن كتاب: دراسات المستشرقين حول الشعر الجاهلي. دار العلم للملايين، بيروت.
- د. الأعظمي، محمد مصطفى ١٩٨٥: المستشرق شاخت والسنة النبوية. ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج١.
- ألفرت ١٩٨٦: ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي. ضمن كتاب: دراسات المستشرقين حول الشعر الجاهلي.
- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن: لمع الأدلة. تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٧.
- د. أنيس، إبراهيم ١٩٥٨: من أسرار اللغة، الأنجلو المصرية.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- ـــــــــ ١٩٥٩، ١٩٦٠: محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة. معهد البحوث والدراسات العربية.
- ـــــــــ ١٩٨٤: في اللهجات العربية. ط٦، الأنجلو المصرية.
- د. أيوب، عبد الرحمن ١٩٦٨: العربية ولهجاتها. معهد البحوث والدراسات العربية.
- د. بدوي، السعيد محمد ١٩٧٣: مستويات اللغة العربية المعاصرة في مصر. دار المعارف.
- ـــــــــ ٢٠٠٠: رأي في معاني الإعراب في فصحى التراث. ضمن كتاب Ibrahim, Z. M. and Others: Diversity in Language. The American University in Cairo Press.
- د. بدوي، عبد الرحمن (د.ت): دفاع عن القرآن ضد منتقديه. ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر.
- برجشتراسر ١٩٨٢: التطور النحوي في اللغة العربية. تصحيح د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- بروكلمان، كارل ١٩٧٧: فقه اللغات السامية. ترجمة د. رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض.
- ـــــــــ ١٩٩٣: تاريخ الأدب العربي، القسم ١، ٢، ترجمة د. عبد الحليم النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- برونيلش ١٩٨٦: في مسألة صحة الشعر الجاهلي. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ضمن كتاب: دراسات المستشرقين حول الشعر الجاهلي.
- د. بشر، كمال محمد (١٩٧١م): دراسات في علم اللغة، القسم الثاني. الطبعة الثانية، دار المعارف بالقاهرة.
- د. بعلبكي، رمزي٢٠١٢: هوية الفصحى. بحث منشور بمجلة تبيين للدراسات الثقافية والفكرية، العدد (١)، صيف٢٠١٢م.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- د. بكـر، محمـد صـلاح الديـن مصطفـى ١٩٨٤: نظـرة في قرينـة الإعـراب. الحوليـة الخامسـة، كليـة الآداب، جامعـة الكويـت.
- بلاشير، ريجيس ١٩٥٢: تاريخ الأدب العربي. ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق.
- بـلاو، ج ٢٠٠١: نشـأة الازدواجيـة اللغويـة العربيـة. ترجمـة د. حمـزة المزيـني، ضمـن كتـاب: دراسـات في تاريـخ اللغـة العربيـة. ترجمـة د. حمزة المزيـني، دار الفيصـل الثقافية.
- ------- ٢٠٠٥: العربيـة المولـدة المبكـرة في نصـوص العربيـة الوسـيطة. ترجمـة د. سـعيد بحـيري، ضمـن كتـاب: دراسـات في العربيـة. ترجمـة د. سـعيد بحـيري، مكتبـة الآداب، القاهـرة.
- د. البهنساوي، حسام ٢٠٠٤: العربية الفصحى ولهجاتها. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- بيناشـيتي، فابريزيـو ١٩٩٠: العـرب والآراميـون قبـل الإسـلام وبدايـة تكويـن اللغـة العربيـة. ترجمـة عمـاد أبـو سـعد، مجلـة الفكـر العـربي، العـدد ٦٠.
- د. التوني، مصطفى زكي ١٩٩٣: علل التغير اللغوي. الحولية ١٣، كلية الآداب، جامعة الكويت.
- الجاحـظ، أبـو عثمـان عمـرو بـن بحـر: البيـان والتبيـين. تحقيـق عبـد السـلام هـارون، دار الجيـل، بـيروت، د. ت.
- -------: الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٧.
- -------: صناعـة القـواد. ضمـن رسـائل الجاحـظ، تحقيـق عبـد السـلام هـارون، القاهـرة ١٩٧٩.
- -------: مناقـب الـترك. ضمـن رسـائل الجاحـظ، تحقيـق عبـد السـلام هـارون، القاهـرة ١٩٧٩.
- د. جبل، محمد حسن ٢٠٠٠: دفاع عن القرآن الكريم. مكتبة البربري للطباعة، مصر: طنطا.

- د. الجبوري، يحيى وهيب ١٩٩٧: المستشرقون والشعر الجاهلي. بين الشك والتوثيق، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط١.
- د. جدامي، عبد المنعم السيد أحمد ٢٠٠٤: رؤى المستشرقين للتفكير النحوي قبل سيبويه. مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ع ٤٤.
- د. الجرح، محمد سالم ١٩٧٥: التأريخ للعربية، أهميته ودراساته ومناهجه. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٣٥.
- د. جمال، عادل سليمان ١٩٨٧: الشعر الجاهلي في ضوء نظرية باري لورد. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٦١.
- ------ ١٩٩٦: عمر الشعر الجاهلي. مجلة فصول، مج ١٥، ع ٢.
- الجمحي، محمد بن سلام: طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢.
- د. الجندي، أحمد علم الدين ١٩٨٣: اللهجات العربية في التراث. القسم الأوَّل، الدار العربية للكتاب.
- ------ ١٩٧٤: في القرآن والعربية، الصراع بين القراء والنحاة. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٣٣.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص. تحقيق محمد على النجار، طبعة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦.
- د. جواد، عليّ ١٩٥٤: لهجة القرآن الكريم. مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٣.
- جولدزيهر، أجنتس ١٩٥٥: مذاهب التفسير الإسلامي. ترجمة د. عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- جويـن، روسـلند ١٩٨٩م: قيـاس القيـاس في كتـاب سـيبويه. بحـث منشـور بمجلـة Al–Arabya الـتي تنشـر بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ع ٢٢.
- جيرا، يوسف ١٩٢٩: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا. مطبعة الشباب بالقاهرة.
- د. الحـاج صالـح، عبـد الرحمـن ١٩٩٦: الجملـة في كتـاب سـيبويه. مجلـة مجمـع اللغـة العربيـة بالقاهـرة، ع ٧٨.
- ------ ١٩٩٩: النحو العربي والبنيوية. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨٥.
- ------ ٢٠٠٠: أصـول تصحيـح القـراءة عنـد مؤلفـي كتـب القـراءات وعلـوم القـرآن قبـل القـرن الرابـع الهجـري، مجلـة مجمـع اللغـة العربيـة بالقاهـرة، ع ٩٠.
- ------ ٢٠٠١: تعـال نُحي علـم الخليـل أو الجوانـب العلميـة المعاصـرة لـتراث الخليـل وسـيبويه. مجلـة مجمـع اللغـة العربيـة بالقاهـرة، ع ٩٢.
- د. حجازي، محمود فهمي ١٩٧٣: علم اللغة العربية. وكالة المطبوعات بالكويت.
- د. الحديثي، خديجة ١٩٨٠: دراسات في كتاب سيبويه. وكالة المطبوعات، الكويت.
- د. حسام الدين، كريم زكي ٢٠٠٢: العربية، تطور وتاريخ. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- د. حسـان، تمـام ١٩٨٢: الأصـول، دراسـة أبسـتمولوجية للفكـر اللغـوي عنـد العـرب. الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب.
- د. حسنين، فؤاد ١٩٧٣: اللغة العربية. مجلة مجمع البحوث والدراسات العربية، ع ٤.
- د. حسـين، طـه ١٩٩٦: في الشـعر الجاهلـي. تقديـم د. عبـد المنعـم تليمـة، دار النهـر، القاهـرة.
- د. حماسـة، محمـد حماسـة عبـد اللطيـف ١٩٧٦: حركـة القافيـة بـين الاطـراد الموسـيقي وسـلامة الإعـراب. مجلـة الثقافـة بالقاهـرة، ع ٣١.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- ـــــــــ ١٩٨٦: حركـة الـروي في القصيـدة العربيـة وقضيـة الفصـل بـين الشـعر والنـثر في التقعيـد النحـوي. مجلـة مجمـع اللغـة العربيـة بالقاهـرة، ع ٥٩.
- ـــــــــ ١٩٩٦: لغة الشعر، دراسة في الضرورة الشعرية. دار الشروق، القاهرة.
- ـــــــــ ٢٠٠١: العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث. دار غريب، القاهرة.
- د. حمد، عبد الله ١٩٩٦: في أصل اللهجات العربية الحديثة. مجلة اللسان العربي، ع ٤٢.
- د. الحمد، غانم قدوري ١٩٨٢: رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية. بغداد.
- د. حمودة، عبد الوهاب ١٩٤٨: القراءات واللهجات. ط ١، مكتبة النهضة المصرية.
- ابـن خلـدون، عبـد الرحمـن: تاريـخ ابـن خلـدون، كتـاب العـبر وديـوان المبتـدأ والخـبر في أيـام العـرب والعجـم والبربـر ومـن عاصرهـم مـن ذوي السـلطان الأكـبر، ج ١، سلسـلة الذخائـر، الهيئـة العامـة لقصـور الثقافـة، القاهـرة، ٢٠٠٧.
- الخـولي، أمـين ١٩٨٧: مـن هـدي القـرآن، مشـكلات حياتنـا اللغويـة. الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب.
- د. الخولي، محمد علي ١٩٨٢: معجم علم اللغة النظري. مكتبة لبنان: بيروت.
- دروم، إدوارد: اللغـة العربيـة الفصـحى ولغـة حمـورابي. مجلـة مجمـع اللغـة العربيـة بالقاهـرة، ع ١٢.
- رابـين، حاييـم ٢٠٠١: مـا قبـل العربيـة. ترجمـة د. حمـزة المزيـني، ضمـن كتـاب: دراسـات في تأريـخ اللغـة العربيـة.
- ـــــــــ ٢٠٠١: العربيـة. مقـال مترجـم ضمـن كتـاب: دراسـات في تأريـخ اللغـة العربيـة. ترجمـة د. حمـزة المزيـني، دار الفيصـل، الريـاض.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- ـــــــــ ٢٠٠٢: اللهجات العربية في غرب الجزيرة العربية. ترجمة د. عبد الكريم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- د. الراجحي، عبده ١٩٩٨: اللهجات العربية في القراءات القرآنية. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- ـــــــــ: فقه اللغة في الكتب العربية. مطبعة الزهراء، د. ت.
- الرافعي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب. ج ١، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- د. زكريا، ميشال ١٩٨٦: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون. المؤسسة الجامعية- بيروت، ط ١.
- الزجاجي، أبو القاسم: الإيضاح في علل النحو. تحقيق مازن المبارك، دار العروبة- القاهرة، ١٩٥٩.
- زويتلر، مايكل ٢٠٠١: العربية. ترجمة د. حمزة المزيني، ضمن كتاب: دراسات في تأريخ اللغة العربية. دار الفيصل، الرياض.
- د. السامرائي، إبراهيم ١٩٩٤: في اللهجات العربية القديمة. دار الحداثة، بيروت، ط١.
- د. سلوم، داود ١٩٨٦: دراسة اللهجات العربية القديمة. عالم الكتب، بيروت، ط ١.
- د. سليم، عبد الفتاح ١٩٩١: المعيار في التخطئة والتصويب. دراسة تطبيقية، دار المعارف، القاهرة.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٦- ١٩٧٧.
- سمايلوفيتش، أحمد ١٩٨٠: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. دار المعارف، القاهرة.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الإتقان في علوم القرآن. تحقيق مركز الدراسات القرآنية، طبعة الأوقاف السعودية - مجمع الملك فهد، سنة ١٤٢٦هـ.
- -------١٩٧٦: الاقتراح في علم أصول النحو. تحقيق د. أحمد محمد قاسم، ط ١، القاهرة.
- -------: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، د. ت.
- د. شاهين، عبد الصبور ١٩٦٦: تاريخ القرآن. دار القلم، القاهرة.
- ------- ٢٠٠٠: عربية القرآن. مكتبة الشباب، القاهرة.
- شبيتالر، أنطون ١٩٨٠: تعليقات على كتاب فِك: العربية. ترجمة د. رمضان عبد التواب، ضمن ترجمة كتاب العربية لفِك، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- د. شلبي، عبد الفتاح إسماعيل ١٩٥٧: في الدراسات القرآنية واللغوية، الإمالة في القراءات واللهجات العربية. نهضة مصر، القاهرة، ط ١.
- -----١٩٦٠: رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات. نهضة مصر، القاهرة.
- د. صلاح، شعبان ٢٠٠٤: مواقف النحاة من القراءات القرآنية حتى نهاية القرن الرابع الهجري. دار غريب، القاهرة.
- د. ضيف، شوقي١٩٦١: العصر الجاهلي. ط١، دار المعارف، القاهرة.
- د. عبد التواب، رمضان ١٩٦٦: قضية الإعراب في العربية الفصحى بين أيدي الدارسين. مجلة المجلة بالقاهرة، ع ١١٤.
- ------- ١٩٨٣: فصول في فقه العربية. مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- ------- ١٩٨٤: من امتداد اللهجات العربية القديمة في بعض اللهجات المعاصرة. مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٣٥، ج ١.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- ـــــــــ: العربيـة الفصـحى والقـرآن الكريـم أمـام العلمانيـة والاستشـراق. مكتبـة زهـراء الشـرق، القاهـرة.
- د. عبـد الحليـم، عبـد المنعـم: الرؤيـة اللغويـة الاجتماعيـة في مؤلفـات الجاحـظ. رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة، كليـة دار العلـوم، جامعـة المنيـا.
- د. عبده، داود ١٩٧٣: أبحاث في اللغة العربية. مكتبة لبنان: بيروت.
- د. العجمي، فالح شبيب ١٩٩٤: أبعاد العربية. الرياض.
- د. عـز الديـن، حسـن البنـا ١٩٩٤: النظريـة الشـفاهية وموقـع الأدب العـربي منهـا. مقدمـة ترجمـة كتـاب والـترأونج: الشـفاهية والكتابيـة. عالـم المعرفـة، ١٨٢، الكويـت.
- د. العمـاري، فضـل بـن عمـار ١٩٨٧: نظريـة الروايـة الشـفوية للشـعر الجاهلـي حـتى العصـر الأمـوي في آثـار الدارسـين. مجلـة كليـة الآداب، جامعـة الملـك سـعود، مـج ١٤، ع ١.
- ـــــــــ ١٩٩٦: الشعر المنحول قضايا ونصوص. ط ١، مكتبة التوبة، الرياض.
- ـــــــــ ٢٠٠٢: الأسس الموضوعية لدراسة الشعر الجاهلي. ط ١، الرياض.
- د. عمايرة، إسماعيل ١٩٩٦: بحوث في الاستشراق واللغة. ط ١، مؤسسة الرسالة، الأردن.
- د. عمايـرة، خليـل أحمـد ١٩٩٨: القبائـل السـت والتقعيـد النحـوي. مجلـة اللسـان العـربي، ع ٤٥.
- د. عمـر، أحمـد مختـار ١٩٨٥: القـراءات القرآنيـة، رؤيـة لغويـة معاصـرة. مجلـة دراسـات عربيـة وإسـلامية ٤.
- ـــــــــ ٢٠٠١: دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته. ط١، عالم الكتب، القاهرة.
- د. عيد، محمد ١٩٧٦: الرواية والاستشهاد باللغة. عالم الكتب، القاهرة.
- ـــــــــ ١٩٨١: المستوى اللغوي للفصحى واللهجات للنثر والشعر. عالم الكتب، القاهرة.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- ـــــــــ: الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، عالم الكتب، د. ت.
- د. العيساوي، يوسف ٢٠٠٥: رد البهتان عن إعراب آيات من القرآن الكريم. مجلة الأحمدية، ع ٢١.
- الغوث، مختار سيد ١٩٩٢: لغة قريش. النادي الأدبي بالرياض.
- فاجنر، إيفالد ٢٠٠٨: أسس الشعر العربي الكلاسيكي. ترجمة د. سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها. شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م، القاهرة.
- ـــــــــ ١٩٦٩: مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام هارون، البابي الحلبي، القاهرة.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد ١٩٨٣: معاني القرآن. تحقيق محمد عليّ النجار وأحمد يوسف نجاتي وعبد الفتاح شلبي، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت.
- فرستيخ، كيس ١٩٨٦: النحويون واللغويون وموقف «دوزي» من التراث العربي. ضمن كتاب: في المعجمية العربية المعاصرة. دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ـــــــــ ٢٠٠٣: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها. ترجمة د. محمد الشرقاوي، ط١، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- فريمان، أندرو ٢٠٠١: طبيعة اللغة العربية وتطورها. ترجمة د. حمزة المزيني ضمن كتاب: دراسات في تأريخ اللغة العربية. دار الفيصل، الرياض.
- فِك، يوهان ٢٠٠٥: العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب. ترجمة د. عبد الحليم النجار، الدار المصرية السعودية للطباعة.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- ـــــــــ ٢٠٠٦: الدراسات العربية في أوربا حتى القرن العشرين. ترجمة د. سعيد بحيري ود. محسن الدمرداش، طبع زهراء الشرق، القاهرة.
- فيشر، فولف يتريش ٢٠٠٥: العربية القديمة في رواية إسلامية. ترجمة د. سعيد بحيري: ضمن كتاب دراسات في العربية. طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة.
- د. قباوة، فخر الدين ٢٠٠٦: مصطلح الإعراب في معانيه المختلفة. مجلة علوم اللغة، مج ٩، ع ١، ج ٣٣.
- ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم ١٩٧٣: تأويل مشكل القرآن. شرحه ونشره السيد أحمد صقر، ط ٣، دار التراث بالقاهرة.
- كارتر، مايكل ٢٠٠٦: جذور النحو العربي. ترجمة د. عبد المنعم السيد أحمد جدامي ود. محمود مسعود، منشور بمجلة الألسن للترجمة، جامعة عين شمس، ع ٦.
- ابن كثير، القرشي ١٩٨٥: تفسير القرآن العظيم. عالم الكتب، بيروت.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب. عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م..
- مرجليوث، ديفيد صمويل ١٩٨٦: نشأة الشعر الجاهلي. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ضمن كتاب: دراسات المستشرقين حول الشعر الجاهلي.
- د. المزيني، حمزة ٢٠٠٠: مراجعات لسانية. ج ٢، كتاب الرياض، الرياض.
- مصطفى، إبراهيم ٢٠٠٣: إحياء النحو. طبعة دار الآفاق العربية، القاهرة.
- د. مطر، عبد العزيز ١٩٦٧: لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط، دراسة لغوية. دار الكاتب العربي، القاهرة.
- د. أبو المكارم، عليّ ١٩٦٨: الظواهر التركيبية في التراث النحوي. القاهرة.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- ـــــــــ ١٩٧٣: أصول التفكير النحوي. بيروت.
- مولر، فالتر ٢٠٠٥: العربية الشمالية المبكرة. ترجمة د. سعيد بحيري، ضمن كتاب: دراسات في العربية، مكتبة الآداب، القاهرة.
- مونرو، جيمز ١٩٨٧: النظم الشفوي في الشعر الجاهلي. ترجمة د. فضل العماري، ط ١، دار الأصالة للثقافة والنشر، الرياض.
- نامي، خليل يحيى: العرب قبل الإسلام. دار المعارف، القاهرة.
- نللينو، ك. ١٩١٧: كيف نشأت اللغة العربية. مجلة الهلال، أكتوبر ١٩١٧.
- نولدكه، تيودور ١٩٦٣: اللغات السامية. ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، القاهرة.
- ـــــــــ ١٩٨٦: من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ضمن كتاب: دراسات المستشرقين حول الشعر الجاهلي.
- د. هدارة، محمد مصطفى ١٩٨٥: موقف مرجليوث من الشعر العربي. ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، ج ١، مكتب التربية العربية لدول الخليج والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرياض.
- هيكر، كارل ٢٠٠٥: العربية في إطار اللغات السامية. ترجمة د. سعيد بحيري، ضمن كتاب: دراسات في العربية، مكتبة الآداب، القاهرة.
- د. وافي، عليّ عبد الواحد: فقه اللغة. دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت.
- وجدي، محمد فريد ٢٠٠٤: نقد كتاب الشعر الجاهلي. ط ٢، مكتبة الآداب، القاهرة.
- ولفنسون، إسرائيل ١٩٨٠: تاريخ اللغات السامية. دار القلم، بيروت.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- د. أبـو ياسـين، حسـن عيـسى ١٩٩١: الفصـحى بـين نظريتـين، نظريـة القدمـاء ونظريـة المحدثـين، موازنـة ومناقشـة. مجلـة جامعـة الملـك سـعود، مـج ٣، عـدد الآداب ١.
- د. ياقـوت، أحمـد سـليمان ١٩٨٩: الكتـاب بـين المعياريـة والوصفيـة. ط ١، دار المعرفـة الجامعيـة، الإسـكندرية.
- د. ياقـوت، محمـود سـليمان ١٩٨٨. التراكيـب غـير الصحيحـة نحويًّا في الكتاب لسـيبويه، دراسـة لغويـة. ط ٢، دار المعرفـة الجامعية.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

- Agius, D, A. 1988: Reliable Sources for Elicitation of « Correct » Arabic in the First Centuries of Islam. Arab Journal of Language Studies 6 (1,2): 191-197.
- Arberry, A. J. 1957: The Seven Odes. New York: Macmillan.
- Beeston, A. F. 1981: Languages of Pre-Islamic Arabia. Arabica 28 (2,3): 178-203.
- Blachere, R. 1952: Histoire de la litterature arabe. Paris.
- Blau, J. 1969: L'apparition du type linguistique néo-arabe. Revue des études islamiques 37 (1,2): 191-201.
- ------- 1972: On the Problem of the Synthetic Character of Classical Arabic as against Judaeo- Arabic (Middle Arabic). JQR (63): 29-38.
- ------- 1977. Diglossia A Study of the Origins of Neoarabic. A Froasiatic Linguistics (4): 175-202.
- ------- 1981: The Emergence and Linguistic Background of Judaeo-Arabic. 2nd Edi. Jerusalem.
- ------- 1983: Vestiges of Tanwin-un and the Case Ending-u as Attested in Yemenite Judeo-Arabic Texts from the SeventeenthCentury.B.S.O.A.S.46:529-31.
- ------- 1986: The Jahiliyya and the Emergence of the Neo-Arabic Lingual Type. J.S.A.I. (7): 35-43.
- Burton, J. 1988: Linguistic Errors in the Qur'an. Journal of Semitic Studies 33: 181-196.
- Cadora, F. 1992: Bedouin, Village and Urban Arabic. E. J. Brill, Leiden, New York, Koln.
- Carter, M. G. 1972: Les origines de la grammaire arabe. REI, 40 : 69-96.
- ------- 1973: An Arab Grammarian of the Eighth Century A.D. J.A.O.S. 93 (1): 146-157.
- ------- 2004: Sibawayhi. Oxford Center for Islamic Studies.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

– Chejne, A. G. 1969: The Arabic Language; Its Role in History. University of Minnesota Press.

– Corriente, F. 1971: On the Functional Yield of Synthetic Devices in Arabic and Semitic Morphology. J.Q.R. 62: 20-50.

– ------- 1973: Again, on the Functional Yield of some Synthetic Devices in Arabic and Semitic Morphology. J.Q.R. 64: 154-163.

– ------- 1975: Marginalia on Arabic Diglossia and Evidence thereof in the Kitab Al-Aghani. Journal of Semitic Studies 20: 38-61.

– Diakonof, I. 1998: The Earliest Semitic Society, Linguistic Data. Journal of Semitic Studies 63 (2): 209-19.

– Faber, A. 1997: Genetic Subgrouping of the Semitic Languages. In Hetzron, R. (Ed.), The Semitic Languages. 3-15.

– Fleisch, H. 1974: Arabe classique et Arabe dialectal. Travue et Jours 12: 23-64.

– Gibb, H. A. R. 1963: Arabic Literature. Axford University Press.

– Goldziher, I. 1994: On the History of Grammar among the Arabs. Translated and edited by Kinga Dévenyi, Tamas Ivanyi. Benjamins Publishing Company. Amsterdam.

– Gilliot, C. 2003:

– Langue et coran. Arabica 50 (3): 381-93. Holes, C. 1995:

– Modern Arabic; Structures, Functions and Varieties. Longman.

– Larcher, P. 2001: Moyen arabe et arabe moyen. Arabica 48 (4) :509-78.

– -------- 2005: Arabe preislamique, Arabe Coranique, Arabe Classique: un continunnm. In Ohlig, k, H(ed): Die Dunklen Anfange verlag Hans Schiler. Pp.248-265.

– Levin, A. 1994: Sibawyhi's Attitude to the Spoken Language. J.S.A.I. 17: 204-43.

– ------- 1999: The First Book of Arabic Dialectology; Sibawayhi's Al-Kitab. J.S.A.I. 23: 208 - 20.

– Moscati, S. & Others (Eds.) 1969: An Introduction to the Comparative Grammar of Semitic Languages. Wiebaden.

– Owens, J. 1998: Case and Proto-Arabic. B.S.O.A.S. 61 (1): 51-73. and B.S.O.A.S. 61 (2): 215-27.

– ------- 2001: Arabic Sociolinguistics. Arabica 48 (4): 419-69.

– Rabin. C. 1955: The Beginnings of Classical Arabic. Studia Islamica 4: 21-37.

– Rénan, E. 1961: Histoire générale et systéme compare des langues sémitiques, Premiére partie. 6 édition. Paris.

– Roman, A. 1973: Les faits coranique, Poétique, Prosodique et la stabitité de la koiné arabe. Mélanges de l'université Saint-Joseph 48: 215-30.

– Shahid, I. 1965: A Contribution to Koranic Exegesis. in Maakdisi, G. (Ed.): Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A. R. Gibb. Leiden; E.J. Brill.

– ------- 1985: Another Contribution to Koranic Exegesis. The Sura of the Poets (16). Journal of Arabic Literature 14: 1- 21.

– ------- 1996: The Authenticity of Pre-Islamic Poetry, The Linguistics Dimension. Al-Abhath XLIX: 3-29.

– Talmon, R. 1987: Schacht's Theory in the Light of Recent Discoveries Concerning the Origins of Arabic Grammar. Studia Islamica 65: 31-50.

– Testen, D. 1997: Literary Arabic and Early Hijazi Contrasts in the Marking of Definiteness. P.A.L, XI: 207-25.

– Troupeau, G. 1976: Lexique-index du kitab de sibawayhi. Paris.

– Versteegh, K. 1983: Arabic Grammar and Corruption of Speech. Al-Abhath 31: 139-60.

– ------- 1984: Pidginization and Creolization; The Case of Arabic. Amsterdam: J. Benjamins.

هذه الطبعة إهـداء من المجمـع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

– ------- 1986: Latinitas, Hellenismos, Arabiyya. H.L. 13 (2,3): 425-48.

– ------- 1987: Modern Approaches to the History of Arabic. In Progres de la linguistique dans les etats arabes, Rabat; Dar al-Gharb al-Islami.

– ------- 1997A: The Arabic Language. Columbia University Press. New York.

– ------- 1997B: The Arabic Linguistic Tradition. London, Routledge.

– Voigt, R. M. 1987: The Classification of Central Semitic. Journal of Semitic Studies 32: 1-21.

– Wansbrough, J. 1977: Qur'anic Studies. Oxford University Press.

– Youssi, A. 2004: Is There an Orientalist Linguistics?.In Haak, M.and Others (Eds.) : Approaches to Arabic Dialects. Brill; Leiden- Boston.

– Zammit, M. R. 2004: A Comparative Lexical Study of Qur'anic Arabic. Brill, Leiden, Boston, Koln.

– Zwettler, M. 1978: The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry.Ohio State University Press. Columbus.

نبذة عن المؤلف

عبد المنعم السيد جدامي، ولد في محافظة المنيا بصعيد مصر عام ١٩٦٤م، أستاذ اللسانيات بقسم اللغة العربية - كلية العلوم الإنسانية- جامعة الملك خالد، وكلية دار العلوم- جامعة المنيا، وعميدها الأسبق، حصل على دكتوراة مزدوجة من جامعة ليون ٢ بفرنسا وجامعة المنيا بمصر عام ٢٠٠٠ م. كتب عددًا من البحوث في اللسانيات الاجتماعية العربية، ومشكلات الترجمة، وبناء المصطلح العلمي، وفي عرض وتقييم دراسات المستعربين القائمة حول التراث اللغوي العربي، وكذلك تاريخ اللغة العربية وتنوعاتها، ونشرت في دوريات محكمة مميزة. ترجم عددًا كبيرًا من الأبحاث المهمة حول العربية وتنوعاتها، والتراث اللغوي العربي وقيمته، وبدايات اللسانيات النصية. حكم في لجان تحكيم كبرى في العالم العربي، وحكم وناقش في أغلب الجامعات الكبرى في مصر والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان. كُرم في عدد من المناسبات في جامعة الملك خالد وجامعة المنيا.


مجمع الملك سلمان
العالمي للغة العربية
King Salman Global Academy for Arabic Language

نبذة عن الكتاب

يعرض هـذا الكتاب تصورات عـدد كبير من المستشـرقين - وبخاصة المهتمـين بتاريـخ اللغة العربيـة وتنوعاتهـا - للعربية الفصـحى، ويحاول توضيـح وتحليل آرائهم التي جـاءت متباينـة في ضـوء آراء العلماء العرب القـدامى؛ فمنهم من يرى العربية الفصـحى لهجة قريش، وهناك من يراها لهجة قبيلة كندة، وهناك من يراها المستوى الأدبي للعربية، ومنهم من يراها العربية القديمـة، ومنهم من يراها لغة مصطنعة، ولـم تكن لغة حيّة لأي مجتمع لغوي.

ومن خلال تحليل المادة العلمية التي كتبت بأيدي المستشـرقين، وتأمل آراء علمـاء العربيـة القدامى يحاول مؤلـف الكتاب المشـاركة في التحليل، والمسـاهمة في مجال التأريخ للعربية وتنوعاتها بغية الوصول إلى الحقيقة العلمية، وتصحيح كثير من الآراء الخاطئة.

9 786038 413258

هذه الطبعة
إهداء من المجمع
ولا يُسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً